

جوت مجبیتا

## بحوث مجمعية

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية - بنغازي

(398 / 2012)

مجمع اللغة العربية - شارع البلدية

ص. ب : 551 بريد ميدان الجزائر - طرابلس

هاتف 00218 -21-4440728 / 00218 -21-4445704

ناسوخ (فاكس) : 00218-21-4440126

البريد الإلكتروني: [Lugha\\_arabiya@yahoo.com](mailto:Lugha_arabiya@yahoo.com)

# مجلة بحوث

إصدار غير دوري لأعضاء المجتمع

العدد الخامس

(2021 / 1443)



مجمع اللغة العربية - ليبيا

# بُحُوثٌ مَجْمَعِيَّةٌ

(إصدارٌ غيرٌ دوريٍّ لأعضاء المجمع)

رئيس التحرير

أ.د. محمد مصطفى بن الحاج

مدير التحرير

أ.عمار محمد جحيدر

هيئة التحرير

أ.د. محمد فرج دغيم

أ.د. عمر خليفة بن إدريس

أ.د. محمد خليفة الأسود.

العدد الخامس (١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م)

## المحتوى

- أ. د. محمد مصطفى بن الحاج ..... 9  
مقدمة العدد.

## لغويات

- 1 - أ. د. عمر خليفة بن إدريس ..... 17  
تعبيرية الملفوظ والمخطوط وسبل تحصيلها.
- 2 - أ. د. محمد محمد يونس ..... 35  
الكمام، والكمامة، وأصيل وضعها وتسويغ استعمالها.

## أدبيات

- 1 - أ. د. عبد الحميد عبد الله الهرامة ..... 55  
الحقيقة البلاغية والخلاف اللفظي.
- 2 - أ. د. عبد الله محمد الزيات ..... 89  
الشعر العربي والشعر الأوربي.

## أعلام وتاريخ ثقافي

- 1 - أ. د. محمد فرج دغيم ..... 161  
الموريسكيون.
- 2 - أ. د. محمد مصطفى بن الحاج ..... 179  
منهجية التأليف والتحقيق في آثار الشيخ الطاهر أحمد الزاوي (1890-1986).
- 3 - أ. د. عمار محمد جحيدر ..... 215  
آفاق في خدمة النص / والمخطوط التكويني: مصطلحات جديدة/ وأمثلة تطبيقية من المكتبة الليبية.

\*\*\*



## مقدمة العدد

أ.د. محمد مصطفى بن الحاج

(نائب رئيس المجمع)

على الرغم مما يواجه حركة النشر في مجعنا اللغوي الليبي من عوائق متعددة، استطعنا بتوفيق الله أن نصدر هذا العدد من (بحوث مجعية) ضمن منجزات هذه السنة المجمعية 2021م.

ولئن شكونا كثيراً من عائق المصدر التمويلي بسبب جهل أكثر أصحاب القرار برسالة المجمع ومسؤولياته وأهمية أهدافه أو تجاهلهم إياها، وتجاهل المجمع نفسه، فإننا نعاني من عائقٍ آخر، وهو عزوف أكثر الباحثين من الجامعيين أو من غيرهم عن تقديم دراساتٍ تكون في مستوى النشر المجمعى؛ سواء في هذا الإصدار (بحوث مجعية) المخصص لأعضاء المجمع العاملين، أو في (مجلة المجمع) الدورية. ونحن ندرك أسباب ذلك العزوف، ومن بينها عجز المجمع عن رصد مكافآتٍ معقولة، إن لم تكن مجزئة لمقدمي تلك الدراسات؛ تأليفاً كانت أو تحقيقاً أو ترجمة، أو لمن يُكَلَّف بمراجعتها وتقييمها.

على الرغم من ذلك وغيره، صبرنا وصابرنا، وها هو ذا العدد الجديد بين أيدي القراء الكرام الذين يهتمون بما يُنشر عن لغتهم العربية الفصحى شرف كل مواطنٍ في هذه البلاد، ورمز هوية كل مسلمٍ بغض النظر عن عرقه وثقافته الخاصة، والأداة الوحيدة للتعامل الرسمي والتواصل مع الآخرين.

هذا هو عددنا الجديد من هذه المطبوعة المجمعية، يقدم باقةً من الدراسات العلمية عبر ثلاثة محاور ثابتة هي: (لغويات / وأدبيات / وأعلام وتاريخ ثقافي). وهي

محاور تمثل المجالات العامة التي يستهدفها المجمع في أنشطته وبرامجه أعماله المتنوعة. الدراسة الأولى في المحور الأول للأستاذ الدكتور عمر خليفة بن إدريس، عضو المكتب التنفيذي بالمجمع، بعنوان «تعبيرية الملفوظ والمخطوط وسبل تحصيلها». وهي دراسة عن المفردات والتراكيب وبنائها للمهارات اللغوية الأربعة المعروفة: الاستماع، والقراءة، والكتابة، والمحادثة. ولكون هذه المهارات تحتاج إلى وسائل تحقق مقاصد المعلم والمتعلم، لزم أن يكون تدريسها من خلال المستويات اللغوية المعروفة: الصرفي، والنحوي، والدلالي، والكتابي أي الإملاء والخط. لذلك تناولت الدراسة أصل الحروف العربية وحركاتها وأحكام نطقها صرفياً ونحويًا، وما يتخلل السياق اللغوي من مظاهر بلاغية من معاني وبيانٍ وبديع؛ وهو ما يشكّل علوم اللسان العربي. وتنتقل الدراسة لتتناول تعبيرية الملفوظ مشافهةً، وتعبيرته كتابةً، ثم ضبط الخط تعبيراً وشكلاً؛ ثم تتحدث الدراسة عن رمزية الحروف العربية في أشكالها الهندسية؛ لاسيما لدى المتصوفة بخاصةٍ ولدى سائر الشعراء العرب بعامة، فيما بعد القرن السابع الهجري تقريباً. وتختتم الدراسة بتقديم عددٍ من المقترحات والتوصيات التي تضمن لنا بناء جيلٍ متينٍ في لغته الفصحى، يعتزُّ بها ويغار عليها.

أمّا الدراسة الثانية في المحور الأول، فتأتي استجابةً لُسمي عرفته البشرية بأسرها منذ أكثر من سنتين، وهو في لغتنا العربية المستعملة حديثاً (الكمامة)، هذا القناع الذي فرضه انتشار مرض (الكورونا) المعروف الآن؛ بغية الوقاية وحماية النفس والآخرين. وقد ثار جدلٌ بين عددٍ من اللغويين حول ضبط لفظة الكمامة، وتطوُّع الأستاذ الدكتور محمد محمد يونس علي، أستاذ اللسانيات المعروف، وعضو المجمع العامل، فكتب هذه الدراسة عنه، تأصيلاً لهذه اللفظة وتسيوياً لاستعمالها. وقد استفرغ جهده في تجميع الشواهد اللغوية ومناقشتها، فجاءت دراسته كافية شافية.

وفي مجال المحور الثاني الأدب بمعناه الشامل، نلتقي بدراستين: الأولى بعنوان «الحقيقة البلاغية والخلاف اللفظي»، للأستاذ الدكتور عبد الحميد الهرامة، رئيس المجمع

حالياً. وهي دراسة عن إشكاليّة لغويّة بلاغيّة كلاميّة، أثارَت جدلاً في كتب التراث ما يزال متواصلاً، هي قضيّة الحقيقة والمجاز. وفي هذه الدراسة المستوعبة والمناقشة لما عُرف من آراء قديمة وحديثة، اقترح الأستاذ الدارس مصطلحاً جديداً هو «الحقيقة البلاغية»، فاصلاً إيّاه عن أنواع الحقيقة المعروفة: اللغوية والشرعية والعرفية من جهة، وعن المجاز بأنواعه المعروفة من جهةٍ أخرى، لتحقيق غايةٍ محدّدة، وهي إزاحة الغموض الذي أدّى إلى رفض المجاز لدى نَفَرٍ من العلماء مخالفةً لما عليه معظم علماء المسلمين القدامى والمعاصرين. وقد ألقى الدكتور الهرامة ملخصاً لهذه الدراسة في محاضرة بقاعة المجمع يوم 14 أكتوبر الماضي، أثارَت نقاشاً مفيداً أثرى مضمونها، شارك فيه عددٌ من الأساتذة الحاضرين، وعددٌ من المشاركين عبر وسيلة (الزوم).

وننتقل إلى الدراسة الأخرى في (الأدبيات)، وهي ترجمة أنجزها متخصصٌ دارسٌ ومترجم في دائرة الأدب الأندلسي، هو رئيس لجنة التراث في المجمع، الأستاذ الدكتور عبد الله الزيات العضو العامل بالمجمع. وعنوان الدراسة المترجمة «الشعر العربي والشعر الأوروي»، للبحّاثة الإسبانية د. رامون م. بيدال. وهي تتناول الأغنية الشعبية الأندلسية القائمة على فنّ الزجل، وما دار حولها من آراء الدارسين الإسبان عن تاريخ الزجل وصلته بما شاع من أشعارٍ مغنّاةٍ في ربوع الأندلس وفي شمالها وفي إيطاليا تحت سلطان النصارى، وما انتشر في آفاق الدولة الإسلامية في الشمال الإفريقي ومصر والعراق وما وراءه من زجل الأندلس. وقد أشارت الدراسة إلى الوهم والتحيز لدى عددٍ من الدارسين النصارى المتعصبين في أحكامهم عن صلة الزجل بالشعر الأوروي. وبعد أن قارن بين المقطع الزجلي في كلٍّ من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، تحدّث عن الصلة بين المنهجين العربي والغربي في دراسة ذلك المقطع، ثم عرض صعوبات غموض الشعر العربي، وظروف المرأة المسلمة، وتناول قضية الحب وضروبه وعلاقته بالحارس والرقيب. وبعد أن انتهى إلى خاتمة موضوعه، استدرِك فتكلّم عن الشعر الإسباني الروماني الأوّل، والدواوين الغاليسية البرتغالية والغنائية القشتالية.

ونأتي إلى المحور الثالث المخصص (للأعلام والتاريخ الثقافي)؛ لنلتقي بدراسة بعنوان «الموريسكيون»، للأستاذ الدكتور محمد فرج دغيم، العضو العامل بالمجمع، والحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام 1971م، وهي أول أطروحة علمية ليبية عن الأندلس. وتحت عنوان تحوُّلات الوجود الإسلامي في الأندلس انطلقت الدراسة لسرد المراحل والممالك التي حكمت هناك؛ ابتداءً من خلافة عبد الرحمن الداخل سنة 138هـ، حتى سقوط غرناطة سنة 898هـ. ثم تحدّثت عن ظهور مصطلح الموريسكيين واضطهادهم، وهم المسلمون من عربٍ وبربرٍ الذين بقوا بعد سقوط غرناطة وغيرها من المدن والقرى الأندلسية، كما يعني المصطلح المسلمين المنصرّين، وقد صاروا طبقةً ثانية، استهدفتها الكنيسة الكاثوليكية والسلطة السياسية معاً، وفُرض عليها التنصير بكل وسائله ومظاهره وأهدافه. ثم انتقلت الدراسة إلى عرض مزيد من صور الاضطهاد ضدّ أولئك المنصرّين، وما نشأ عنها من ثورات لهم، فشلت لأسبابٍ كثيرة. وتحدّثت الدراسة عن هجرات الموريسكيين إلى فرنسا وإلى الشمال الإفريقي وأمريكا، ثم عن التأثير الحضاري للموريسكيين في البلدان التي هاجروا إليها، ثم عن الأثر السلبي على الزراعة والاقتصاد الإسباني بسبب هجرة الموريسكيين ونفيهم، وأخيراً تحدّثت عن البقايا الدفينة من التراث الأندلسي الموجودة حتى الآن في إسبانيا.

أمّا الدراسة الثانية في هذا المحور، فهي دراسة عن منهجية التأليف والتحقيق في آثار الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، لكتاب هذه المقدمة، نائب رئيس المجمع. وهي دراسة رصدت الخطوط العامة للمنهجية التي اتسمت بها تلك الآثار؛ لكونها جزءاً من تاريخ بلادنا الثقافي، عُنت بمجالي اللغة والتاريخ، ومثّلت منهجية تلك المرحلة التي عاشها هذا المصنّف. وقد حاولت هذه الدراسة أن تكون تقييماً موضوعياً بعيداً عن أساليب المجاملة وتحميل الأمور غير ما تحتمل.

واهتماماً بمخدمة النص، ولا سيّما التراثي منه، وهو أحد منطلقات أشغال المجمع من خلال لجانه العلمية المختلفة، يتصدّى الباحث القدير الأستاذ عمار محمد جحيدر،

أمين عام المجمع، لدراسة قضية منهجية مهمة عند دراسة النصوص، جاءت في هذا المحور تحت عنوان «آفاق في خدمة النص / والمخطوط التكويني: مصطلحات جديدة، وأمثلة تطبيقية من المكتبة الليبية». وهي دراسة تقدم عصارة تجربة طويلة في التعامل مع النصوص التاريخية بخاصة، بحكم التخصص الدقيق، وسائر النصوص الأخرى، وتفتح آفاقاً لخدمة تلك النصوص جمعاً وعرضاً وتحليلاً واستنتاجاً، بمصطلحات مبتكرة محدّدة، وجداول تحليلية راصدة، وصولاً إلى نتائج أدقّ وأحكام أقرب إلى الصدق والموضوعية. وتتلخّص خدمة النص في أنّها مصطلح (أمومي)، بديل وأكثر سعة واستيعاباً لضروب العناية بالتراث المخطوط (تكوينياً ومكتملاً ومطبوعاً منشوراً). وقد قدّمت هذه الدراسة العميقة المبتكرة خلاصات موجزة عن كل بعدٍ من أبعاد خدمة النصّ قرين أمثلة تطبيقية من المكتبة التاريخية الليبية، مستعينة بالجداول والرسوم البيانية الإحصائية، دليلاً على موضوعيتها ومنهجيتها الحديثة المنضبطة.

وهكذا تنوّعت دراسات هذا العدد من الإصدار المجمع الجديد، عبر محاوره الثلاثة. ومن المهم أن نلفت انتباه القراء الأفاضل إلى أنّ المجمع ليس مسؤولاً عن وجهات الدارسين وآرائهم الخاصة. ونحن نرحّب بتعليقات الأساتذة المطالعين، بل نستحثّهم على القراءة البصيرة الناقدة التي تضيف وتثري، وتصحّح وتوجّه، بشرط الالتزام بأدب الحوار واللياقة واللباقة.

وختاماً لهذا المقدمة، لا بدّ لنا من التنويه بالجهد الكبير الذي بذله الأستاذ عمار جحيدر في تحرير المادة العلمية التي ضمّتها هذه المحاور، وهو عمل دقيق ومرهق، جازاه الله عنا وعن كُتّاب تلك المادة العلمية كل خير، ومتمّعه بالصحة والعافية وطول العمر.

\*\*\*



## لغويات



## تعبيريّة الملفوظ والمخطوط وسبل تحصيلها

أ.د. عمر خليفة بن إدريس

(عضو المجمع)

### توطئة:

يشترك اللفظ والخط في إظهار المعاني الكامنة في خبايا الأذهان، بيد أنّ الأداة التي يؤدّي بها اللفظ حملته من المعاني هي اللسان، وأنّ الآلة التي يؤدّي بها الخط حملته من المعاني هي القلم؛ «القلم لسان اليد» و«القلم أحد<sup>(1)</sup> اللسانين».

ثمّ إنّ إحكام التعبير بهذين اللسانين يقتضي اكتساب أربع مهارات وحذقها حذقاً متوازناً، وهي: مهارة الحديث، ومهارة الاستماع، ومهارة الكتابة، ومهارة القراءة؛ ذلك لأنّ التّعليم والتّعلّم فعل تواصل لفظي، وكلّ فعل من هذا القبيل يقتضي مرسلًا يوجّه رسالة إلى مرسل إليه، ويقتضي سياقاً قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، فإن كان سياق الرّسالة الحديث، فطريق إدراكها السّماع، وإن كان سياقها الخطّ المكتوب، فطريق إدراكها تحويل المكتوب إلى مقروء، ويقتضي توصلاً مشتركاً بين الطرفين، كلياً كان هذا التواصل أو جزئياً، ويقتضي قناة اتّصال تسمح بإقامة هذا التواصل والحفاظ عليه، هذا أمر معروف، وعادة ما<sup>(2)</sup> يمثّل له بهذا الشكل:

سياق

مرسل ..... رسالة ..... مرسل إليه

اتّصال

سنن

(1) علي بن خلف الكاتب، موادّ البيان، تحقيق: حسين عبداللطيف، طرابلس: جامعة الفاتح، 1982م، ص 482.

(2) رومان ياكبسون، قضايا الشّعريّة، ترجمة محمد الوليّ، المغرب، دار توبقال، ص 27.

## (1)

ولأنّ حذق هذه المهارات يفتقر إلى وسائل محكمة تحقّق مقاصد المعلم والمتعلّم، فقد اقتضى تدبير اكتسابها تقسيم النظام اللغويّ إلى مستويات هي:

1-المستوى الصّرفي.

2-المستوى التّحويّ.

3-المستوى الدّلالي.

4-المستوى الكتابيّ.

وتصريف القول في هذه المستويات كلّها يصرفنا عمّا نحن آخذون فيه من حديث عن تعبيرية المفوظ والمخطوط، ويجعلنا نؤثر معالجة ما يندرج طيّه في:

1-اللفظ وأبعاد ضبطه.

2-تعبيرية المفوظ مشافهة.

3-تعبيرية المفوظ كتابة.

4-الخط ضبطه تعبيراً وتشكيلاً.

## (2)

## أولاً - اللفظ: وأبعاد ضبطه:

يمكننا أن نسوق هنا كلاماً طيباً قيّده سيبويه، وهو يصف هيآت الحروف العربيّة، ويحدّدها صورة وجرساً، وأصولاً وفروعاً، وما يستحسن منها، وما لا يستحسن، إذ قال:

«أصل (1) حروف العربيّة تسعة وعشرون حرفاً...، وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها، وتستحسن في

(1) سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية للكتاب، 4 / 431.

قراءة القرآن والأشعار... وهي: التّون الخفيفة، والهزمة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشّين التي كالجميم، والصّاد التي كالزّاي، وألف التّفخيم يعني بلغة أهل الحجاز،... وتكون اثنتين وأربعين بحروف غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من تُرضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن، ولا في الشّعْر، وهي الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشّين، والطّاء التي كالطاء، والظّاء التي كالطاء، والباء التي كالفاء».

فهذا الذي ذكره سيبويه وصفاً يمثل ضبطاً للحرف العربيّ بعيداً عن دائرة التركيب، فما لا يضبط من أصوات العربيّة إلاّ بالمشاهدة ذكر ما هو حسن منه، وترك ضبطه لاجتهادات قرّاء القرآن ومنشدي الشّعْر؛ واستقبح منه ما استقبح، وأبى قبوله في قراءة القرآن وفي لغة الشّعْر.

ومعنى هذا أنّ ضبط أصوات العربيّة خضع لنظام صارم، تحدّى تعدّد اللهجات وكثرتها، وجعل فعل الصّنعَة يزاحم فعل الفطرة<sup>(1)</sup> والسّليقة. وأمّا ما أمكن ضبطه من أصوات العربيّة، فقد وُضعت له رموز دالّة على هيّات هذه الأصوات، ودعوا ما وضعوه حروفاً، وهي الحروف الأصول التسعة والعشرون.

ثمّ إنهم وضعوا رموزاً أخرى دالّة على أوضاع أعضاء النّطق عند أداء تلك الحروف وإظهار أجراسها، ودعوا هذا الذي وضعوه حركات، وهي: الضّمة، والفتحة، والكسرة، فإذا اختفى أثر الحركات فذلك هو السّكون.

### (3)

وإمعاناً في الضّبط والتّدقيق وضعوا لتلك الأصول ضبطاً آخر، لكن في داخل تركيب الكلمة، وجعلوا ضبطها موضوع علم التّصريف، وجعلوا لصاحب التّصريف مجالاً حيّزاً فاء الكلمة وعين الكلمة، وما قد يزداد معهما من حروف دعوها حروف

(1) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 81.

الزيادة، بل استقرأوا هذه الحروف وجمعوها في قولهم، «هناء وتسليم» أي أنها تنحصر في هذه الحروف دون غيرها.

فإذا وقف صاحب التصريف حيثما ينتهي حيز مجاله، كان الحرف الأخير من حروف الكلمة الأصلية هو المجال الذي يشغله علم التحو، من جهة أنه علم يُعنى بالتظرف في أوضاع الحركات على أواخر الكلمات المفردة في بنية تركيب الجملة طبقاً لمقتضيات الإسناد، وذلك ضمن أبواب كبرى تتفرع منها فروع، وكلها تندرج فيما يصطلح عليه بالمعرب والمبني، وما هو من ذلك مبني على الضمّ، أو الفتح، أو الكسر، أو السكون، أو ما هو من ذلك معرب بها، أو بما يقابلها من حروف الإعراب: الألف، والواو، والياء. فإذا نظر التّحاة في علاقة الجملة بالجملة إسناداً شاركهم في هذا المجال أصحاب علم المعاني، وما علم المعاني إلاّ التحو في أرقى مظاهره، فأصحابه يبحثون في أحوال اللفظ العربي تعريفاً وتنكيراً، وذكراً وحذفاً، وإظهاراً وإضماراً، وتوكيداً وخلوفاً من التوكيد، وإيجازاً وتقصيراً، وإطناباً وتطويلاً، وغير ذلك من مباحث هذا العلم، لكنّ المبدأ الذي أثرى جهودهم هو مبدأ «مطابقة الكلام<sup>(1)</sup> لمقتضى الحال» المضمّن في قولهم: «لكلّ مقام مقال»، ثمّ ما لبثوا أن أضافوا إلى علم المعاني علم البيان، وعلم البديع، وأدرجت ثلاثتها تحت عنوان أكبر هو «علم البلاغة».

ولهذا أطلق أهل العلم على علوم اللغة: اللغة، والصّرف، والتحو، والمعاني والبيان، والبديع، اسم علوم<sup>(2)</sup> اللسان، وقالوا: إنّ معرفتها ضرورية؛ لأنّ في جهلها إخلالاً بالمقاصد،

(1) السّكّكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، لبنان، دار الكتب العلمية، ص 168.

(2) عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مصر، الخانجي، 1 / 5

وقد نقل البغدادي كلام الرعيّني، واسمه أحمد بن يوسف بن مالك الرعيّني الذي قال: «علوم الأدب ستة: اللغة، والصّرف، والتحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلاّ بكلام العرب، = دون الثلاثة الأخيرة، فإنّه يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولّدين: لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذ هو أمر راجع إلى العقل، ولذلك قُبل من أهل هذا الفنّ الاستشهاد بكلام البحترى، وأبي تمام، وأبي الطيّب وهلمّ جرّاً».

بل إخلالاً بالتفاهم جملة.

(4)

### ثانياً - تعبيرية الملفوظ مشافهة:

فرّق أهل التدقيق من علمائنا بين ثلاثة مصطلحات يجري ذكرها كلما أريد وصف من يفصح عن مراده مشافهة، وهي:

1 - الارتجال: واشتقاقه<sup>(1)</sup> من ارتجال البئر، وهي أن ينزلها الرجل برجليه من غير حبل، فكأنهم شبّهوا اقتدار الشاعر وغير الشاعر على القول من غير فكرة ولا أهبة باقتدار نازل البئر على التزول من غير حبل ولا آلة. وأما حقيقة الارتجال فتتصرف إلى ما كان من القول متدفقاً منهمراً، حتى يخال أنّ ما يقال على هذه الحالة محفوظ أو مرئي ملحوظ، وتتصاف المرتجل بهذه المهارة يثير الإعجاب<sup>(2)</sup> بقدرته على التحكم في تصاريف القول وتنظيمه في خطاب ينال الرضا والقبول. كالذي يروى<sup>(3)</sup> عن أبي الخطاب عمر بن عامر السّعيدي، وقد أنشد موسى الهادي شعراً مدحه به، يقول فيه:

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَّاهُ مُجَزَّتُهُ      وَخَيْرَ مَنْ قَلَدَتْهُ أَمْرَهَا مُضَرُّ

فقال له موسى: إلا من يا بائس؟ فقال واصلاً كلامه، ولم يقطعه:

إِلَّا النَّبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَهُ      فَخْرًا، وَأَنْتَ بِدَاكِ الْفَخْرِ تَفْتَخِرُ

فطن القوم أنّ البيت مستدرك، ونظروا في الصحيفة فلم يجدوه.

(1) علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائيه، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 7.

(2) جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، ترجمة مبارك حنون، ومحمد الولي، المغرب، دارتو بقال، ص 112.

(3) العمدة، ابن رشيقي القيرواني، تحقيق: النبوي شعلان، مصر، الخانجي، 1 / 305.

2 - البديهة: وهي مشتقة<sup>(1)</sup> من بَدَهَ يَبْدُهُ، بمعنى بدأ- يبدأ؛ أبدلوا الهمزة ها، لقربها منها. وحقيقتها أن ينزل صاحبها عن حالة المرتجل قليلاً، ويفكر تفكيراً قصيراً، فالعامل الفاعل فيها، والصفة الجوهرية لها هي التَلَبُّثُ قليلاً والتفكير وقتاً قصيراً.

3-الرؤية: هي في الأصل مهموزة من<sup>(2)</sup> (رَوَى) في الأمر إذا تأمل وتفكر، وهي تكون قبل العزيمة وبعد البديهة، وقد أحسن من قال:

بَدِيهَةٌ تَحُلُّ عُرَى الْمَعَانِي إِذَا انْغَلَقَتْ فَتَكْفِيهِ<sup>(3)</sup> الرَّوِيَّةُ

وحقيقتها: أن يُطِيلَ صَاحِبُهَا التَّفْكِيرَ، وَيَسْتَقْصِي فِي تَأْمَلِ مَا هُوَ مَقْبَلٌ عَلَى مَشَافَهَةِ الْآخِرِينَ بِهِ.

ومعنى هذا أن الارتجال أسرع من البديهة، وأن الرؤية بعدهما، ومعناه أيضاً أننا يازاء ثلاثة مستويات لتعبيرية الملفوظ مشافهة، وليست هذه المستويات في حقيقة أمرها إلا أحوال تكتسب ترقياً من الأدنى إلى ما هو أعلى منه، وبيان ذلك:

أ - أن التعبير ارتجالاً ما هو إلا حالة يلابس فيها التفكير القول.

ب - وأن التعبير بديهة هو كذلك حالة يسبق فيها القول تفكيراً قليلاً.

ج- وأن التعبير رؤية هو أيضاً حالة يسبق فيها القول تريتاً في التفكير.

ولئن كان ضبط الحدود الفاصلة بين هذه المستويات لا يمكن تعيينه بأكثر من هذا الوصف، ففي وسعنا أن نعزز هذا الضبط من جهة أخرى، وهي أن كثرة المعادة والتكرار من شأنها أن تحوّل الحال إلى صفة، وأن تحوّل الصفة من بعد إلى ملكة.

فالتعبير رؤية يبدأ حالة سريعة الزوال، ومع دوام التكرار وكثرة المعادة تصير الحال

(1) بدائع البدائ، مصدر سابق، ص 7.

(2) نفسه.

(3) أبو البقاء الكفوي، اللغات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص 497.

صفة غير راسخة، ثم بزيادة التكرار والمعاودة تترسخ شيئاً فشيئاً، فإذا ترسخت الصفة، ومارستها النفس فصارت بطيئة الزوال، عُدَّت ملكة<sup>(4)</sup>، أي صفة راسخة في النفس، وهكذا الشأن في التعبير بديهة والتعبير ارتجالاً في تحوُّلها من حال إلى صفة غير راسخة، ثم إلى ملكة بعد أن يترسِّخا ويستحكما بالتكرار وكثرة المعاودة.

وكان من شأنهم أنّ العربيّ إذا ارتجل كلاماً «لم يأت به»<sup>(5)</sup> من وادٍ واحد، بل يفتن، فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرّر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف حتى يفهمه بعض الأعجميين، ويشير إلى الشيء، ويكفي عن الشيء، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل، وكثرة الحشد وجلالة المقام. ثم لا يأتي بالكلام كله مهذباً كلّ التهذيب ومصفى كلّ التصفية، بل تجده يمزج ويشوب؛ ليدلّ بالتأقص على الوافر، وبالغث على السمين. ولو جعله كله نجراً واحداً لبخسه بهاءه وسلبه ماءه».

(5)

### ثالثاً - تعبيرية الملفوظ كتابة:

لئن تقاسم الملفوظ والمكتوب الدلالة، وناب أحدهما مناب الآخر قبل زماننا، ففي زماننا هذا صار تسجيل الصوت الذي يؤدّيه اللسان بمنزلة الخطّ الذي يرسمه القلم، وصارا معاً يبلّغان الحاضر والغائب، لكن ظلّ ارتجال الملفوظ باباً تتسرّب منه أخطاء لا يمكن تلافيها، وعلى خلاف ذلك يكون المكتوب؛ لأنّ قابليته للمعاودة والمراجعة تعدّ ميزة توفّر للقلم إصلاح الخلل الذي وقع فيه. وفضلاً عن ذلك فإنّ الملفوظ مشافهة مزاحم بالدارجة التي تتسرّب مفرداتها وتراكيبها إلى اللسان، فيعاب بذلك القول والقائل، لكنّها مزاحمة في وسع الكاتب المجيد أن يكون في نجوة منها، وهذا ما يمنح الكتابة إقبالا، بل جاذبية ننسى

(4) ابن خلدون، المقدّمة، مصر، دار ابن خلدون، ص 409.

(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط2، 1973م، ص 13.

معها أننا نغلب المكتسب لدينا على الفطريّ فينا.

فلا محالة أنّ الناشئ إذا لقّن معارف العربيّة، واكتسب ممّا لقّن رصيذاً وافرًا من مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، وحذق قدرًا كافيًا من كتاب الله، وعرف ما يتداوله الشعراء، وما تحظّه أقلام الكتاب، وما يستعمله هؤلاء وهؤلاء من فصيح الكلم- تكوّنت رويّته، ووقف على تصارييف القول، وغدا في وسعه أن يدرج في مطاوي كلامه ما يحقّق قدرته على التعبير بقلمه ولسانه، كأن يعبر عن معنى التجربة بأيّ لفظ من هذه الألفاظ، بأن يقول: جرّبتّه، واختبرته، وعجمته أو عجمت عوده، وبلوته، وسبرته، وامتحنته، وكان يعبر عن انتشار الخبر بأنّه خبر شائع، وذائع، ومنتشر، ومستفيض، وأن يعبر عن الرجوع بلفظ رجع، أو عاد، أو آب، أو قفل، وأن يعبر عن بقايا الأشياء<sup>(1)</sup> بصيغة «فُعالة» بضمّ الفاء، فيقول: فُلامة الظفر، وُبرادة الحديد، ونُفاضة الثوب، ومُشاطة الشعر لما يسقط منه عند الامتشاط، وُبراية القلم لما يسقط منه عند البري.

وكان الحدّاق من معلّمي اللغة العربيّة فيما مضى لا يكتفون بتكليف طلابهم بحفظ ما هو مقرّر عليهم حفظه من نصوص الشعر والنثر، بل كانوا يضيفون إلى ذلك أشياء يختارونها من الأمثال، والقصص، والحكايات، والظرائف، ونوادير الأشعار، وغرائب الخطب والأقوال. وربّما زوّد بعضهم طلابه بمعجم لغويّ بسيط يختار لهم موادّه من حقول دلاليّة مختلفة من مدركات الحواس، فيجمع فيه موادّ من قبيل النباتات والزروع، والفواكه والثمار، والرياح والعواصف، والسحب والأمطار، والحيوان والطيّر، والأصوات والألوان والعمور، ويجمع فيه موادّ من مدركات العقول ممّا له اتّصال بالفضائل والمحامد، كاللحم، والحزم، والعزم، والوفاء، والعدالة، والشجاعة، والعفة، والسّخاء، والأمانة، والقناعة، والصدق، والصبر، أو له اتّصال بما يصادّ هذه الخلال، كالبخل، والجبن، والطيّش، والجهل، والغدر، والفجور

(1) أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة، ليبيا تونس، الدار العربية للكتاب، 1981م، ص 232.

والعقوق، والمهانة، والغفلة، والحسد، والبغي، والعجز، والعي، ونحو ذلك من الخصال المذمومة؛ إذ لا جدال في أن الحصيـلة اللغويـة التي تتنوع حقولها تكسب صاحبها ذخيرة من المفردات والتراكيب والأساليب، تعينه على تصاريـف القول مشافهة ومكاتبـة وتهيئـة المتلقي لاستقبال إشاراتها الدلالية.

(6)

#### رابعاً - الخطّ ضبطه تعبيراً وتشكيلاً:

لما كان اللفظ والخطّ يتقاسمان البيان، ويشتركان في إظهار المعاني وكشفها، قيل في شأن علاقة هذا بهذا: اللفظ معنى متحرّك، والخطّ معنى ساكن، وهو وإن كان ساكناً يفعل فعل المتحرّك، فهو يؤدّي مضمونه إلى الأفهام وهو مقيم في مكانه، ومن جهة أخرى فإن كان في اللفظ السائغ العذب الذي يمتع الأسماع، ففي الخطّ كذلك الرائق المعدل الذي يمتع الأنظار بهاءً صورته ورونق أشكاله.

ويتربّب على هذا أنّ الخطّ إذا كان جميلاً مؤسساً على الوضع الذي ينبغي أن يوضع عليه، بعث القارئ على التماذي في قراءة ما وضع فيه وإن كان قليل الفائدة، فإن كان رديئاً سيئاً صرف القارئ عن المضي في قراءة ما أودع فيه، وإن كان كثير التفع جليل الفائدة؛ ولنيابة أحدهما مناب الآخر أطلق اسم اللسان على القلم، فقيل: «القلم أنطق اللسانين»، وأوقع وصف البلاغة عليه، فقيل: فلان بليغ اللسان بليغ القلم، وقيس الخلل الواقع في الخطّ على الخلل الواقع في اللفظ، فدعي الخلل الواقع فيه «الحن<sup>(1)</sup> الخطّ»

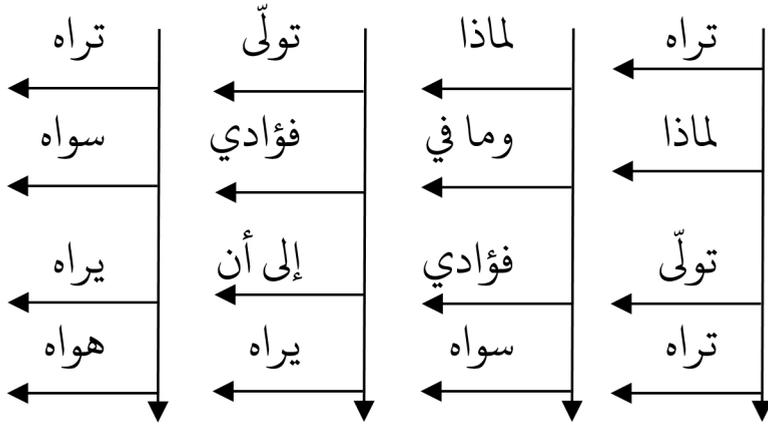
وكان يحيى بن حمزة العلوي صاحب كتاب الطراز محققاً حين تحدّث عمّا أسماه «بلاغة<sup>(2)</sup> الخطّ والكتابة»، وما أحدثه الكتاب، والشعراء، وأرباب الخطوط من أنواع التفنن والتوسّع في الخطّ، ولا سيما من جهة اتصال الحرف بالحرف وانفصاله عنه، ومن جهة كونه

(1) علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تحقيق: حسين عبداللطيف، منشورات جامعة الفاتح، 1982م، ص 482.

(2) يحيى بن حمزة العلوي، كتاب الطراز، مصر، مطبعة المقتطف، 1914م، 1 / 125.

منقوطة أو معرى عن التقط.

ومع وضوح هذا الجانب من جوانب التشكيل الخطّي اندفع الكتاب والشعراء يكتبون فصولاً من النثر ومقطوعات من الشعر تقرأ طرداً وعكساً، أو يلتزمون فيها الحروف المعجمة، أو المهملة، أو يعجمون حرفاً من حروف الكلمة ويدعون آخر، أو يعجمون كلمة ويدعون أخرى، حتى تحوّلت الظاهرة إلى رقص<sup>(1)</sup> خالص وتشكيل بصريّ مبهر، بل كادت تتحوّل إلى لعب لا معنى له، كهذا الأبيات التي تقرأ عمودياً وأفقيّاً بحسب اتجاه الأسهم:



وهذا التّموذج لأبي البقاء الرّندي، وقد نقلناه عن محمد الماكري في كتابه الشّكل<sup>(2)</sup> والخطاب: ومثله أيضاً هذا النموذج وهو لابن قلاقس<sup>(3)</sup>.

وصفته كما تظهر في الشّكل، وكما تبدو في وصف أبي البقاء الرّندي لها: أن تصنع أبياتاً تكتب في شكل محتم تتقاطع أشطره، ويشترك ما يتلاقى منها في مواضع التقاطع في لفظه، أو حرف واحد أو أكثر، إمّا مصحّفاً، أو مختلف الصّبط، وإمّا باقياً على حاله؛ ليتجلّى

(1) عمر خليفة بن إدريس، البنية الإيقاعية في شعر البحري، بنغازي، منشورات جامعة قارونس، 2002م، ص 211.

(2) محمد الماكري، الشكل والخطاب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص 157.

(3) نفسه، ص 161.

الرّسم الكتابي للخاتم وتقاطعاته عن أشكال هندسيّة متعدّدة وزخارف متنوّعة. (انظر صورة النموذج نقلا عن كتاب الشكل والخطاب، ص: 161).

ومهما يكن من أمر تحوّلات ظاهرة التشكيل الخطّي، فإنّ الكتابة نفسها فرضت شكلاً هندسيّاً للكلمة؛ إذ تعدّ الكلمة المكتوبة ضرباً من ضروب الرّسم، أو هي تشكيل خطّي يتّصل بأشكال الهندسة، أيّ بالخطّ المستقيم الذي هو قطر الدائرة، وعلى هيأته كانت صورة الألف، وبالخطّ المقوّس الذي هو محيط الدائرة، وعلى هيأته كانت صور الحروف الأخر، وفقاً لما يقول به إخوان الصّفا في مسألة الحروف<sup>(1)</sup>، وصور خطوطها.

(7)

### رمزية الحروف:

هذا التشكيل الخطّي الهندسيّ للحرف نفسه، جعل المتصوّفة يبتعدون به عن مثل تلك التكوينات الشكليّة التي عرضنا نموذجين منها، ومضوا بتصوّر إخوان الصّفا خطوة اتّجهت إلى منح حروف الهجاء في العربيّة رمزيّة متعدّدة الأبعاد وفق تأويلات ارتضوها، ففتحت لهم باباً من التأمّل في استبطان معاني الحروف وصور خطوطها، فكان ممّا ذكره في أدبياتهم عنها:

«أنّ كلّ<sup>(2)</sup> حروف اللغة ترتدّ في حقيقتها إلى الألف فالألف يسري صوته في مخارج الحروف كلّها، ويدخل شكله الكتابي في أشكالها جملة، فما الألف إلّا خطّ، وكلّ الحروف تجلّيات مختلفة لهذا الأصل تنحلّ إليه وتركب منه».

ومن تجلّيات خطّ الألف أنّ إسقاطه على عطفة التّون يشكّل صورة اللام، التي قال عنها ابن عربي: «واللام كسوة<sup>(3)</sup> الألف وجنّته، فإنّه مستور فيها بالنون الملتصقة به التي

(1) رسائل إخوان الصّفا، مصر، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، 1996م، 3 / 149.

(2) نصر حامد أبو زيد، فلسفة التّأويل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط4، 1998م، ص319.

(3) نفسه، ص327.

تتم وجود اللام».

وقال عن الحرف المركب (لا): «وإذا عانقت اللام الألف صغرت التون<sup>(1)</sup> التي في التواء اللام، وقابل الألف التي في اللام الألف التي في لام ألف، حتى لا يكون يقابله إلا نفسه، فقابل الألف والألف وربطت النون بينهما»

هذا الكلام الذي ساقه ابن عربي عن علاقة الألف باللام في الحرف المركب (لا) ومقابله الألف للألف في شكله الكتابي بعدما ربطت النون بينهما في الشكل ذاته، نجد أحد الشعراء يفصل ما أجمله ابن عربي، ويوضح أبعاد سريان الألف في اللام، واتحادهما في تركيب (لا) فيقول:

سِرُّ الْأَلِيفِ<sup>(2)</sup> سَرَى فِي الْأَلَامِ مُتَّحِدًا فَافْحَصْ عَلَيْهِ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى الصُّورِ  
سِرُّ الْمَعَارِفِ لِللَّامَيْنِ مُجْتَمِعًا كَالشَّمْسِ طَالِعَةً وَالْفَجْرِ فِي سَحْرِ  
وَاللَّامِ تُخْبِرُ أَنَّ الْخُلُقَ فِي طَرْفِ مَنْ الْأَلِيفِ بِلَا رَيْبٍ وَلَا نُكْرِ  
فَاطْلُبْ وَجِيزَ مَا فِي الْأَلَامِ مِنْ حِكْمٍ وَافْهَمْ مَعَانِيَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَظَرٍ  
تَجِدُ حَقِيقَةَ مَا قَدْ كَانَ مُسْتَتِرًا كُنْزًا عَظِيمًا خَفِيَ عَنْ سَائِرِ الْبَشَرِ  
وجملة القول إن هذه الرمزية الحرفية سرت فيما يكتبه طوائف من كتاب المتصوفة وشعرائهم، بل صار كل شيء عند بعضهم حرفاً قابلاً للقراءة على حد قول النّقري في مواقفه: «المعرفة حرف جاء لمعنى، فإن أعربته<sup>(3)</sup> بالمعنى الذي جاء له نطق به».

ثم إن ظاهرة ترميز الحروف تسربت إلى المجال الشعري العام، وغدا الحرف شيئاً يشبه

(1) نفسه.

(2) ابن عطا الله السكندري، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ضبط مرسي محمد علي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص 34.

(3) كتاب المواقف، محمد بن عبد الجبار النّقري، نشر بعناية آرثر بوحنا آبري، كولونيا، ألمانيا، منشورات الجمل، 1996م، ص 90.

به، ويستعار منه، وتوسّعا في إضافته، فأضافوه إلى القريض، فهذا البحترى يباهي بشاعريته وتمكّنه من اجتناب ما يودّ من القريض والأعاريز، فيقول عن نفسه:

وَمَرَدَّدُ بَيْنِ الْقَوَافِي يَجْتَنِي مَا شَاءَ مِنْ أَلْفِ الْقَرِيضِ وَلَا مِهُ (1)

وأته يبيت:

يَقْظَانَ يَنْتَخِبُ الْكَلَامَ، كَأَنَّهُ جَيْشٌ لَدَيْهِ، يُرِيدُ أَنْ يَلْقَى بِهِ (2)

ولا ريب في أنّ مفردات: اللام كسوة الألف، والألف مستور بالنون، والتون تتم وجود اللام، وأنّ الألف يسري في اللام، واختيار ألف القريض ولام القريض، وما كان من وصف أرباب الخطوط لكيفية تجويد الخطوط ومراعاة النسب بينها، وقياس هذا بقطر الدائرة وبمحيط الدائرة ونحو ذلك مما ذكر يمكن تقريبه، وتوظيفه في تعليم الخط للناشئة، والتعامل معه على أنه شيء من أشياء الوجود التي تعمربها حياته وتنتشر حوله.

(8)

### مقترحات وتوصيات:

لئن كان تطبيق ما ذكر عن تعبيرية الملفوظ والمخطوط لمّا يبدو عسير المنال في الوقت الراهن، ما لم تتوفر لتطبيقه تدابير، ولو على سبيل التجريب في الرابع والخامس والسادس من فصول مرحلة التعليم الأساسي، إذ تبدو هذه الفصول ذوات أهمية قصوى في تحصيل معارف اللغة، وفي قدرة الولدان على الاستيعاب والحفظ، وذلك ما يتلاءم مع تحقيق الهدف المبتغى من المستوى الأول من مستويات التعبير مشافهة، وهو «التعبير رؤية». على أنه يتطلّب الوصول بالناشئ إلى هذه المرحلة أن يدرّب على تنشيط ملكة الحفظ لديه

(1) ديوان البحترى، تحقيق الصّيرفي، مصر، دار المعارف، 3 / 1991.

(2) نفسه، 1 / 88.

والوصول بها إلى ما يمكن الوصول إليه من أبعاد غاياتها، ويقتضي ذلك أن يحتوي المنهج الدراسي على:

- 1 - تحفيظ الطالب في هذه الصفوف أجزاء من القرآن الكريم تحدّد تحديداً منهجياً يتّسق مع ما يحدّد للصفوف السابقة لها والصفوف اللاحقة لها، على أن يتولّى تحفيظ هذه الأجزاء معلّم تلقّى كتاب الله التلقّي الأمثل أداء ورسماً.
- 2 - تحفيظه نصوصاً مختارة من الشعر، والتّثر، والقصص، والأمثال، على أن يتناسب ما هو مختار مع أعمار من هم في هذه الصفوف في يسر لغتها، ووضوح مضامينها، وسلاسة أسلوبها، وتصويرها للمادّي المحسوس والمعنويّ المعقول.
- 3 - ومن الأجدى أن تقدّم لهم مادّة هذه التّصوص في فعل لغويّ مرئيّ مسموع مسجّل بأصوات مدرّبة محترفة، تتوقّر في ذويها القدرة على الأداء السليم المؤثّر الفعّال، بحيث تكون مهمّة المعلّم داخل الفصل مجرد إدارة التّقاش حول ما شاهده التلاميذ وما سمعوه، وإرشادهم إلى الأخطاء التي يقعون فيها في أثناء معاودة أدائها قبل حفظها وبعده.
- 4 - أن يكتفي في هذه المرحلة بتعليم اللغة العربيّة ومهاراتها، وبما ينميّ عقل الطّفل من مبادئ الرياضيات، وبما يشكّل خياله من فنون سمعيّة وبصريّة.
- 5 - على أن يقدّم للتلميذ في هذه المرحلة ما يشكّل وعيه الديني في العبادات، والقيم والمثل، ونحوها ممّا يدخل في حيّز المعاملات الاجتماعيّة، من غير أن ندخل به في فقه الخلاف، وينبغي أن توثّق صلة هذه المادّة بمادّة اللغة العربيّة، ويعرّف صلة هذه اللغة بدينه الإسلاميّ القويم.

6 - فأما ما يشكّل وعيه القوميّ والوطنيّ والإنسانيّ فينبغي أن يضمّن في موضوعات، حتّى نجتبه حفظ ما لا جدوى من حفظه من موادّ مختلفة، سوف تتكفّل السّنوات المقبلة

من سني التعليم بإدراجها في المقررات المدرسية، وقد امتلك يومئذ مهارات اللغة التي هي أدوات لفهم ما يقرأ، وأداته للتعبير عما قرأ، وأداته للتعبير عما يود أن يعبر عنه بلسانه وقلمه.

7 - وفي غمرة التكبسب بالتعليم، والمتاجرة بتلقين اللغات الأجنبية في رياض الأطفال، وفي صفوف التعليم الأولى، وانتشار ظاهرة الدروس الخصوصية، وإغراء الآباء بذلك عن طريق الدعايات المختلفة والأسماء الأجنبية للجامعات والأكاديميات وغيرها، نوصي بالألّا يُشرع في تلقين اللغات الأجنبية قبل الصفّ الرابع؛ لئلاّ يدخل تعليمها الضيم على تعلم العربية ومهاراتها.

8 - وينبغي أن ندرأ الخطر الذي يلزم مكاتب تصوير المستندات وغيرها، وأن يحذر إلحاقها بالمدارس في كل المراحل، فقد أضحي تصوير المقررات وغيرها من وسائل الشرح والإيضاح حائلا بين الطلاب واستعمال القلم في تدوين ما يطلب منهم تدوينه.

9 - كما نوصي بإجراء مسابقات في الإملاء، والإنشاء، والخطّ على مستوى المدارس في كل المراحل أسوة بالأنشطة الفنية والإبداعية الأدبية، والرياضية.

10 - واقترح أن نستحدث مادة نسّمّيها مادة (السرد والتحرير) تكون ضمن مقررات الفصل السابع وما بعده؛ لأنّ اسم (الإنشاء) أو (التعبير) غدا يثير نفورا لدى طلاب المراحل المتقدمة؛ لارتباطه في أذهانهم بإيحاء يردّهم إلى مراحل اجتازوها. على أن يُعنى مقرر هذه المادة بتقنيات (السرد، والوصف، والتحرير)، وأن يتولّى تعليمها معلّمون ذوو قدرات إبداعية.

والله الموقّق للصواب والحمد لله أوّلاّ وآخرًا

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

## مصادر الدراسة:

- 1 - أدب الكاتب، ابن قتيبة، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ط4، 1963م.
- 2 - بدائع البدائ، علي بن ظافر الأزدي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر، الأنجلو المصرية، 1970م.
- 3 - البنية الإيقاعية في شعر البحري، عمر خليفة بن إدريس، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، 2003م.
- 4 - تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيّد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة دار التراث، ط2، 1973م.
- 5 - تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، 1989م.
- 6 - خزنة الأدب، عبدالقادر البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ط4، 1797م.
- 7 - ديوان البحري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مصر، دار المعارف، ط2، (د.ت).
- 8 - رسائل إخوان الصفا، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 1996م.
- 9 - الشعريّة العربية، جمال الدين ابن الشيخ، ترجمة مبارك حنون ومحمد الولي، المغرب: دار توبقال، 1996م.
- 10 - الشكل والخطاب، محمد الماكري، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991م.
- 11 - العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق التّبوي شعلان، مصر، مكتبة الخانجي، 2000م.

- 12 - فلسفة التأويل، نصر حامد أبوزيد، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط4، 1998م.
- 13 - القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ابن عطاء الله السكندري، ضبطه مرسي محمد علي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005.
- 14 - قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، المغرب، دار توقيبال، 1988م.
- 15 - كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، الهيئة المصرية العامة الكتاب، 1977م.
- 16 - كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مصر، مطبعة المقتطف، 1914م.
- 17 - كتاب المواقف، محمد بن عبد الجبار التقي، نشر بعناية آرثر يوحنا أربري، كولونيا، ألمانيا، منشورات الجمل، 1996م.
- 18 - الكليات، أبو البقاء الكفوي، أعدّه للطبع عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسّسة الرسالة.
- 19 - المعجم في بقية الأشياء، أبو هلال العسكري، مصر، دار الكتب، 1934م.
- 20 - مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1987م.
- 21 - مقدّمة ابن خلدون، الاسكندرية، دار ابن خلدون، (د.ت)
- 22 - مواد البيان، علي بن خلف الكاتب، تحقيق: حسين عبداللطيف، طرابلس، منشورات جامعة الفاتح، 1982م.

\*\*\*



# الكِمام، والكِمامة، والكَمّامة

## تأصيل وضعها، وتسويغ استعمالها

أ. د. محمد محمد يونس

(عضو المجمع)

### 1 - الملخص

منذ انتشار وباء كورونا احتدّ النقاش بشأن الاسم المناسب لما يغطّي به الفم والأنف؛ للوقاية من هذا الوباء، وقد شاعت كلمة «كَمّامة» أكثر من غيرها من الأسماء الأخرى؛ للإشارة إلى ذلك الغطاء، وإن حاول بعضهم اقتراح أسماء أخرى، رأوا أنّها توافق السّماع مثل «الكِمامة»، و«الكِمام»، وسنحاول في هذا البحث أن نتتبّع أصول هذه الكلمات الثلاث من حيث الوضع والشواهد القُدّمي الدّالة عليه، وننظر في مسألة جواز استعمالها أو عدمه.

### الكلمات المفاتيح:

الكِمام، الكِمامة، الكَمّامة، الوضع، الاستعمال، اسم الآلة، صيغ المبالغة.

### 2 - المقدّمة

إنّ الناظر في مادّة «ك م م» في أقدم الشّواهد يلحظ أنّ المعنى المركزيّ يتمحور حول الغطاء والستر، والظاهر أنّ أقدم مشتقاتها الاسميّة جاءت على صيغة الجمع «أكمام» في وصف امرئ القيس بن حُجر الكنديّ (ت 85 ق.هـ / 539 م) لنخل:

وَأَرْضَى بَنِي الرَّبْدَاءِ وَاعْتَمَّ زَهُوَهُ وَأَكْمَامُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَهَصَّرَا<sup>(1)</sup>

(1) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (القاهرة: المعارف، 1990م)، ص 58، وينظر معجم الدوحة التاريخي (ك م م).

وتحتمل أن تكون «أكامام» جمعاً لكمّ، وهو ما أرجّحه، أو لكمّ، أو لكيام أو لكيامة.

ومن أقدم مشتقاتها الفعلية الفعل أكمّ، الذي أورده المرقش الأكبر البكري (ت 75ق.هـ / 549 م) بمعنى اتخذ له أكماماً، أو أخرج أكمامه<sup>(1)</sup> وذلك في قوله:

حَتَّى إِذَا مَا الْأَرْضُ زَيْنَتْهَا التَّبْتُ، وَجُنَّ رَوْضُهَا، وَأَكَمَّ  
ذَاقُوا نَدَامَةً فَلَوْ أَكَلُوا الـ خُطَبَانَ لَمْ يُوجَدَ لَهُ عَلَقَمٌ<sup>(2)</sup>

ومن أقدم المشتقات الوصفية ما ورد بصيغة اسم المفعول من الفعل الرباعي «أكمّ» قول المسيب بن علس البكري (ت 48 ق.هـ / 575 م)، مشبهاً الخيل بعيدان النخل الطويلة التي تتوسطها صغار النخل ذات الأكام:

وَالدُّهْمَ كَالْعَيْدَانِ آزَرَهَا وَسَطَ الْأَشْيَاءِ مُكَمَّمٌ جَعَلُ<sup>(3)</sup>

ومن شواهد اسم المفعول من الفعل الثلاثي «كمّ» «مكمومة» بمعنى مغطاة، وقد جاءت صفة لأغداق النخل، في قول عبّيد بن الأبرص الأسدي (ت 25 ق.هـ / 597 م):

كَأَنَّ أَظْعَانَهُمْ نَخْلٌ مُوسَّقَةٌ سَوْدٌ ذَوَائِبُهَا بِالْحَمَلِ مَكْمَوْمَةٌ<sup>(4)</sup>

وقد استنبط أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 398هـ) المعروف بعنانيته بالمعاني المركزية للكلمات المتقاربة معجمياً أن الكاف والميم «أصلٌ واحدٌ يدلُّ على غِشَاءٍ

(1) جاء في تاج العروس: «أَكَمَّتِ النَّخْلَةُ: أَخْرَجَتْ كَيْمَامَهَا، كَكَمَّمَتْ» محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (الكويت: وزارة الإرشاد والبناء الكويت، 1984)، (ك م م).

(2) المرقش الأكبر: أخباره وشعره، تحقيق نوري حمودي القيسي (العرب، السنة الرابعة، 1390هـ)، 10: 887، وينظر معجم الدوحة التاريخي (ك م م).

(3) المسيب بن علس، شعر المسيب بن علس، تحقيق عبد الرحمن الوصيفي، (القاهرة: الآداب، 2003م)، ص 118، وينظر معجم الدوحة التاريخي (ك م م).

(4) عبّيد بن الأبرص، ديوان عبّيد بن الأبرص، تحقيق أشرف أحمد عدرة، (بيروت: الكتاب العربي، 1994م)، ص 110، وينظر معجم الدوحة التاريخي (ك م م).

وَعِطَاءٍ»<sup>(1)</sup>، وأكد ذلك جمال الدين بن منظور الأنصاريّ الرويفعيّ الإفريقيّ (ت 711هـ) في اللسان بقوله: «وكلُّ ما أخرجته النخلة فهو ذو أكمام، فالظَّلعة كُفُّها قشرها، ومن هذا قيل للقلنسوة كُمَّة لأنها تُعْطِي الرأس، ومن هذا كُما القميص لأنهما يغطيان اليدين»<sup>(2)</sup>.

وبعد أن وقفنا على المعنى التووي للمادة «ك م م»، فسنبداً في مناقشة كل كلمة من الكلمات الثلاث التي هي موضوع بحثنا، على أن نبدأ بالكِمام، فالكِمامة، ثم الكِمامة.

### 3 - الكِمام.

الكِمام هي إحدى الكلمتين اللتين وردتا سماعاً، والكلمة الأخرى هي كِمامة، وثمة ثلاثة احتمالات في طبيعة العلاقة بينهما، إمّا أن تكون الأولى اسم جنس جمعيّ، والثانية الواحدة منه، فتكون التاء للوحدة، أو تكون الأولى جمعاً للثانية، أو تكون الكلمتان مترادفتين، وكلاهما يدلّ على المفرد، وسيتبيّن لنا من خلال الشواهد ومناقشتها، والتعريفات الواردة فيهما حقيقة هذه العلاقة.

#### 3.1 - شواهد «الكِمام»

لعلّ من أقدم الشواهد التي وردت في «الكِمام»، قول رؤبة بن العجاج في سنة 102 هـ:<sup>(3)</sup>

لَمْ يَزَلْ قَلْبُكَ فِي كِمَامٍ يَهُوي إِلى مَوْتٍ أَوْ انْهِزَامٍ<sup>(4)</sup>

ويمكن تفسير «الكِمام» في هذا البيت بمعنى الغطاء، ونسب جمال الدين ابن منظور

(1) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر، 1979)، (ك م م).

(2) ابن منظور، لسان العرب، تصحيح: مجموعة من الأساتذة المتخصصين (القاهرة: دار الحديث، 2006)، (ك م م).

(3) عالم لغوي قديم (مجهول)، شرح ديوان رؤبة بن العجاج، تحقيق ضاحي عبد الباقي وآخرين، (القاهرة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، 2008-2011م)، 3: 24.

(4) أرخ لهذا البيت في معجم الدوحة التاريخي للغة العربية بتاريخ 102 هـ، 31 مارس 2021: <https://www.dohadictionary.org/dictionary> / كمام

إلى الطَّرْمَاح (الحكم بن حكيم الطَّائِيّ) (ت 125هـ) قوله في نخلة عُرِّيْت من كامها:

أَوْ بِشَمَلِ شَالٍ مِنْ خَصْبَةِ جُرْدَتْ لِلنَّاسِ بَعْدَ الْكِمَامِ<sup>(1)</sup>

وقد استعمل أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ (ت 204هـ) الكلمة في كتاب الأمّ لغلاف حبّ الحنطة حين قال: «إِذَا دَيْسَتْ بَقِيَّتْ حَبَّتَانِ فِي كِمَامٍ وَاحِدٍ لَا يُطْرَحُ عَنْهَا الْكِمَامُ إِلَّا إِذَا أَرَادَ أَهْلُهَا اسْتِعْمَالَهَا، وَيَذَكُرُ أَهْلُهَا أَنَّ طَرَحَ الْكِمَامِ عَنْهَا يَضُرُّ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى بَقَاءَ الصَّنْفِ الْآخَرَ مِنَ الْحِنْطَةِ»<sup>(2)</sup>.

وجاء في شعر ابن الرومي:

حَمَامُ الْأَيْكِ يُسْعِدُهُ هَزَارٌ فَدَى الْمَكَاءِ ذَيْنَكَ وَالسَّمَامُ  
وَأَخْلَاطٌ مِنَ الْغَرِدَاتِ شَتَّى حَوَاسِرُ أَوْ عَلَيْهِنَّ الْكِمَامُ  
أَلَا لَا عَيْشَ لِي إِلَّا زَهِيدًا وَدُونَ لِثَامٍ مِنْ أَهْوَى لِثَامٍ<sup>(3)</sup>

### 2.3 - ورود «الكِمَام» في المعاجم

ووردت كلمة «الكِمَام» في عدد من المعاجم وكتب اللغة، من بينها:

أ - معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت 175 هـ)، فقد جاء فيه «والكِمَام: شيء يجعل في فم البعير أو البرذون»<sup>(4)</sup>.

ب- كتاب التّوادر لأبي مسنح الأعرابيّ (عبد الوهّاب بن حريش) (ت 230 هـ)، الذي جاء فيه «ويقال: كِعام البعير، وحيّامه، وكناعه، وكمّامه، وكذلك يقال: كمّمته،

(1) ابن منظور، لسان العرب، تصحيح: مجموعة من الأساتذة المتخصصين (القاهرة: دار الحديث، 2006)، (ك م م).  
(2) محمد بن إدريس الشافعيّ، الأمّ، تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب (المنصورة: دار الوفاء، 2001م)، 2: 37.  
(3) ابن الرّوّميّ، ديوان ابن الرّوّميّ، تحقيق حسين نصار، (القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 2003م)، 6: 2283.

(4) الخليل بن أحمد الفراهيديّ، العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائيّ. (الهلل، د.ت)، 5: 286.

وكعتمه، وحجمته، وكنعته، بمعنى واحد، إذا اغتلم فشدت فمه»<sup>(1)</sup>.

ج - الكامل لأبي العباس المُبرِّد (محمَّد بن يزيد) (ت 285 هـ)، وجاء فيه «فمن قال: كمام، فجمعه أكمة، مثل صمام وأصمة، وزمام وأزمة»<sup>(2)</sup>.

د - الصَّحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 هـ)، وجاء فيه «والكِمام بالكسر والكِمامة أيضاً: ما يُكَّم به فم البعير لئلا يعضَّ»<sup>(3)</sup>.

هـ- المحكَّم والمحيط الأعظم في اللُّغة لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيِّده المُرسِّي (ت 398 هـ)، وقد جاء فيه: «وكمها: جعلها في أغطية تكنها كما تجعل العناقيد في الأغذية إلى حين صرامها، واسم ذلك الغطاء: الكمام»<sup>(4)</sup>.

و - اللسان: والكِمام: ما سُدَّ به. والكِمام، بالكسر، والكِمامة: شيء يُسُدُّ به فم البعير والفرس لئلا يعض. وكَمَّه: جعل على فيه الكِمام، تقول منه: بعير مَكْموم أي مَحْجُوم. «<sup>(5)</sup>».

### 3.3 - تسويغ استعمال «الكِمام»

يفهم من الشواهد السابقة أن الكِمام يعني الغطاء، وقد تعددت متعلقاته، فاستعملت لغطاء القلب، وغطاء النخلة، وغطاف حبِّ الحنطة، وغطاف العناقيد، وغطاء وجه الطائر، وغطاء فم البعير والفرس، وهذا يدلُّ على عمومها في غطاء أمثال ما ذكر، يرجح ذلك قول

(1) عبد الوهاب بن حريش الأعرابي أبو مسحل، النوادر، تحقيق عزة حسن (دمشق: مجمع اللغة العربية بدمشق، 1961)، ص 185.

(2) أبو العباس المُبرِّد محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق عبد الحميد هندواي (بيروت: دار الكتب العلميَّة، د ت)، 2: 47.

(3) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4 (بيروت: دار العلم للملايين، 1987)، (ك م م).

(4) أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيِّده، المحكَّم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هندواي (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2000م)، (ك م م).

(5) ابن منظور، لسان العرب، (ك م م).

محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْتَحُلْ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾<sup>(1)</sup>،  
«وَالْتَحُلْ ذَاتُ الظَّلُوعِ الْمُتَكَمِّمِ فِي كِمَامِهِ»<sup>(2)</sup> أي المتغطي بغلافه.

ولذا فإن إطلاق الكمام على لثام الأنف والفم لغرض الوقاية إطلاق مسوّغ بحكم استعمالها في عموم ما ذكر وأشباهه، وإرادتها على وجه التعيين والتحديد لتغطية الجزء الأسفل من الوجه يندرج في باب التخصيص.

ومما يقوي هذا الاستعمال مجيء الكلمة على إحدى صيغ اسم الآلة، وهي «فعال»، وهي صيغة، وإن لم تحسب تراثياً من صيغ اسم الآلة القياسية، ولكن جاء عليها عدد كبير من الكلمات، أحصى منها محمد فلفل نحو أربعمائة<sup>(3)</sup>، معظمها تدلّ على معنى التغطية والستر، ومنها اللثام، واللّفام، والثّقاب، والخمار، والقناع، والصّمام، وجاءت أيضاً كثيراً فيما يدل على اللباس، كالحزام، والنطاق، والإزار، والرداء، والحجاب، وقد أدت كثرة مجيء «فعال» لما يدل على الغطاء أن علّ ابن درستويه (ت 347 هـ) ضبط «سداد» في «سداد من عَوَز» بقوله: «الكسر هو الصّواب في السّين، والعامّة تفتحها، وهو خطأ؛ لأنّه اسم لما يُسدّ به الشيء كالصّمام، والبُلغة من المال، يُسدّ بها الحاجة والحلّة»<sup>(4)</sup>.

ولعلّه من المهمّ هنا أن ننبّه على أنّ توسيع مفهوم اسم الآلة ليشمل ما يُلبس ويُتغطّى به ليس بدعاً، بل هو معهود عند عدد من علماء التراث، فقد عدّ ثعلب مثلاً المئزر والملحف والملحفة من أسماء الآلة، ولم يقصر مفهومه على ما يعالج به<sup>(5)</sup> وقد صرح رضي الدين

(1) الرحمن: 11.

(2) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000)، 22: 17.

(3) محمد عبدو فلفل «ما جاء على فعال من اسم الآلة»، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع 82، (2012).

(4) عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه، تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق محمد العزازي (بيروت: دار الكتب العلمية، دت)، ص 280.

(5) أبو العباس ثعلب، الفصيح، تحقيق صبيح التميمي (الجزائر: دار الشهاب، 1985)، ص 120، وينظر حسن العايب، اسم الآلة بين القدماء والمحدثين، ص 116.

الأستراباذي (ت 686 هـ) بدلالة صيغة الفِعال على الآلة حين قال: «وجاء الفِعال أيضا للآلة كالخياط والنظام»<sup>(1)</sup>، واتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارًا في دورته التاسعة والعشرين سنة 1963م بقياسيتها<sup>(2)</sup>.

وأخيرا لا بدّ من التنبيه على أنني لم أعتز على ما يدلّ على أنّ الكِمام اسم جنس جمعيّ أو أنّه جمع لكِمامة، بل وردت جمعاً لـ «كَمّة»، جاء في اللسان: وفي الحديث: كانت كِمامُ أصحاب رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بُطْحاً، وفي رواية: أَكِمَّةٌ، قال: هما جمع كثرة وقلة للكَمّة القلنسوة»<sup>(3)</sup>، وقد نصّ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 هـ) على أنّ «الأكمة: المخالي واحدها كمام»<sup>(4)</sup>، وجاء في تاج العروس: «وهو الكِمام وجمعه أَكِمَّةٌ»<sup>(5)</sup>.

والنصّ الوحيد الذي قد يفهم منه أنّ الكِمام ربّما كان جمعا لكِمامة هو قول الجوهريّ في الصحاح: «والكَمُّ والكِمَّة بالكسر والكِمامة وعاءُ الظَّلْعِ وَعِظَاءُ النَّوْرِ وَالْجُمُعُ أَكَمَامٌ وَأَكِمَّةٌ وَكِمَامٌ وَأَكَامِيمٌ»<sup>(6)</sup> حين ذكر عددا من المفردات ثمّ أتى بجمعها دون أن يبيّن لكل مفردة جمعها على حدة. وعلى الرّغم من أنّ ابن منظور نسخ العبارة السابقة من الجوهري مع نسبتها إليه، لكنّه عندما عبّر بعبارته قال: «وكُمُّ كلّ نَوْرٍ وعَاوُهُ، والجمع أَكَمَامٌ وَأَكَامِيمٌ، وهو الكِمام، وجمعه أَكِمَّةٌ»<sup>(7)</sup> ففصل بين جمع «الكَمِّ» وهو كمام وأكاميم، وجمع الكمام وهو أَكِمَّة، متجنّبا احتمال أن تكون الكِمام جمعاً. وجعل مرتضى الزبيديّ (ت 1205 هـ) وغيره الكمام جمع كثرة للكَمّة يقول: «والكَمّة، بالضمّ: القَلَنْسُوَةُ المُدَوَّرَةُ؛ لِأَنَّهَا تُعْطَى

(1) رضي الدين الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب مع شرح عبد القادر البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد وآخرون (بيروت: دار الكتب العلمية، 1975)، 1: 188.

(2) عباس حسن، النحو الوافي، ط 15 (القاهرة، دار المعارف، دت)، 3: 337.

(3) لسان العرب (كم)

(4) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، غريب الحديث (بيروت: دار الكتب العلمية، دت)، 2: 149.

(5) تاج العروس (كم) وورد مثل ذلك عند ابن سيده في المحيط والمحيط الأعظم (كم).

(6) تاج العروس، (ك م م)

(7) لسان العرب (ك م م).

الرَّأْسُ كَمَا فِي الصَّحاحِ، وَالْجُمُعُ كِمَامٌ، وَأَكِمَّةٌ، فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ»<sup>(1)</sup>. كما صرح الزبيدي بأن جمع الكمامة كِمَائِمٌ.<sup>(2)</sup> وفي كل الأحوال، فإن استعمالها جمعاً لا يعيننا هنا، بل ما يعيننا هو استعمالها الإفرادي.

#### 4 - الكمامة.

تختلف الكمامة عن الكمام في كونها أقل استعمالاً منه، وإن اشتركا في الدلالة على التغطية، والظاهر أنها الصيغة المؤنثة للكمام، وكأنتهما لغتان تدلان على معنى واحد، وقد عدّ أنستاس الكرملي صيغة فعالة من صيغ اسم الآلة ذاهبا إلى القول: «فكأنها تأنيث الفعل الدال بنفسه على الآلة أو ما يشبهها، كالخزام، والتطاق، والبساط، واللباس، والمقاط، والشكال، والرباط، والعقال، ونحوها». وأمّا نظائر الفعالة فكالإداوة، والحداجة، والخزانة، والرحالة، والجبارة، والضبارة، والعضادة، والكنانة، والقلادة، والحماله، والرفادة... بيد أن الكلمات الواردة بالهاء أقل بكثير من المثل الخالية منها»<sup>(3)</sup>.

#### 4.1 - شواهد «الكمامة»

يبدو أنه ليس ثمة شواهد قديمة لكمامة في صيغة المفرد، والظاهر أن أقدم ما يمكن العثور عليه حالياً ما رواه صاحب التهذيب وغيره عن الأصمعي (عبد الملك بن قُريب (ت 216هـ) في قوله: «وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الْهَيْشِرُ: شَجَرٌ يَنْبِتُ فِي الرَّمْلِ يَطُولُ وَيَسْتَوِي، وَلَهُ كِمَامَةٌ لِلْبَزْرِ فِي رَأْسِهِ»<sup>(4)</sup>. ومن شواهد صيغة الجمع «كمام» في قول عدي بن حاتم الطائي (ت 68هـ):

فيذهب منك المأل أول وهلةٍ وحمائمها والنخل ذات الكمام<sup>(5)</sup>

(1) تاج العروس (ك م م).

(2) تاج العروس (ك م م).

(3) أنستاس ماري الكرملي، نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها. (القاهرة: المكتبة العصرية، 1938)، ص 116.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، (ه ش ر).

(5) شريف راغب علاونة (جمع وتحقيق)، ثلاثة شعراء مقلون (مالك بن حريم الهمداني، عدي بن حاتم الطائي،

وفي قول الفَرَزْدَق، هَمَّام بن غالب الدَّارِمِي التَّمِيمِي (ت 110هـ):

يُعَلِّقُ لَمَّا أَعْجَبْتَهُ أَتَانُهُ      بِأَزَادٍ لَحِيئَهَا جِيَادَ الْكَمَائِمِ<sup>(1)</sup>

#### 2.4 - ورود « الكِمامة » في المعاجم

جاء في الصَّحاح: « وَالْكَمُّ وَالْكَمَّةُ بِالْكَسْرِ وَالْكِامَةُ وَغَاءُ الظَّلْجِ وَغِظَاءُ النَّوْرِ وَالْجَمْعُ أَكْمَامٌ وَأَكْمَةٌ وَكِمَامٌ وَأَكَامِيمٌ<sup>(2)</sup> وفيه أيضاً: وَالْكِامُ بِالْكَسْرِ وَالْكِامَةُ أَيضاً: مَا يُكْمُّ بِهِ فَمِ البعير لئلا يعَضَّ.<sup>(3)</sup> وجاء في اللسان: وَالْكِامَةُ. وَالْكِامُ: مَا سُدَّ بِهِ. وَالْكِامُ، بِالْكَسْرِ، وَالْكِامَةُ: شَيْءٌ يُسَدُّ بِهِ فَمِ البعير والفرس لئلا يَعَضَّ<sup>(4)</sup>.

وجاء في تاج العروس «وَالْكِامَةُ، بِالْكَسْرِ، كَالْكَيسِ، يُجْعَلُ عَلَى مَنْخَرِ الفَصِيلِ لِئَلَّا يُؤْذِيَهُ الدُّبَابُ، وَالْجَمْعُ كَمَائِمٌ»<sup>(5)</sup> وقد نقل رينهارت بيتر أن دُوزِي (1300هـ) عن معجم الكلالا<sup>(6)</sup> «زِيَار، وَجَمْعُهَا زِيَارَاتُ: حِشَاكَةٌ، شِبَامٌ، كِمَامَةٌ، وَهِيَ آلَةٌ عَلَى الفَمِ أَوْ فِيهِ لَمَنْعِ الْكَلَامِ»<sup>(7)</sup>، ففسر الزيار بالكمامة، وعرفها على النحو المذكور.

وجاء في تعريف الكِمامة في معجم اللغة العربية المعاصرة: «ما يُوضَعُ عَلَى الفَمِ وَالْأَنْفِ اتِّقَاءَ الْغَازِاتِ السَّامَةِ وَنَحْوِهَا»، وورد فيه أيضاً: «تَكْمَمَ الرَّجُلُ: وَضَعِ الكِمامَةَ عَلَى أَنْفِهِ

جعفر بن علبة الحارثي (عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2007)، ص 119.

(1) لسان العرب، (ك م م)، وتاج العروس، (ك م م).

(2) الصحاح، (ك م م).

(3) الصحاح، (ك م م).

(4) لسان العرب، (ك م م).

(5) تاج العروس، (ك م م).

(6) درو دي الكلالا، معجم عربي بحروف قشتالية «صنّفه الأب بدرودي الكلالا في غرناطة وطبعه فيها سنة 1505م بأمر من فرديناند دي تالافيرا أول أسقف في غرناطة» رينهارت بيتر أن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة

محمد سليم النعيمي (بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م)، 1: 21.

(7) رينهارت بيتر أن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي (بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م)، (زي ر).

وفمه؛ لتقيه الغازات ونحوها»<sup>(1)</sup>.

### 3.4 - تسويغ استعمال «الكِمامة»

يبدو مما سبق من شواهد وتعريفات معجمية أنّ الكمامة استعملت بمعنى الكِمام، وأنّ الكمامة يمكن أن تكون صيغة مؤنثة للكمام، وأمّا القول: بأنّها قد استعملت مفردًا لكِمام فضعيف.

وإذا ما قورنت الكِمامة بالكِمام، فس نجد أنّ كلمة الكمام أقوى سماعًا وقياسًا؛ لكثرة شواهد وكثرة الكلمات التي أتت على صيغ اسم الآلة فعال، وقلة شواهد كمامة وقلة نظائرها التي جاءت على صيغة فعالة.

### 5 - الكَمّامة.

تختلف الكَمّامة عن نظيرتها الكِمام والكِمامة في كونها كلمة مستحدثة، ومع ذلك فقد جاءت على صيغة مألوفة في العربيّة، ولذا لا يمكن الاعتراض على صيغتها كما سنوضّح فيما سيأتي.

### 1.5 - شواهد «الكَمّامة»

لم أعر على شاهد قديم يتضمّن كلمة كَمّامة بتشديد الميم، فقد خلت مدوّنة معجم الدوحة التاريخي فيما يبدو من هذه الكلمة، ولم أجد في المصادر والمعاجم ما يدلّ على وجودها قديمًا، وإن شاعت الآن، وهيمنت على نظيرتها في الاستعمال الحالي.

### 2.5 - ورود «الكَمّامة» في المعاجم

على الرّغم من خلّو معاجم التراث من كلمة كَمّامة، فقد تناولتها بعض المعاجم الحديثة بالتعريف والتمثيل، ومن ضمن هذه المعاجم:

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، (ك م م).

موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب التي جاء فيها أنّ الكَمَامَة مؤنث الكَمَام، وأنّ الكَمَام «من يجعل الكمام على فم البعير، ومن يغطّي الشيء ويستره، ومن يكتّم الشهادة ويخفيها»<sup>(1)</sup>.

وورد في معجم اللغة العربيّة المعاصرة في الفعل المشتقّ منها على سبيل المجاز: «كَمَّ فمه: أسكته ومنعه عن الكلام «كَمَّ أفواه المعارضين»<sup>(2)</sup>، و«كَمَّ الأفواه: منع الناس من حرّية الكلام»<sup>(3)</sup>.

### 3.5 - تسويغ استعمال « الكَمَامَة »

على الرغم من تجاهل الكَمَامَة في المعاجم القديمة، فهي لفظة قياسية جاءت على صيغة اسم الآلة «فعالة» من الفعل كَمَّ، وهو فعل ثلاثي متعدّد تنطبق عليه شروط الفعل الذي يصاغ منه اسم الآلة، فقد روي عن الأصمعيّ: «كَمَمْتُ رَأْسَ الدَّنِّ أَي سَدَدْتَهُ»، وجاء في أساس البلاغة لجار الله الزّمخشرّي (ت 538هـ) «كَمّه يَكْمّه إذا ستره، وشيء مكوم»<sup>(4)</sup>.

وَأَنْشَدَ الْجَوْهَرِيُّ لِلأَخْطَلِ (غِيَاثُ بْنُ عَوْثِ التَّغْلِبِيِّ (ت 90 هـ) يَصِفُ حَمْرًا:

كَمَمْتُ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ بِطَيْبَتِهَا حَتَّى إِذَا صَرَّحَتْ مِنْ بَعْدِ تَهْدَارٍ<sup>(5)</sup>  
وسناقش في هذا المبحث تسويغ إسناد الفعل للإنسان، ودلالة «الكَمَامَة» على اسم آلة، وسنبداً بالنقطة الأولى:

لعلّ من الاعتراضات التي نسمعها عن استعمال الكمامة لتغطية أنف الإنسان

- (1) محمد بن الزبير وآخرون، موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، (بيروت: مكتبة لبنان، 1991م)، (ك م م).
- (2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، (ك م م).
- (3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة (ك م م).
- (4) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزّمخشرّي، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م)، (ك م م).
- (5) الجوهريّ، الصّاح، (ك م م).

وفمه أنّ الكمامة ومشتقاتها استعملت مع الحيوانات فقط، وهذا غير صحيح؛ إذ لم يقتصر إسناد الفعل كَمَّ ومشتقاته إلى الحيوان والنبات، بل ورد إسناده إلى البشر أيضاً، قَالَ العَجَّاج:

بَل لَوْ شَهِدَتِ النَّاسَ إِذْ تُكْمُّوا بِعُمَّةٍ، لَوْ لَمْ تُفَرِّجْ عُمُّوا<sup>(1)</sup>

وعلق ابن سيده على ذلك بقوله: «قَالَ: أَرَادَ: تَكْمَمُوا، مِنْ كَمَمْتُ الشَّيْءَ: إِذَا سَتَرْتَهُ، فَأَبْدَلَ الِئِمِّمِ الْأَخْيَرَةَ يَاءً فَصَارَ فِي التَّقْدِيرِ: تَكْمِيُوا»<sup>(2)</sup>. وجاء في الجمهرة لمحمد بن الحسن بن دريد (ت 321هـ): «وَكَلَّ مَا غَطَّيْتَهُ فَقَدْ كَمَمْتَهُ»<sup>(3)</sup>، وجاء في أساس البلاغة ما نصّه: «وَتَكَمَّ الرَّجُلُ بِثِيَابِهِ: تَغَطَّى بِهَا»<sup>(4)</sup>، بل إنّها استعملت مجازاً مع الشهادة، فقد جاء في اللسان: «وَالكَمُّ: قَمْعُ الشَّيْءِ وَسْتَرُهُ، وَمِنْهُ كَمَمْتُ الشَّهَادَةَ إِذَا قَمَعْتَهَا وَسَتَرْتَهَا»<sup>(5)</sup>.

ويبدو لي أنّ استعمال صيغة المبالغة كمامة استعمال قياسي تنطبق عليه شروط القياس على صيغة فعالة، لكونها مشتقة من الثلاثي كَمَّ بمعنى غَطَّى، فكمامة الوجه تعني غطاية الوجه، وهي فعلاً تكمّه، أي تغطّيه، ولعلّ المترددين في قبول هذا الاستعمال يعود: 1 - إمّا إلى شعورهم بأنّها لا تغطّي بنفسها، بل بفعل فاعل، وهذا مردود بأمثلة أخرى مشابهة كالسحّانة والفتّاحة، فمعظمها تحتاج إلى فعل فاعل ولا تقوم بالفعل مستقلة عن الفاعل من البشر وغيره، وعلى أي حال، يمكن أن تكون من المجاز العقليّ.

2 - وإمّا إلى كونها لا تدلّ على الكثرة، وهو أيضاً محلّ نظر، لأنّ عدد مرات قيامها بالتغطية

(1) الجوهري، الصحاح، (ك م م).

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، (ك م م) و(ك م ك م).

(3) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م) (ك م م).

(4) الزنجشيري، أساس البلاغة، (ك م م).

(5) ابن منظور، لسان العرب (ك م م).

كثير جداً، ولاسيما في أيام الوباء في وقتنا هذا، حيث يتكرر الفعل بكثرة متعلقاته، وقد ورد في القرآن الكريم «ظلام للعبيد» و«علام للغيوب»؛ وذلك لتعدد متعلقتهما؛ لأنَّ الظلم - إن افترضنا جدلاً كونه صفةً إلهيةً - فسيكون متعدداً بتعدد العباد؛ ولذلك جاء النفي للمبالغة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤٦) (1)، وكذلك الأمر في علام للغيوب.

3 - وإما لكون الكَمَم (كالتغطية) لا يقبل التفاوت والزيادة، وهو صحيح إن كان مفعوله واحداً، وأردنا بها كمامة وجه واحد، كما لا يجوز نحو قتال زيد، وأما إذا كان مفعوله متعدداً وأردنا كمّامات وجوه مختلفة ومتعددة، فهي تقبل التفاوت كثرةً وقلةً، كما في نحو قتال الحيوانات وقتال البشر.

ومما يقوّي استعمالها أيضاً - فضلاً عمّا ذُكِر - أنّ المبالغة لا تكون للتكرار في الفعل فقط، بل تكون أيضاً لقوّته وشدّته وإحكامه على منوال قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ (2).

4 - وإما لكون «فعالة» ليست من أسماء الآلة القياسية، وهذا أيضاً غير صحيح، فقد قرّر مجمع اللغة العربية في القاهرة قياسية وزن (فعالة) في الدلالة على الآلة، (3) «اعتماداً؛ على كثرتها في الاستعمال القديم والحديث»، (4) ومن ذلك طيّارة وسيارة ودراجة وغلاية وثلاجة وشواية وسخّانة وشماعة وكسّارة، والواقع أنّ كثيراً من صيغ المبالغة التي جاءت على مفعول وفعالة أصبحت من أسماء الآلة.

(1) فصلت: 46.

(2) يوسف: 23.

(3) مجمع اللغة العربية، في أصول اللغة، تحقيق محمد شوقي أمين، ومصطفى حجازي، (القاهرة: 1975)، ص 19، وينظر إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العرسية (بيروت: دار الكتب العلمية، دت)، 7: 103.

(4) عباس حسن، النحو الوافي، 3: 337، وأحمد مختار عمر وآخرون، معجم الصواب اللغوي: دليل المثقف العربي (القاهرة: عالم الكتب، 2008)، (غلاية، غ ل ي، وشماعة، ش م ع).

## 6 - الخاتمة:

بناء على ما سبق تبدو لي كل الكلمات الثلاث «كِمَام وكِمَامَة وكَمَامَة» مقبولة، أمّا الكِمَام فشواهدا في صيغة الأفراد تعود إلى الراجز رؤبة بن العجاج في سنة 102 هـ، والظّرّمّاح (الحكم بن حكيم الطائي - ت 125 هـ)، ثمّ محمد بن إدريس الشافعيّ (ت 204 هـ)، ثمّ ابن الرومي (أبو الحسن علي بن العباس بن جريح (ت 283 هـ)، وقد وردت في المعاجم المختلفة ابتداء بمعجم العين للخليل، ومروراً بالنوادر لأبي مسحل (ت 200 هـ)، والكامل للمبرّد (ت 285 هـ)، والصّحاح للجوهري (ت 393 هـ)، والمحكّم والمحيط الأعظم في اللّغة لابن سيده المرسيّ (ت 398 هـ)، واللّسان لابن منظور (ت 711 هـ)، فضلا عن عددٍ كبير من المعاجم الحديثة.

وقد استعملت كلمة «كِمَام» في الشواهد والمعاجم المذكورة بمعنى غطاء القلب وغطاء النخلة وغطاف حبّ الحنطة وغطاف العناقيد وغطاء وجه الطائر وغطاء فم البعير والفرس، واستعمل الفعل الذي اشتقت منه الكِمَامَة مجازاً بمعنى «أخفى الشهادة وسترها»، وهذا يدلّ على عموم استعمالها في الغطاء بغض النظر عن المغطى، يؤيد ذلك أنّ بعض المعاجم فسّرت الكمّ تفسيراً عاماً، ولم تخصّه بضم البعير ونحوه، فجاء في أساس البلاغة «كمّه يكّمه إذا ستره، وشيء مكّموم»، وفي اللسان: «والكمّ: قَمَع الشيء وستره»، وجاء في المحكم لابن سيده «كمت الشيء: إذا سترته».

كل ذلك يدلّ على عدم صحّة من ذهب إلى القول بقصر الكِمَام على ما يُسدّ به فم البعير، ويؤكّد جواز استعمالها لتغطية أنف الإنسان وفمه، إمّا على سبيل دخولها في عموم معنى الكمّ أو على سبيل النقل، أو على سبيل توليد لفظ جديد بوضعها قياساً على صيغة فعال، التي أقر مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة قياسيّة استعمالها اسم آلة.

وأما الكِمَامَة فهي لا تختلف كثيراً عن الكِمَام إلّا في كونها أقلّ منها استعمالاً وأضعف قياساً، وقد أشار عدد من المعاجم التراثيّة إلى أنّها مرادفة للكمام، من بينها الصّحاح

واللسان وتاج العروس.

وأما الكَمَامَة فقد غابت عن المعاجم التراثية، وليس لها وجود في الشواهد القديمة، وذلك يدلّ على أنّها كلمة مستحدثة، ولكنّها جاءت على صيغة مألوفة في العربية، وهي صيغة فعّالة التي هي صيغة مبالغة قياسية، وأقرأها مجمع اللغة العربية ضمن الصيغ القياسية لاسم الآلة، ومن نظائرها طَيَّارَة وَسَيَّارَة ودِرَاجَة وغَلَّايَة وثَلَّاجَة وشَوَّايَة وسَخَّانَة وشَمَّاعَة وكَسَّارَة.

ولئن كانت الكَمَامَة لم ترد بهذه الصيغة، لقد ورد الفعل المشتقة منه (وهو كَمَمَ) محققاً لشروط صيغ المبالغة واسم الآلة. أمّا تحقيقه للمبالغة فلكونه قابلاً للتفاوت باعتبار تعدّد متعلقاته، وكثرتها وباعتبار شدة فعل ما سمي بالكَمَامَة وقوة إحكامها للتغطية، وأما إيفائها بشروط اسم الآلة فقد وردت على صيغة فعّالة من فعل ثلاثي متعدّد، وكانت واسطة في تحقّق الفعل وهو الستر والتغطية، ووسيلة يرتفق ويعالج بها.

\*\*\*

## المصادر والمراجع

- 1 - ابن الأبرص، عبيد، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق أشرف أحمد عدرة، (بيروت: الكتاب العربي، 1994م).
- 2 - ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، (القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 2003م).
- 3 - ابن الزبير، محمد وآخرون، موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، (بيروت: مكتبة لبنان، 1991م).
- 4 - ابن درستويه، عبد الله بن جعفر بن محمد، تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق محمد العزازي (بيروت: دار الكتب العلمية، د ت).
- 5 - ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م).
- 6 - ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هندواي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م).
- 7 - ابن علس، المسيب، شعر المسيب بن علس، تحقيق عبد الرحمن الوصيفي، (القاهرة: الآداب، 2003م).
- 8 - ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الفكر، 1979).
- 9 - ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، غريب الحديث (بيروت: دار الكتب العلمية، د ت).
- 10 - ابن منظور، لسان العرب، تصحيح: مجموعة من الأساتذة المتخصصين (القاهرة: دار الحديث، 2006).
- 11 - عبد الوهاب بن حريش الأعرابي أبو مسحل، النوادر، تحقيق عزّة حسن (دمشق: مجمع اللغة العربية بدمشق، 1961).

- 12 - الأستراباذي، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب مع شرح عبد القادر البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد وآخرون (بيروت: دار الكتب العلمية، 1975).
- 13 - امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (القاهرة: المعارف، 1990م).
- 14 - إيميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية (بيروت: دار الكتب العلمية، د ت).
- 15 - ثعلب، أبو العباس، الفصح، تحقيق صبيح التميمي (الجزائر: دار الشهاب، 1985).
- 16 - الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4 (بيروت: دار العلم للملايين، 1987).
- 17 - دُوزي، رينهارت بيترآن، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي (بغداد: دار الرشيد للنشر، 1980م).
- 18 - الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس (الكويت: وزارة الارشاد والانباء الكويت، 1984).
- 19 - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م).
- 20 - الشافعي، محمد بن إدريس، الأم، تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب (المنصورة: دار الوفاء، 2001م).
- 21 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000).
- 22 - عالم لغوي قديم (مجهول)، شرح ديوان رؤبة بن العجاج، تحقيق ضاحي عبد الباقي وآخرين، (القاهرة، مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، 2008-2011م).
- 23 - عباس حسن، النحو الوافي، ط 15 (القاهرة، دار المعارف، د ت).

- 24 - علاونة، شريف راغب (جمع وتحقيق)، ثلاثة شعراء مقلون (مالك بن حريم الهمداني، عدي بن حاتم الطائي، جعفر بن علبة الحارثي) (عمّان: دار المناهج للنشر والتوزيع، 2007).
- 25 - عمر، أحمد مختار وآخرون، معجم الصواب اللغوي: دليل المثقف العربي (القاهرة: عالم الكتب، 2008).
- 26 - عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة (القاهرة: عالم الكتب، 2008).
- 27 - الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السّامرائي، (الهلal، د.ت).
- 28 - فلفل، محمد عبود، ما جاء على فعال من اسم الآلة»، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع 82، (2012).
- 29 - الكرمل، أنستاس ماري، نشوء اللغة العربية ونموها واكتماها. (القاهرة: المكتبة العصرية، 1938).
- 30 - المُبرّد، أبو العباس محمّد بن يزيد، الكامل، تحقيق عبد الحميد هندواي (بيروت: دار الكتب العلميّة، د.ت).
- 31 - مجمع اللغة العربية، في أصول اللغة، تحقيق محمد شوقي أمين، ومصطفى حجازي، (القاهرة: 1975).
- 32 - المرقش الأكبر: أخباره وشعره، تحقيق نوري حمودي القيسي (العرب، السنة الرابعة، 1390هـ).
- 33 - معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، 31 مارس 2021: [https:// www.dohadictionary.org/dictionary](https://www.dohadictionary.org/dictionary) كام

\*\*\*

أدييات



## الحقيقة البلاغية والخلاف اللفظي

أ.د. عبد الحميد عبد الله الهرامة

(رئيس مجمع اللغة العربية)

### مقدمة

قال الرُّمانيّ «إنما البلاغةُ إيصالُ المعنى إلى القلب في أحسن الصُّور من اللفظ»، فهي على ذلك ليست مجرد مطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين، كما يُعرِّفها غيره، وليست مقتصرة على المجاز بأنواعه المعروفة، وإنما هي كلُّ استخدامٍ حسنٍ للألفاظ لكي تعلق بقلوب المتلقين، وتُحرِّك مشاعرهم. ولعلَّ أفضل ما قيل في تعريفها قولُ أبي هلال العسكري «إنَّ أحقَّ العلوم بالتَّعلُّم، وأولاهَا بالتحفظ - بعد المعرفة بالله - علمُ البلاغةِ ومعرفةُ الفصاحةِ، الذي يُعرَّفُ به إعجازُ كتابِ الله تعالى»<sup>(1)</sup>.

وحيثُ إنَّ كتابَ الله معجزٌ كلُّه، وبلوغُ كلِّه، فإنَّ البلاغةَ فيه غيرُ مقتصرة على المجاز، وإن كان المجازُ أبرزَ عناصرها، وألصقها بالتصوير البليغ. وقد أطلَّ البلاغيون البحث فيه، وتلقَّاه النقادُ والأدباء بالمدح والإعجاب، ولكنهم لم يُعطوا الحقيقة البلاغية حقَّها من التعريف والثناء، وهي نصيف المجاز في البلاغة وحسن النظم، ومقابلُهُ في الاستخدام الحسن للألفاظ.

وتعودُ خصوصيةُ هذا العملِ إلى كونه يتناولُ أبعاداً ثلاثة، بُعداً لغوياً، يستمدُّ مرجعيته من المعاجم، ومن سياقاتِ التراث العربي، وسيجد مرجعية مهمة عند اكتمال المعجم التاريخي العربي الذي سيُوقِّفنا على تاريخ الألفاظ والمصطلحات وتطورها عبر الزمن.

(1) كتاب الصناعتين للعسكري، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية 1406 هـ، ص 1.

وَبُعْدًا بلاغيًا يَستمدُّ مرجعيته من كتب البلاغة والنقد في التراث والمعاصرة. وَبُعْدًا عقديًا يَستمدُّ مرجعيته من تراث الفرق الإسلامية، ومن ملامح تأثرها بالخلاف في مفهوم المجاز والحقيقة البلاغية عبر العصور.

ولكلّ من هذه الأبعاد الثلاثة مراجعها وخلفياتها الفكرية والعقدية والعلمية، ولو اقتصر الأمر على الدلالة اللغوية والبلاغية لكان العمل محدوداً، ولكن من الممكن تقديم مصطلحات الفتنين من التراث القديم والدراسات المعاصرة، ولكن المصطلحات اللسانية الحديثة - إذا استطعت الوفاء بها - قد تكون حاجزاً دون الوصول إلى فئة عريضة من القراء لم تتعود على تلك المصطلحات، ولم تستأنس لمفاهيمها بعد.

ومن جهة أخرى فإنني أقدم مصطلحاً بلاغيًا جديداً، هو مصطلح الحقيقة البلاغية، وهو يحتاج إلى المزيد من المعالجة والتوضيح والأمثلة والمناقشة حتى يعرفه أهل الاختصاص وغيرهم، ثم يعترفون به، وهي مهمة شاقةً فكرياً، تتطلب وضع اعتراضات افتراضية والردّ عليها، وتستوجب أسلوباً قريباً من مستويات الجمهور المقصود في هذه الورقات على اختلاف انتماءاتهم العلمية والفكرية.

ولعلّ القارئ يجد في هذه الأبعاد الثلاثة ما يشدُّ اهتمامه، ويلفت نظره، بغضّ النظر عن قبوله أو رفضه لبعض ما جاء فيها من آراء.

(1)

### الدلالة المركزية للألفاظ

الدلالة المركزية لِلْفِظِ هي معناه الأصلي المعروف، وهي المعنى الذي يُسجّلُهُ اللغويون في معاجمهم ضمن الدلالات الأولية، أي غير المجازية التي هي صورةٌ من صور التوسّع والنقل الدلالي<sup>(1)</sup>، أو ما يسميه سيبويه «بسعة

(1) انظر التوليد الدلالي في ألفاظ أعضاء الحواس: دراسة بين الدلالة المركزية والدلالة الهامشية لمجدي حسين أحمد ومحمد حسين فقيه ص 100.

الكلام»<sup>(1)</sup>. وقد عبّروا عن الدلالة المركزية بالحقيقة اللغوية التي تعني استعمال اللفظ فيما وُضِعَ لَهُ، وهي غيرُ مصطلح الحقيقة البلاغية كما سنرى.

وقد عُنِيَتْ المعاجمُ اللغويةُ بهذا اللفظِ الصَّريحِ المستعملِ حسبَ الوَضْعِ اللغويِّ<sup>(2)</sup>، والمرادُ به هو المعروفُ المتداول، أو ما دَرَجَ عليه المستعملون لِلُّغَةِ، بحيث يتمُّ به «ربطُ الصِّلةِ بينَ اللفظِ وما يدلُّ عليه»<sup>(3)</sup>، وهو ما نسميه: باللفظِ الأولِ الذي ينصرفُ الذهنُ إلى معناه بلا عَنَاءٍ، كأنْ تقولَ (إنسانٌ) فينصرفُ ذهنُكَ إلى هذا المخلوقِ في صُورَتِهِ الكاملةِ، فإذا أَضَفْتَ إليه عبارةً مقطوعَ الرَّجلينِ أو اليَدَيْنِ، أو غيرِ ذلك، نقصَ مِن تلكِ الصُّورةِ في الذَّهنِ ما نقصَ منها، وأعطاكِ صورةً جديدةً بقدرِ التَّقْصِصِ الذي أدَّتُهُ تلكِ العبارةُ الواصفةُ.

## (2)

### ماذا نريد من الألفاظ؟

تنحصرُ وظيفةُ اللفظِ في التعبيرِ عن صورةِ الشيءِ أو معناه، فأنت عندما تذكرُ لفظَ (الحِصانِ) إنما تستدعي في ذهنك صورةَ هذا الحيوانِ ومفهومها المتداولِ، وإذا سَمِعْتَ ذَكَرَ الحَطْبِ فَإِنَّ ذَهْنَكَ سَيَنْصَرِفُ إلى ما جَفَّ من غصونِ الشجرِ<sup>(4)</sup>، وهذا هو المعنى الأولُ في ما نُسمِّيه بالوضعِ اللغوي، وهو مقيَّدٌ على إطلاقه بصورةٍ معروفةٍ لجميعِ الناطقين بالغة الواحدة. فإذا تجاوزتَ هذا الوضعَ فأنت في دائرةِ المجازِ خارجِ الحقيقةِ البلاغية، ولو كان ذلك قبل ظهورِ المصطلحِ.

(1) ضرب له مثلا بقوله تعالى «بل مكر الليل والنهار» فقال: «فالليل والنهار لا يمكنان ولكن المكر فيهما» الكتاب 1 / 89.

(2) الصحاح للجوهري مادة (لفظ).

(3) نظرية الوضع اللغوي ومشكلة الاجتهاد الفقهي - الدكتور تاج الدين المصطفى، موقع الرابطة المحمدية للعلماء.

(4) انظر مادة حطب في المعاجم دون تحديد.

ومرادنا بهذا الإسهاب في توضيح الدلالة الأولية للألفاظ هو إلزام مَنْ يَنْفِي الوَضْعَ في اللغة بمفهوم المعنى الأول للكلمة مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، حتى لا تكون حجة لأحد في رفض المعنى المتعارف على صورته الأولى بين الناس. «فاللغة بمعناها الواسع لا يمكن أن يَنْفَصَلَ فيها الفكر عن صورته»<sup>(1)</sup>.

### (3)

#### ما الحقيقة البلاغية؟

خروجاً مِنَ المفاهيم الغامضة والمتنوعة للحقيقة صار البحث عن مفاهيم جزئية لها في بعض العلوم مطلوباً، وذلك لتحديد المفهوم ووضع خصوصيته، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ القانونِ مَيَّزُوا بَيْنَ الحقيقةِ القاطعةِ التي تَضَعُ أمامَ القاضي الأدلةَ الكاملةَ والكافيةَ، والحقيقةِ الحكميةِ التي هي حقيقةٌ مُفترضةٌ تُبْنَى على تقاريرٍ غيرٍ مؤكدة<sup>(2)</sup>. واصطاح الفقهاء على الحقيقة الشرعية كمنقلهم معنى الدعاء إلى الصلاة، وصورته حقيقة شرعية، ولأهل العرف حقيقتهم العرفية كتسمية الحرس الملكي بالمخزن في المغرب الأقصى، وتسمية مراقبة الأسعار والصناعات بنظام الحسبة، وتسمية الديوان بالزمام، وعرف غيرهم الحقيقة العقلية بأنها «إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو عند المتكلم في الظاهر». وأقرب هذه الحقائق إلى الحقيقة البلاغية هي الحقيقة اللغوية، فما الفرق بينهما؟

يمكن التفريق بين الحقيقتين اللغوية والبلاغية، بأن الأولى تستخدم اللفظ فيما وُضِعَ لَهُ في الأصل مجرداً من أيِّ توصيف، ويقابلها أضدادها من المعاني، فالجمال يقابله القبح، والصحة يقابلها المرض، والصدق يقابله الكذب، والحق يقابله الباطل.

(1) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث لمحمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، ص 251.

(2) انظر المزيد عنها في مقال الحقيقة الحكمية وتطبيقاتها للدكتور يوسف مصطفى رسول، مجلة القانون والسياسة، العدد 23 السنة 16.

أما إذا وَضَعْنَا اللَّفْظَ الْمُسْتَعْدَمَ فِيمَا وُضِعَ لَهُ فِي تَعْبِيرٍ يَتَّصِفُ بِجَمَالِ النَّظْمِ، وانتقاء الألفاظ وسلاسة الأسلوب، وربما بتحسينه بالبدیع والمعاني، مِنْ غيرِ استعمالٍ لِلصُّورِ الْبَيَانِيَةِ فَهِيَ الْحَقِيقَةُ الْبَلَاغِيَّةُ، وَلَا يَقَابِلُهَا إِلَّا الْمَجَازُ، فَبَيْنَ الْحَقِيقَتَيْنِ عَمُومٌ وَخُصُوصٌ، حَيْثُ تَجْتَمِعَانِ فِي اسْتِخْدَامِ الْفِظِ فِيمَا وُضِعَ لَهُ، وَتَخْتَلِفَانِ فِي الْخُصَائِصِ الْآخَرَى لِكُلِّ مِنْهُمَا.

وجاءت الحقيقة البلاغية في القرآن الكريم كثيراً، وليس أبلغ منه ولا أجمل أسلوباً، ويمكن القول إنَّ كُلَّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَصٌّ بَلِيغٌ، وَجِزءٌ مِنْهُ كَانَتْ بَلَاغَةُ الْمَجَازِ، أَمَا الْبَقِيَّةُ الْأَوْسَعُ فَتَنْطَبِقُ عَلَيْهَا الْحَقِيقَةُ الْبَلَاغِيَّةُ، وَتَمَثَّلُ الْبَلَاغَةُ فِيهِ بِجَانِبِي الْمَعَانِي وَالْبَدِيعِ، فَمِنْ الْمَعَانِي الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْقَصْرُ، وَالْفَصْلُ، وَالْوَصْلُ، وَالتَّقْدِيمُ، وَالتَّأخِيرُ، وَالْإِيجَازُ، وَالْإِطْنَابُ، وَالْمَسَاوَاةُ، وَذَلِكَ لِبَيَانِ مِطَابَقَةِ الْفِظِ لِمَقْتَضَى الْحَالِ.

أما البدیع فَيَرِدُ مِنْهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الطَّبَاقُ، وَالْمَقَابَلَةُ، وَالْجِنَاسُ، وَالسَّجْعُ، وَمِرَاعَاةُ النَّظِيرِ، وَالْإِزْدَوَاجُ، أَوْ كُلُّ مَا يَحْقُقُ تَحْسِينَ الْكَلَامِ. وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، وَنَسُوقُ هُنَا بَعْضَهَا لِيَدْرِكَ الْقَارِئُ أَنَّ مِنَ الْقَوْلِ الْبَلِيعِ مَا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى أَقْسَامِ الْبَيَانِ وَصُورِهِ الْمَجَازِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ (1) فَهُوَ مِنَ السَّجْعِ وَلَمْ يَلْجَأْ إِلَى الْمَجَازِ بَرِغْمِ بَلَاغَتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا ۝﴾ (2) فَهُوَ مِنْ رَدِّ الْأَعْجَازِ عَلَى الصُّدُورِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ۝﴾ (3) فَهُوَ مِنَ الطَّبَاقِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ لَيْسَ بِهَا مَجَازٌ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ وَالْكَلامِ الْعَرَبِيِّ.

(1) الإخلاص: 1 - 4.

(2) نوح: 10.

(3) فاطر: 27.

وقُلْ مثل ذلك على أمثلة المعاني، ففي قوله تعالى: ﴿الْمَرْءُ لِكَلِمَةٍ لَّا رَيْبَ فِيهَا هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(1)</sup> بلاغة قال عنها الزمخشري إنها راسخة في البلاغة لاعتمادها الفصل في موضعه الصحيح بين الجمل<sup>(2)</sup>، وسورة الفاتحة مثال آخر للفصل حيث لا يوجد فيها سوى حرف عطف واحد، وهو ما منحها جمالاً إلى جمال السجع، مع ندرة اللجوء إلى التصوير البياني. ومنه في بلاغة القصر دون اللجوء إلى الصور البيانية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(3)</sup>.

ومن الشعر في حسن التقسيم والفصل دون اللجوء إلى الصور البيانية قول الخنساء:

حَمَالُ الْوَيْةِ هَبَّاطُ أودِيَةٍ      شَهَادُ أُندِيَةٍ لِلجَيْشِ جَرَّارُ

وقول عنتره في التصوير المباشر أيضاً:

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنِي      أَغْشَى الْوَغَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

ولقد ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ مَنِي      وَيُبِضُ الْهِنْدُ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي

وقول أحمد شوقي في همزتيه المشهورة في رثاء عمر المختار:

مَا ضَرَّ لَوْ جَعَلُوا الْعِلَاقَةَ فِي      غَدِ بَيْنِ الشُّعُوبِ مَوَدَّةً وَإِخَاءَ

فهذه الأمثلة الشعرية وكثير غيرها في النثر العربي أيضاً مفعمةً بجمال النسيج وبلاغة القول، ووجوه تحسين الكلام، وحسن نظمه بعد صحة الدلالة، دون أن تتناول المجاز إلا نادراً، وذلك هو ما أسميناه بالحقيقة البلاغية التي تقتصر على المعاني الأولى مع السمة الجمالية في الأسلوب، كما أوضحنا في سائر البحث.

أما المجاز فهو تعبير اصطلاحياً عن معنى يتجاوز المعنى الأول للفظ إلى معنى جديدٍ تمثله الصور البيانية، وهو ما يُعرف بالتصوير غير المباشر، وأدواته هي:

(1) البقرة: 1 - 2.

(2) انظر الكشاف: 1 / 121

(3) فاطر: 28.

الاستعارة، والكنائية، والمجاز المرسل، وغير ذلك من صور التوسّع اللغوي، وهو المقابل للحقيقة البلاغية.

ثم إنّ الحقيقة البلاغية والمجاز أسلوبان من الأساليب العربية، يُمكن أن نضع في جملتهما الخبر الذي نريدُه صدقاً أو كذباً، حقاً أو باطلاً، ولكنهما لا تتصّفان بذلك من حيث كونهما قالين للمضامين التي يُرادُ لهما أن يُعبّرَا عنها، فقد يُوضعُ فيهما كلامُ الله وهو صدقُ القول، كما قد توضع فيهما كلامُ مُسيلمة وهو أكذبُ القول.

فالحقيقة البلاغية غيرُ الحقيقة الخبرية التي تقابلُ الكذب، وغيرُ الحقيقة المطلقة التي تقتضي المقابلة بين الحق والباطل. والحقيقة البلاغية للإسناد هي إسنادُ المعنى إلى صاحبه الحقيقي، فنقول غرّد الطير، لأنّه صار متعارفاً عليه عند الناس كذلك، ونقول صهل الحصان، لأنّه قد وُضع لصوته لفظُ الصهيل في الدلالة المركزية، فإذا أردتَ المجاز قلت (نَهَقَ هذا المُغني)؛ تريدُ أنّ صوته من فُبحه كصوتِ الحمار، ولا يصدّقُ عاقلٌ أنّك بهذا القول تكذب، ولكنك تنتقدُ وتستقبح.

فعندما نوردُ مصطلحَ الحقيقة البلاغية<sup>(1)</sup>، إنّما نقصدُ به المعنى الأوّل الذي تعارفَ عليه الناس، فالعرشُ في الحقيقة البلاغية: كرسِيٌّ على قوائم، وله مَسْنَدٌ يَسُنْدُ الظهْرَ، وركنان تُوضعُ عليهما اليَدانِ بقصدِ الجلوسِ عليه، وإنِ اختلفتْ أنواعُهُ وتصمّياتُهُ، ومن معانيه (المُلْك) و(سريْرُ المَلِكِ) الذي يجلسُ عليه<sup>(2)</sup>، فإذا خالف هذا الشكْلَ والمعنى والوظيفة، فليس هو من الحقيقة البلاغية في شيءٍ، بل يتجاوزُها إلى معنى آخرٍ اصطلحَ عليه البلاغيون بالمجاز، مع اتفاقنا على أنّهُ حقيقةٌ خبريةٌ لا شكَّ فيها.

(1) لم يسبق لي أن اطلعت على هذا المصطلح سابقاً، والاستثناء الوحيد ما ورد في موسوعة عين من قولهم الحقيقة في الاصطلاح التي تعني الاصطلاح البلاغي، وهي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في الاصطلاح الذي جرى به التخاطب، وهي مع ذلك لم تستخدم هذا المصطلح بلفظه.

(2) المعجم الوسيط، مادة (عرش).

ويتفق كل المسلمين على أن عرش الله الذي استوى عليه ليس على هذه الصورة المعروفة التي تمثل الحقيقة الوضعية أي المعنى القريب، ولا الاستواء كذلك، وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة، فبعضهم يؤول الاستواء عليه بالاستيلاء<sup>(1)</sup>، وبعضهم يقول إنما هو استواء بلا كيف، وبعضهم يفوض أمره إلى الله، وكلهم في الواقع يلجؤون إلى المجاز لتزيه الله عن الحقيقة الوضعية، عليمه من علمه وجهله من جهله، إذ مفهوم المجاز أن اللفظ قد استعمل لغير ما وُضع له، وهذا مختصر الخلاف بين الفرق الإسلامية في هذه القضية.

وهذا كما - يلاحظ - خلاف لفظي، دافعهم عندهم هو تنزيه الله وتعظيمه - كما تقدم. ولا يقول عاقل بأن عرش الله من الحقائق البلاغية أو اللغوية أي المتعارف عليها بين الناس، وإن كان بلا أي شك من الحقائق الخبرية، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(2)</sup>، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(3)</sup>، ولا يجوز أن تختلف الأمة اختلافاً عقدياً من أجل هذا الخلاف اللفظي! وبخاصة أن الفرقاء مؤمنون بما نزل من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

#### (4)

#### أمثلة موضحة

ولنضرب لذلك أمثلة لتقريب الحال، فلو قال أحدكم يمازح شخصاً في بلد آخر وهو يتلظى من قيض الصيف: (آه ما أنعم هذه النسائم، في جونا الغائم، وربيعنا الدائم)، فنحن

(1) قال القرافي: «ومعنى قول مالك الاستواء غير مجهول أن عقولنا دلتنا على الاستواء اللائق بالله وجلاله وعظمته، وهو الاستيلاء دون الجلوس ونحوه مما لا يكون إلا في الأجسام، وقوله (الكيف غير معقول) معناه أن ذات الله لا توصف بما وضعت له العرب لفظ الكيف، وهو الأحوال المتنقلة والهيئات الجسمية، فلا يعقل ذلك في حقه». الذخيرة لشهاب الدين أحمد القرافي، 13 / 242.

(2) الشورى: 11.

(3) الإخلاص: 4.

أمام خبرٍ كاذبٍ خالٍ مِنَ الحَقِيقَةِ الخَبَرِيَّةِ. ولكننا في هذا المثال أمام حَقِيقَةٍ بلاغِيَّةٍ، إذ ليست هذه الجملة مجازاً مُرسلاً، ولا هي استعارةٌ تصرِيحِيَّةٌ، ولا مكنِيَّةٌ، ولا كنايةً، فهي إذن حَقِيقَةٌ بلاغِيَّةٌ وليست حَقِيقَةً خَبَرِيَّةً.

وكما يقابلُ الكذبُ الحَقِيقَةَ الخَبَرِيَّةَ، يقابلُ المجازُ الحَقِيقَةَ البلاغِيَّةَ، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾<sup>(1)</sup> وقوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾<sup>(2)</sup>، فنحن هنا أمام حَقِيقَةٍ خَبَرِيَّةٍ لا شكَّ فيها، وكلُّ ما في القرآن الكريم حقٌّ، ولكن لسنا أمام حَقِيقَةٍ بلاغِيَّةٍ بسبب وجود الاستعارة المكنية، واللَّبْسُ بَيْنَ الحَقِيقَتَيْنِ هو ما كان هاجسَ المنكرين للمجاز، لظنَّهم أنَّ المجازَ في مثل هذه الأمثلة يقابلُ الحَقِيقَةَ الخَبَرِيَّةَ، يقول ابنُ القَيِّم: «وهذا كُلُّهُ عند نفاةِ الأسبابِ مجازٌ لا حَقِيقَةٌ له»<sup>(3)</sup> ظناً منه أنَّ كلَّ مجازٍ لا حَقِيقَةٌ له.

وفي المثال الآتي يقول تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾<sup>(4)</sup> أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾<sup>(4)</sup> فنحن أمام حَقِيقَةٍ خَبَرِيَّةٍ واضحة، وأمام حَقِيقَةٍ بلاغِيَّةٍ أيضاً، لعدم وجود الصُّور البيانية المعروفة، وهذا كثير في القرآن الكريم وغيره من كلام العرب.

أما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾<sup>(5)</sup> وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿فنحنُ أمام حَقِيقَةٍ خَبَرِيَّةٍ ولسنا أمام حَقِيقَةٍ بلاغِيَّةٍ، وذلك بسبب استخدام الألفاظ في غير ما وُضعتُ له، ففي الآية تشخيصٌ لِلَّيْلِ وَالصُّبْحِ جعلَ الأوَّلُ يُعَسَسُ والآخِرُ يَتَنَفَّسُ، وذلك مِنْ شأنِ الأحياء، وهو مجازٌ جَلِيٌّ تحوَّلنا به من الحَقِيقَةِ البلاغِيَّةِ إلى معنَى مجازيٍّ جديد، من دون أن نُخَلِّ بصدق الجملة الخَبَرِيَّة.

(1) الكهف: 77.

(2) مريم: 4.

(3) شفاء العليل 399.

(4) عبس: 1 - 3.

(5) التكوير: 17 - 18.

ولقد اجتمعت الحقيقتان الخبرية والبلاغية في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (1) فالآية عبرت عن واقع صادق ولم تمنح إلى الصور البيانية فجمعت بين الحقيقتين.

وقد يجتمع المجاز والكذب في غير كلام الله، حين تغيب الحقيقتان الخبرية والبلاغية، كقول أحدهم كاذباً «دَحَرَ صَقُورٌ جَوْنَا الْيَوْمَ خَفَافِيْشَهُمَ الْبَائِسَةَ» فقد شبه جنوده بالصقور، وشبه جنود أعدائه بالخفافيش، فاجتمع في جملة المجاز والكذب وغابت الحقيقتان. ولكن ذنب الكذب هنا لا يتحمّله المجاز، فجملته قالب لكل المضامين، ولكن يتحمّله صاحب الخبر الكاذب كما ترى، وحاشا لله أن يقع ذلك في كتابه أو في سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتدبر ذلك لأننا سنبنى عليه ما بعده.

(5)

### ملامح الخلاف اللفظي

تبيّن من هذه الدراسة أنّ الخلاف بين منكري المجاز والقائلين به خلاف لفظي ناجم عن لبس بين حقيقتين، وربما كان ذلك هو أساس سوء الفهم بينهما، وعلينا ابتداءً أن نحسن الظنّ بالفريقين، فنحن أمام مؤمنين ورعين من الجانبين، تهمّم خدمة الإسلام والدفاع عنه وتنزيه الله وكتابه عن الزلل، فهذا فريق ينكر المجاز، برغم وجوده في اللغات واللهجات العالمية، وهاجسه أنّه كذب، فكيف يقبل بوجوده في الكتاب والسنة، قال ابن عبد البر عن هذا الفريق، وهو منه: «واحتجوا بقوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ (2)(3)، وقال: «وحمل كلام الله تعالى ونبيه على الحقيقة أولى بدوي الدين والحق» (4) وبذلك نعرف أنهم يحسبون

(1) النحل: 90.

(2) الأنعام: 57.

(3) التمهيد 5 / 15.

(4) التمهيد 5 / 15.

المجازَ كذباً مقابل الحقيقة، وهو ما وقع فيه معظم المنكرين للمجاز في القرآن الكريم، ولو كان الأمر على النحو الذي قالوا لوجدوا جميع المسلمين معهم، ولكن المجاز ليس مخالفاً للحق كما رأينا وسرى<sup>(1)</sup>.

وهذا فريق آخر يرى أن المجاز ليس مقابلاً للحق، وإنما هو مفردات لا تحتل الصدق والكذب، فإذا وضعت في جمل فهي قوالب للمضامين، وإنه توسع في القول جارٍ على السنة العرب وعاداتهم في التعبير. وخصوصاً القول إنه طريقة في التعبير لا توصف بصدق ولا كذب، بل هو واحد من أساليب اللغات العالمية ولهجاتها، لا يجوز إنكاره في القرآن والسنة - كيف وهو من ملامح الإعجاز فيهما؟!.

## (6)

### ملامح الخلاف في الغرب الإسلامي

كان الخلاف هادئاً في الغرب الإسلامي، منذ أن رفع لواءه من المحدثين العلامة ابن عبد البر الأندلسي، ورفع لواءه من المتكلمين الفقيه الشهير أبو بكر بن العربي، وكان ابن حزم وسطاً بينهما برغم ظاهرته، فنحن أمام أئمة أجلاء، يعرفون مستوى الحوار وآدابه وحدوده، ومن يأخذ منهم برأي المحدثين لا ينكر المجاز، لأنه واقع لغوي، ولكنه يتحفظ على وروده في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ومن يقول منهم بالمجاز لا يصف مخالفته بالمجسمة.

وهذا ابن عبد البر يقول: «وجعلوا ذلك من باب المجاز والتمثيل في كل ما تقدم ذكره، على معنى أن هذه الأشياء لو كانت مما تنطق أو تعقل لكان هذا نطقها وفعلها»<sup>(2)</sup> (اه)، ولكنها لم تعقل ولم تنطق، فنسبتهم الكلام إليها ليس من باب الحقيقة البلاغية، أي ليس من المعاني الأولية، فهو إذن من المجاز، فلو أرادوا تقريب الحقيقة البلاغية من المجاز لقالوا

(1) الرد على هذه الأسباب في مقالة المجاز ومصادره في مجلة مجمع اللغة العربية العددان 15، 16 ص 113.

(2) التمهيد 12.

ما قال الصحابيُّ الجليل حسانُ بن ثابت:

لَوْ أَنَّ اللَّوْمَ يُنْسَبُ كَانَ عَبْدًا قَبِيحَ الْوَجْهِ أَعْوَرَ مِنْ ثَقِيفٍ<sup>(1)</sup>

فهو يستبطنُ المعنى المجازي الذي أراده ويخرجُ عنه بحرف (لو) إلى باب التشبيه الخيالي. فابنُ عبد البر بما أورده مِنْ أمثلةِ المجاز لا نراهُ يَنْكِرُهُ، بل يبرهنُ على أنه معروفٌ في الجاهلية و صدر الإسلام بما ساقه من تلك الأمثلة، ولذلك قال: «وهو كثيرٌ»<sup>(2)</sup>.

(7)

### مقارنة بين حقائق

والحاصل الذي أسفَرَ عنه البحثُ تمثل في مقارنة بين ثلاث حقائق هي، الحقيقة المطلقة، والحقيقة الخبرية، والحقيقة البلاغية، فالحقيقة المطلقة يمكن أن يتقابل فيها الحقُّ والباطل، والحقيقة الخبرية هي الصدق الذي يُقابلُ الكذب، لأنَّ الخبرَ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ والكذبَ، كما هو معروفٌ، والحقيقة البلاغية هي التي تقابل المجاز بغضَّ النَّظَرِ عن محتواها.

واتفق القائلون بالمجاز ومنكروه على أنَّ ما جاء مِنْ آيات الكتاب العزيز التي تَرِدُ فيها ألفاظٌ موهمةٌ للتشبيه هو من باب الحقيقةِ الخبريةِ التي لا شكَّ فيها، والإيمانُ بها عقيدةٌ بلا ريب، إذ ليس ثمة مؤمنٌ لا يَقْرُبُ بَصْدُقٍ ما جاء في الكتابِ الكريمِ وصحيحِ السُّنةِ مِنْ أخبارٍ مهما كان نوعُها.

أما الحقيقةُ البلاغيةُ فشيءٌ آخرُ تماماً، لأنها تقابل المجاز، ولا تقابل الكذب، وتستخدمُ ألفاظاً مطابقةً لمعناها الذي تُعارَفُ عليه الناسُ مع مَسْحَةِ جماليةٍ في الأسلوب، ولا تحتل الصدقَ والكذبَ لذاتها، بل لما يضعُهُ فيها المتحدثُ مِنْ مضامينَ صادقةٍ أو كاذبةٍ،

(1) التمهيد 5 / 12.

(2) التمهيد: 12 - 15.

فهي وعاءٌ للكلام، وفي الأوعية تَصْعُ ما تشاء، وذلك ديدن كلام العرب. قال ابن عبد البر: «وَجَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْ يُخَاطَبَ إِلَّا بِمَا تَفَهُمُهُ الْعَرَبُ مِنْ مَعَهودِ مَخَاطَبَاتِهَا مِمَّا يَصِحُّ عِنْدَ السَّامِعِينَ»<sup>(1)</sup>.

(8)

### الخلاف في الاستواء

أورد ابن عبد البر في التمهيد: «عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(2)</sup>، كيف استوى؟، قال: فأطرق مالكٌ ثم قال: استواؤه مجهول، والفعل منه غير معقول، والمسألة عن هذا بدعة»<sup>(3)</sup> وهذه رواية لا إشكال فيها، لأنه أوضح أن استواء الله مجهول، أي غير الاستواء المتعارف عليه. وربما ظهر الإشكال في رواية البيهقي من عبارة أم سلمة التي اشتهرت فيما بعد منسوبةً إلى الإمام مالك بن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه سُئِلَ عن قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾<sup>(4)</sup>، كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلومٌ والكيف مجهولٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، ثم قال: أخرجوه<sup>(5)</sup>: فقد قال الإمام مالك: الاستواء معروف، ولم يقل استواء الله معروف، فالأول هو الاستواء المتعارف عليه وعلى كيفيته، واستواء الله غير ذلك فهو مجهولٌ، وهو ما يدخله إلى دائرة المجاز، وليس علينا أن نضع لفظاً من اجتهادنا لهذا المجاز، بل يكفي أن نحيله إلى علم الله.

فدَلَّ بقوله والكيف مجهول على أنه استواء آخر غير معروف، أي غير ما يفهم من الدلالة المركزية، أو ما أسميناه بالمعروف من المعنى الأول للمفردات. والجهل

(1) التمهيد 7 / 131.

(2) طه: 5.

(3) التمهيد 1 / 151.

(4) طه: 5.

(5) الأسماء والصفات.

بالكيفية خروجٍ من المقدارِ والحُجْمِ والشَّكْلِ إلى مجهولٍ علينا أن نؤمنَ به وليس علينا أن نفسره، فتفسيره مجردُ ذكره، والله أعلم به، وليس ذلك من التعطيل في شيء. واتفقت الأمة على عبارة علماء السلف في قولهم بلا كيف، وهي تعني أنّ اللفظ قد خرج عن ظاهره المكيف أي المعروف إلى معنى مجازي، إذ الظاهر من (اليد) له كيف في اللغة معروف، وعدم التكييف يؤدي بنا إلى المجاز، ويسميه آخرون بالانزياح، وهو العدول عما هو ظاهرٌ حقيقي مألوف إلى لغةٍ مجازية، أي ليست مركزية في ذهن السامع وتصوره.

قال أبو داود: وحدثنا الحسن بن محمد قال: سمعتُ الهيثم بن خارجة قال: حدثني الوليد بن مسلم قال: سألتُ الأوزاعي، وسفيانَ الثوري، ومالكَ بن أنس، والليث بن سعد، عن هذه الأحاديث التي جاءت في الصفات، فقالوا: «أمروها كما جاءت بلا كيف». وفي رواية: «بلا تفسير» أي لا تفسروها مع الإيمان بها، لأنكم لن تجدوا ما يوافقها من الشرح في لغتكم، والله أعلم بمراده منها، ولذا قالوا إنَّ السؤال عنها بدعة، فلو أرضاهم المعنى القريبُ المعروف لما اضْطُرُّوا لإصره إلى عدم التكييف. وبعد وضوح معنى المجاز، وبيان أن لا مدخل للكذب في التعبير به إذا كان المصدر صادقاً، فلا تثريب على المؤمن أن يفسر الألفاظ المشبهة بالمجاز، أو أن يكمل ذلك إلى علم الله ومراده، مع الإيمان التام به والاهتمام بثمرة ذكره.

(9)

### على من يقع اللوم؟

تبادل الفريقان التهم بالتجسيم والتعطيل والتبديع بسبب هذا الخلط بين الحقيقتين الخبرية والبلاغية، وسبب ذلك تنافراً بين المسلمين ونزاعاً زاد أواره في عصرنا الحاضر لأسباب ذكروا بعضها، وما خفي منها ربما كان أعظم، ونما وترعرع في الشرق وغدته

السياسة والمال بكلّ أسف، وقد حاول بعضهم نقله بجدته إلى الغرب الإسلامي، فمن المَلُوم على هذا النزاع بين المسلمين؟

بعد الرجوع إلى عددٍ من المصادرِ البلاغية القديمة والحديثة نجد أنّ علماء البلاغة هم أساس هذا اللبس، ففي مقابل الإسهاب في أبواب المجاز لا نجد وقوفاً يُذكر أمام الحقيقة البلاغية، وإذا ذكروها أطلقوا عليها اسم الحقيقة من دون تمييز لها عن غيرها من الحقائق، وهنا مكنن الداء.

ولكم أن ترجعوا إلى كُتب البلاغة، وأن تستعينوا بمواقع البحث الإلكتروني، لترؤوا هل ذكر مؤلفوها هذا المصطلح في كتبهم؟ وهل فرقوا بين الحقيقة البلاغية والحقيقة الخبرية حتى يرتفع ذلك اللبس بينهما؟ وبغض النظر عن المصطلح هل حظيت الحقيقة بما حظي به المجاز في كتب البلاغة؟

## (10)

### ماذا في كتب البلاغة عن

#### الحقيقة البلاغية؟

وَقَفْتُ بعضُ المعاجمِ البلاغية عند مصطلح الحقيقة على إطلاقه، وكنا نتوقع أن توضّح الفرق بين الحقيقة البلاغية والحقيقة الخبرية، والحقيقة المطلقة، لكنها تناولت الحقيقة دون توصيف فزادت اللبس عمقاً. ومن الإنصاف أن نذكر أنّ تعريف أستاذنا د. بدوي طبانة كان أفضلها، لولا إطلاقه للفظ الحقيقة من دون قيد حين قال «الحقيقة: هي الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل، ولا تقديم فيه ولا تأخير... وهذا أكثر الكلام»<sup>(1)</sup> ففي القسم الأول من التعريف نجد الحقيقة اللغوية، وفي القسم الثاني يستثني منها الصور البيانية فيقترب من المقصود، ولكنه يبتعد عنه حين يستعين بنصوص

(1) معجم البلاغة د. بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية ط1، سنة 1975 المجلد الأول 207.

تركز على الحق المطلق كقول ابن فارس «الحقيقة من حَقَّ الشيء إذا وجب، واشتقاقه من الشيء المُحَقَّق»<sup>(1)</sup>.

لقد ترك ذلك التقصير في كتب البلاغة لبساً محيراً في العقول، جرَّ بعضهم إلى التصريح بأن المجاز «كذبٌ لصدق نفيه، وإذا لم يكن كذباً فلا يُصار إليه إلا عند العجز عن الحقيقة، والله منزّه عن ذلك»<sup>(2)</sup> وقال آخر: «ومحل كلام الله تعالى ونبيّه على الحقيقة أولى بذوي الدّين والحق»<sup>(3)</sup>، ويؤكد الدكتور بدوي ما ذكرناه بقوله: «وقد كثُر كلام العلماء والبلاغيين في تحديد الحقيقة، ولا يخرج كلامهم عن المعنى السابق»<sup>(4)</sup>.

ومنهم العلوي في الطراز الذي قال: «ما كان من الألفاظ مفيداً لما وُضِعَ له في الأصل فهو المراد بالحقيقة»<sup>(5)</sup> فالحقيقة عنده هي اللغوية والمطلقة، وقال الأمدى: الحقيقة هي «اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له أولاً»<sup>(6)</sup> وهو أيضاً تعريف الحقيقة اللغوية دون تمييز لها عن المجاز، وابن الأثير يقول إن «الحقيقة هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي»<sup>(7)</sup> وذلك تعريف الحقيقة اللغوية أيضاً، ويقول عبد القاهر الجرجاني عن الحقيقة في المفرد «كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح وإن شئت قلت: في موضعه وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة، وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول»<sup>(8)</sup>. وتلك تعريفات للحقيقة اللغوية ليس فيها

(1) المصدر نفسه 207.

(2) هذا ملخص رأي مانعي المجاز في القرآن كما لخصه المطعني في كتابه المجاز 2/ 19 اختصاراً من كتاب الأحكام في أصول الأحكام للأمدى 1 / 67.

(3) التمهيد ص 15.

(4) المصدر نفسه ص 208.

(5) الطراز 1 / 45.

(6) الأمدى، علي بن محمد، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1404هـ، ط1، ج1، ص26.

(7) ابن الأثير، المثل السائر: 1/ 58.

(8) أسرار البلاغة 324.

شيء يربطها بعلم البلاغة، وإطلاق لفظ الحقيقة عليها دون توضيح للفرق بين الحقيقتين البلاغية والخبرية مثلاً يُبقي على اللبس في مستواه السابق، بل يُعمِّقهُ.

وحين أرادوا تقييد الحقيقة ذكروا الحقيقة اللغوية، والحقيقة العرفية، والحقيقة الشرعية<sup>(1)</sup>، ولم يذكروا الحقيقة البلاغية، ولا شيء من ذلك يرفع اللبس القائم بين الحقيقة الخبرية والحقيقة المطلقة من جهة والحقيقة البلاغية من جهة أخرى.

## (11)

### المجاز خاص بالمفردات

كنتُ فكرتُ في استبعاد كلمة الحقيقة أصلاً من عنوان البحث، والاكتفاء بمصطلح المعنى الأصلي مقابل المعنى المجازي، وذلك حتى لا يبقى في النفس شيء من مقابلة المجاز بالحقيقة، ولكن ورود لفظ الحقيقة في كل كتب البلاغة جعلني أكتفي بتمييزها بمصطلح الحقيقة البلاغية الذي يختلف كثيراً عن المراد من الحقيقة المطلقة، وقليلاً عن المراد من الحقيقة اللغوية.

ولسائل أن يسأل: لماذا اخترت مصطلح المعنى الأصلي؟ والجواب أن ذلك كان لسببين، أولهما لتفادي مصطلح الحقيقة الذي وضعنا في أساس هذه المشكلة، والثاني أن المعنى الأصلي يشير إلى أن المجاز في المفردات، وليس في الجمل، فأنت حين تُجري الاستعارة إنما تلاحظ العلاقة بين المشبه والمشبه به وهما مفردان غالباً. ويستثنى من ذلك التشبيه التمثيلي في مثل قول بشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَارِ التَّفْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

حيث شبه صورة غبار المعركة فوق الرؤوس والسيوف البيضاء اللامعة في ظلمته

(1) معجم البلاغة د. بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية ط 1 سنة 1975 المجلد الأول 207.

المتخيلة وتهاويها، بصورة الليل الذي تتهاوى نجومه البيضاء لتضيء ما تخترقه من ظلمته. وهذا التمثيل ليس خافياً في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾﴾<sup>(1)</sup> ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾<sup>(2)</sup>.

وليس هذا موضع إنكار المنكرين، إنما موضع المجاز والحقيقة المفردان، ولا مجال للتكذيب فيها، ولم أعرف من خصها بهذا الوصف المفرد صراحة في التعريفات سوى عبد القاهر الجرجاني الذي قال: «واعلم أن كل واحد من وصفي المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به الفرد غير حده إذا كان موصوفاً به الجملة، وإننا نحدّهما في المفرد: كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح، وإن شئت قلت: في مواضع<sup>(3)</sup> - وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة»<sup>(4)</sup>، ثم قال: «وإنما اشترطت هذا لأن وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز حكم فيها من حيث أنها دلالة»<sup>(5)</sup> فالمراد هنا الكلمة المفردة حقيقة كانت أو مجازاً.

والملاحظة المهمة التي أوردها في هذا السياق هي قوله عن هذه الشروط التي يضعها لعلم البلاغة «ونظائر ذلك كثيرة، وهو أحد ما غفل عنه الناس، ودخل عليهم اللبس فيه، حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم قوانين عقلية، وأن مسائله كلها مشبهة باللغة في كونها اصطلاحاً يتوهم عليها النقل والتبديل، ولقد فحش غلطهم فيه»<sup>(6)</sup> وهو كلام في غاية الأهمية يظهر لنا أن هذا العلم خاضع لقوانين عقلية تنظمه، ولا سبيل إلى القول بأن أحد

(1) العنكبوت: 41.

(2) إبراهيم: 24.

(3) في مواضع: هكذا في أسرار البلاغة تحقيق السيد محمد رشيد رضا ص 303 وفي غيره في موضعه.

(4) أسرار البلاغة 324.

(5) المصدر نفسه تحقيق محمد رشيد رضا ص 303.

(6) أسرار البلاغة تحقيق محمد رشيد رضا، نشر دار المعرفة بيروت ص 303.

العلماء قال: («إنَّ المجاز كذبٌ»، لأنَّ العبرة) بالقاعدة العلمية لا بقائلها.

ولا شك أنَّ البلاغيين انتبهوا إلى ذلك في إجراءاتهم للاستعارات وعقدِهِم للمقارنات في التشبيهات، ولكنني لم أجد التصريح بالمفرد إلا عند عبد القاهر، وعليه فإن المفردات لا يقال إنها صدق أو كذب، وإنما يقال ذلك في الجمل والتراكيب التي تخضع لما يوضع فيها لاحقاً من أحكام قِيَمِيَّة وتطبق على الجمل الخبرية والحكمية.

(12)

### اعتراضٌ مهمٌ

وقد يعترضُ معترضٌ فيقول: ليستُ مشكلتُنا مع المفردات، ولكنْ مع الجُمْل، فكيف تقولُ في قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾<sup>(1)</sup> وفي قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَخَفِضَ لُهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾<sup>(2)</sup> فهما من الجمل وليستا من المفردات، فعلى القول بالمعنى الأول الوحيد الذي تقولون به نَقَعُ في المحذور، وهو غياب الحقيقة في هذه الآيات.

والجوابُ هُوَ أَنَّ المشكلة هنا عند مَنْ يعتقدُ أَنَّ اللفظ (اشْتَعَلَ) والتركيب (جناح الذل) في هاتين الآيتين ليس مجازاً، فهذا موطنُ الإشكال، وهو ما يدعو إلى القبول بالمجاز، لأنه منطِق اللغات كافة، ولأنه أسلوب معروف في اللغة العربية. فالاشتعال على ذلك مجازٌ جليٌّ انتقل مِنْ معناه إلى معنى الانتشار والتوسع، كما انتقل معنى جناح الذلِّ إلى معنى الانخفاض التذلل للوالدين لأن منطِق اللغة لا يَحْتَمِلُ جناحاً للذل، ونظيره في قوله تعالى: ﴿وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(3)</sup> أي ترفق بهم.

وإذا أردت أن تعرف المنطق الذي يبني عليه المنكرون رأيهم في تفسير هذه الآية فاقراً قول الشيخ ابن العثيمين في ردِّه على سؤال في هذا الشأن يقول: «الذين قالوا بالمجاز

(1) مريم: 4.

(2) الإسراء: 24.

(3) الحجر: 88.

أو عدم المجاز يتفقون غالباً على المعنى، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾<sup>(1)</sup>، فكلهم متفقون على أن الذل ليس طائراً له جناح، أليس كذلك؟

- السائل: بلى.

- الشيخ: إذاً، بقي لنا أن نعرف: هل الجملة أو هذا التركيب مستعمل في اللغة العربية، وأن جناح كل شيء بحسبه؟ فحينئذٍ يحصل الخلاف<sup>(2)</sup> وهذا يعني أن لكل معنى في اللغة جناح، يمكن أن نرغبه في الجملة فيكون جناحاً بحسب هذا المعنى، وذلك ما لا يمكن أن يضبطه ضابط ولا يقبله أي نظام لغوي.

إن الحقيقة البلاغية لا تكتسب هذه الصفة حتى تكون في جملة ذات سمة جمالية في الأسلوب، فهي لا تكتسب صفة البلاغة من المعنى الأول فقط، ولكن من الجملة التي تحمل الصفة البلاغية، وبمنطق يحفظ اللغة انضباطها ويحميها من الانفلات والتعميم.

كما أن القول بأن الوضع الأول يحتل المعنى الحقيقي والمجازي معاً مخالف لما في المعاجم اللغوية - وهي الحكم الأول في معاني الألفاظ، ومخالف للحكم الثاني والأهم وهو السياقات اللغوية والأدبية على هذا المعنى في عصور الاستشهاد. فإذا لم تجد القاعدة الأسلوبية منضبطة في المعاجم والسياقات اللغوية فأنت في مشكل حقيقي لا مخرج منه إلا بالقول بالمجاز. ومنطق اللغة يقول بأن الفعل (اشتعل) في هذه الآية ليس باقياً في معناه الأول، وأنه انتقل بالتشبيه من الاشتعال إلى انتشار الشيب في الرأس بصورة كبيرة تشبه اشتعال الحطب بالنار، ولا حرج في التشبيه ولا كذب فيه، ولكن الخلل يقع في كلام من يدعى أن العرب تكلمت بهذا المعنى المجازي فنسبت الاشتعال إلى الشعر، وهي لم تفعل. ولذلك فإن ابن كثير القرشي في تفسيره الذي هو عمدة منكري المجاز يكتفي بالقول:

(1) الإسرائ: 24.

(2) موقع نون للقرآن وعلومه على محرك البحث جوجل من إجابة الشيخ ابن العثيمين على أحد السائلين.

«وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا»<sup>(1)</sup> أي اضطرم المشيب في السواد<sup>(2)</sup> ومعلوم أن الاضطرام من لوازم النار في معناها الأول، ومن أشهر معانيها الاشتعال والانتقاد، والالتهاب، والاستعار، والتوهج، والتأجج، والشدة، والاندلاع، فهو لم يخرج عن المعنى الأصلي، ثم زاد الأمر وضوحاً حين استشهد ببيتٍ لدريد في مقصورته يقول فيه:

أما تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنُهُ طَرَةً صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّبْحِي  
واشْتَعَلَ المُبَيَّضُ فِي مُسْوَدِّهِ مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَمْرِ الغَضَا

فهذا السِّيَاقُ يعزُّزُ المعاني المعجمية من جهة، ويوضِّحُ أنَّ العلاقة هي التشبيه في قوله: «مثل اشتعال النار» وذلك هو منطق اللغة من جهة أخرى.

وحين نقول: «جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ»<sup>(3)</sup> فَإِنَّ المَجَازِيينَ لَا يَنْسَبُونَ الكَذِبَ إلى هذا القول، لأنَّهم يقولون إنَّ لفظ (يريد) ليس في المعنى الأول الذي هو الإرادة الحقيقية للسقوط، ولكنه تجاوزه إلى معنى الجديد هو التعبير عن الإرادة بحالة (الأيلولة) التي نشاهدها في الجدار المتصدِّع الآيل للسقوط، ولا يستقيم الادعاء بأنَّ الله أودع في الجدار العقل والإرادة على حقيقتها، لأنَّ الجدار لو كان عاقلاً مريداً ما أراد لنفسه السقوط.. وإنما يريد الصيانة والإصلاح، أليس كذلك؟ فالمشكلة في الجمل المجازية صنعها منكرو المجاز، ولم يصنعها القائلون به.

ولذا فمن الغريب قولهم إنَّ المَجَازَ كَذِبٌ، والأغربُ أن يُسند هذا القول إلى رأس المدرسة الأشعرية، رأس القائلين بالمجاز في المدارس الكلامية، ومع ذلك فلا يعني قوله إنَّ قال ذلك شيئاً بعد وضوح القوانين الموضحة لهذا العلم.

وإذا كان ابن تيمية قد تجنَّب التركيز على تكذيب المجاز، بعد أن ردَّ البلاغيون

(1) مريم: 4.

(2) تفسير ابن كثير طبعة دار الأندلس 1984، 4 / 438.

(3) الكهف: 77.

ذلك بحزم، فإنَّ هاجسه ما زال هو دافعه القوي لاكتشاف أسبابٍ أخرى ترفضُ المجاز، وقد جاء الردُّ عليها جميعاً في بحث المجاز بمجلة المجمع الليبي<sup>(1)</sup>، وفي كتاب د. المطعني عن المجاز.

ولا يعتقدنَّ أحدٌ أننا نقلُّ من شأن الإمام ابن تيمية، ولا من شأن مدرسته في غير هذا الموضوع، ففي كتبه زادٌ معرفيٌّ عميقٌ في مجالاتٍ أخرى، ونحسبُ أنَّ إنكاره للمجاز جاء بتأثير الورع الناجم عن هاجس الخوف من إدخال الكذب إلى الكتاب والسنة، وإن لم يصرِّح به، إذ نجده يقبله تارة ويرفضه أخرى.

### (13)

#### البَطْلِيُّوسِي فِي الْإِنْصَافِ<sup>(2)</sup>

ولمحمد بن السيد البَطْلِيُّوسِي (444 - 521 هـ) كتابٌ لطيفٌ تحدَّث فيه عن الحقيقة والمجاز، وبيَّن أنهما من أسباب الخلاف بين فرقٍ إسلامية، ومن لطائفه فيه قوله: «وملاكُ هذا الباب معرفةُ الحقيقة والمجاز، وهو بابٌ يدقُّ على مَنْ لم يتمهَّر في هذه الصَّناعة، فلذلك ينكرُ كثيراً مما هو صحيح، والله درُّ أبي الطيب المتني حيث يقول:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السَّقِيم

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والعلوم<sup>(3)</sup>

لم يقف البَطْلِيُّوسِي عند الحقيقة البلاغية كغيره من القدامى، ولكنه

(1) العدد 15 - 16 ص 113.

(2) من مؤلفاته المطبوعة: المثلث، والمقدمة من كتاب المسائل والأجوبة، والحلل في شرح أبيات الجمل، ورسائل في اللغة، وشعر ابن السيد البطليوسي، وكتابه الإنصاف الذي اقتبسنا منه، وقد نشر في بعض طبعاته باسم كتاب التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم.

(3) الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف لعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ص 20.

أوضح بأمثلة جليّة من المجاز في كلام العرب وفي القرآن والسنة ما يُقنع كلّ ذي عقلٍ له معرفة بلسان العرب، ولذا لم يُرد الإطالة في الردّ المباشر على المنكرين، وبدأه بقوله: «قد ذهب قومٌ إلى إبطال المجاز، وذهب آخرون إلى إثباته، وإنما كلامنا فيه على مذهبٍ من أثبتته، لأنّه الصّحيحُ الذي لا يجوز غيره، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾<sup>(1)</sup> وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾<sup>(2)</sup> ولا وجه لإطالة القول في الردّ على من أنكره، لأننا لم نقصد ذلك في كتابنا هذا، ولا مناقضة أحدٍ من أهل المقالات، وإنما قصدنا الكلام في أصول الخلاف»<sup>(3)</sup>.

ومن لطائف ما ساقه البطليوسي من آيات التمثيل التي لا تُراد بها الحقيقة البلاغية في نظره قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(4)</sup> فقال في الردّ على مخالفيه: لو تأملوا ما قاله تعالى بعدها لأدركوا مراده حين قال: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(5)</sup>، فأخبرنا أنّ ما ذكره في الآية العزيزة من النور، والمشكاة، والمصباح، والزجاجة، والزيتونة، والشجرة، أمثالٌ مضروبةٌ، عقّلها عن الله تعالى من وفق لفهمها، وكشفت له الحجب عن مكنون سرّها وعلمها، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾<sup>(6)</sup><sup>(7)</sup>.

(1) إبراهيم: 4.

(2) الشعراء: 195.

(3) الإنصاف ص 10.

(4) النور: 35.

(5) النور: 35.

(6) العنكبوت: 43.

(7) الإنصاف ص 15.

(14)

## الصُّورَةُ الشَّعْرِيَّةُ

على أَنَّ قِلَّةً مِنَ البَاحِثِينَ المَعاصِرِينَ فِي مَجَالِ الصُّورَةِ الشَّعْرِيَّةِ وَقَفُوا عِنْدَ الصُّورَةِ المَباشِرَةِ الَّتِي هِيَ أَبرَزُ مَظاهِرِ الحَقِيقَةِ البِلاغِيَّةِ، وَقابَلوها بِالصُّورَةِ غَيرِ المَباشِرَةِ الَّتِي هِيَ الِاسْتِعارَةُ وَالمِجازُ وَالكِنايَةُ وَالمِثالُ، وَلِكنَّ ذَلِكَ جَرى مِنَ دُونَ تَفصِيلِ يُزِيلُ اللَّبَسَ، وَيُوضِّحُ الفِرقَ بَينَ الحَقِيقَةِ البِلاغِيَّةِ وَغَيرِها، وَلو أُعْطِيَ النِّقادُ هَذا المَوْضوعَ حَقَّهُ مِنَ البَحْثِ لَعَوَّضوا ما أَهْمَلَهُ البِلاغِيونَ لِمَدَّةِ قِرونٍ مَضَتْ، وَلِكنَّهُم اِكتَفَوا بِالقَوْلِ إِنَّ الصُّورَةَ المَباشِرَةَ هِيَ أَشَبُّ ما تَكونُ بِالقَطاتِ الطَّبيعيَّةِ الَّتِي يَلتَقِطُها المِصوَرُ للطَّبيعةِ، بما فِيها مِنَ شَجرٍ وَماءٍ وَطَيورٍ وَغَيرِها مِنَ مَعالِمِ الطَّبيعةِ الجامِدةِ وَالمُتحرِّكةِ، ثُمَّ يَأْتِي الأَدِيبُ فيصِفُ هَذا المِناظِرَ بِأَسلوبِهِ الفِنيِّ، لِيعرِضَها صَورَةً لَفظِيَّةً جَميلَةً، وَلِكنَّ مِنَ دُونَ الصُّورِ البِيايَةِ غَيرِ المَباشِرَةِ، الَّتِي عَرَفنا أَنَّها المِجازُ بِأنواعِهِ. وَلا شَكَّ فِي أَنَّ ما قَدَّمواهُ مَهْمٌ فِي التَّعريفِ بِالحَقِيقَةِ البِلاغِيَّةِ، بِالرَّغْمِ مِنَ أَنَّهُم لَمْ يَذكَروا المِصطَلَحَ فِي مَؤَلِّفاتِهِم<sup>(1)</sup>.

(15)

## الظاهران

وقد نجم عن توهم الكذب في المِجاز قولٌ غريبٌ، عمادُهُ أَنَّ للألفاظِ المِشبهَةِ ظاهِرَيْنِ، ظاهراً لِمَن دَرَسَ البِلاغَةَ وَأَكَّدَ وَجودَ المِجازِ فِي اللِغَةِ وَالقرآنِ الكَرِيمِ وَالسَّنَةِ وَالتَّراثِ العَرَبِيِّ الإِسلامِيِّ، وَهم مَعْظَمُ عِلماءِ الأُمَّةِ الإِسلامِيَّةِ فِي اللِغَةِ وَالتَّفْسيرِ وَالعَقائِدِ وَالسَّنَةِ وَالأَدبِ وَالنَّقْدِ وَالبِيايَةِ.

وَظاهراً آخَرَ قالَهُ بَعْضُ مُنكَرِي المِجازِ فِي الألفاظِ المِشبهَةِ، وَنَسَبواهُ إِلى أَهلِ السَّلِيقَةِ

(1) انظر المؤلفات الكثيرة في الصورة الشعرية بالعربية وغيرها، ومنها الصورة الأدبية لمصطفى ناصف، والصورة الفنية لجابر عصفور، والصورة في الشعر العربي لعلي البطل.

من الصحابة الذين نزل الوحي بين ظهرانيهم، وقالوا إنهم لم يتساءلوا عنها، ولا التبس عليهم أمرها، فظنوا أن هذه الألفاظ ظاهراً آخر سموه بظاهر مذهب السلف في فهمها، وهم يتمسكون به، ويجعلونه دليلاً على تبديع من يقول بالمجاز في تفسير الآيات الموهمة للتجسيم.

ولكن المتأمل في الأمثلة الكثيرة التي وجدت في العصر الجاهلي وفي القرآن الكريم نفسه، وفي بعض آثار صدر الإسلام يرى أن الظاهر الذي عرفه الصحابة لا يختلف مطلقاً عن الظاهر عند من جاء بعدهم، وهو أن هذه الألفاظ ليست في معانيها المحسوسة التي تعارف عليها العرب، وأن عظمة الله في نفوسهم صرفتهم إلى معاني أخرى تليق بالله يبيدها استغرابهم من تلويح المستفهم عن معنى الاستواء.

(16)

### فزع أهل السنة من التكييف

انتقد ابن عبد البر عقولاً وروايات بالغت في التكييف فنقل ما نصه: «أخبرنا أحمد بن عبد الله أن أباه أخبره قال: حدثنا أحمد بن خالد قال: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح بمصر قال: «قال نعيم: ينزل بذاته وهو على كرسيه» فرد عليه قائلاً: ليس هذا بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة؛ لأن هذا كيفية، وهم يفزعون منها؛ لأنها لا تصلح إلا فيما يحاط به عياناً، وقد جلَّ الله وتعالى عن ذلك، وما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه أو على لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيه أو قياس أو تمثيل أو تنظير، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (1)(2).

وفزع أهل الفهم من أهل السنة إنما كان من المعاني الأولية القريبة التي نجدها

(1) الشورى: 11.

(2) التمهيد لابن عبد البر 7 / 144.

في آيات التشبيه، وقولنا إنَّ لفظَ اليد في القرآن الكريم حقيقةً مطلقةً يعني أنها مشابهةٌ لصفات الأيدي المعروفة لدينا، فإن لم تكن كذلك فهي المجاز، ولا ثالث لهما، وهو ما يدلُّك على أنهم يَفزعون من المعاني الأولية التي تُوهم التجسيم ويعدّلون عنها إلى معانٍ أخرى تليق بالله تعالى، وهذا غاية الوعي بالمجاز.

فتأمل ترَ أنَّ الظاهرَ واحدٌ في عصرنا وعصر الصحابة، وأنَّ عقولهم كانت تعظّم الله وتنزهه عن التّجسيم ولا تُسأل عنه، دون حاجةٍ إلى مَنْ يُعرّفها بمصطلح المجاز والحقيقة البلاغية - ولذلك كره الإمام مالك سؤال السائل عن هذه الألفاظ وقال: أخرجوه عني، لأنه جاء بما يخالف السليقة العربية التي تؤمنُ بعظمة الله وسُموه، وتنزهه عن المعاني القريبة لهذه الألفاظ المشبهة. ولذلك قال الإمام مالك: «الاستواء معروف» ولم يقل استواء الله معروف. فتأمل.

## (17)

### هل المجازُ بدعةٌ؟

لِتأكيد تمييز الحقيقة البلاغية عن المجاز في مفهوم السلف نذكرُ أن البخاريّ أوردَ لمجاهدٍ - وهو من التابعين - معني مجازياً في تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾<sup>(1)</sup>، فقال: «تَمَثَّيَ بِالتَّمِيمَةِ»<sup>(2)</sup> وهذا ليس من المعاني الأولية المعروفة للفظ الحَطَبِ، وإنما هو تعبيرٌ مجازيٌّ أريدَ به غيرُ معناه الوضعي في اللغة في استعمال رجلٍ من التابعين. ومنه تفسيرُ عكرمة لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾<sup>(3)</sup> قَالَ عِكْرِمَةُ: «يَعْنِي إِذَا غَضِبْتَ»<sup>(4)</sup> ومثله كثيرٌ في لغة العرب، وفيه ردٌّ على من ينكرُ وجودَ المجاز في كلام الصحابة والتابعين.

(1) المسد: 4.

(2) المختصر النصيح 729.

(3) الكهف: 24.

(4) أدب الدين والدنيا للماوردي ص 258.

إذ هو تأويلٌ قديمٌ وإن ظنَّ بعضهم أنه لم يرد في صدر الإسلام، فالبخاريُّ مثلاً من القرون المفضلة، وكتابهُ أصحُّ الكتب بعد كتاب الله، يفسر قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (1) فيقول: «إلا ملكه» (2) هرباً من التجسيم، لأنَّ اللفظ في حقيقته ينصرف إلى العضو المعروف، وإن اختلفت كلفياته. والإمام أحمد بن حنبل يفسر قوله تعالى: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ (3) بقوله: «المراد قدرته وأمره» (4)، وذلك استثناساً منه بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ (5) فهل عطل مجاهد، وعكرمة، والإمام أحمد، والبخاري تلك الآيات بهذا التفسير المجازي؟

ويسير قول السلف: «أمرؤها كما جاءت» بما فيه من إغماض، وقولهم بلا كيف بما فيه من تجاهلٍ للمعنى الأول، يسيران في هذا المسار أيضاً، فهما تعبيران عن تجاوز معنى اللفظ المركزي المعروف إلى معنى آخر ليس له كيف أصلاً، وهذا هو الصواب، لأنَّه صرفٌ جليٌّ عن المعنى القريب المعروف إلى معنى أبعد، وليس كما يقول بعضهم له كيف ولكن لا نعلمه، لأنَّ الكيفية تعني وجود كَمٍّ، وشكلٍ، ومقدارٍ، وذلك من لوازم الأجسام، ولم يقل به السلف.

فهل اتضح الآن أنَّ المتدع هو منكرُ المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم وليس من يثبته؟ فهو موجود في العصر الجاهلي والإسلامي بفحواه، ومذكور في القرون الثلاثة المفضلة بمصطلحه قبل أن يظهر الإنكار (6)، وقد عاد الإمام ابن تيمية للاعتراف به بعد إنكاره، فأوَّل الكلام في مواضع من تفسيره، وقد ضرب الدكتور عبد العظيم

(1) القصص: 88.

(2) المختصر النصيح 700.

(3) البقرة: 210.

(4) دفع الشبه للقاضي أبي يعلى ص 45.

(5) النحل: 33.

(6) انظر مواضع مختلفة من كتاب المجاز في اللغة والقرآن لعبد العظيم إبراهيم المطعني، وبحث المجاز في العربية: حقيقة مقبولة أو دعوى مرفوضة، مجلة مجمع اللغة العربية العدد 15 ص 113.

المطعني أمثلة كثيرة على ذلك في كتابه القيم عن المجاز<sup>(1)</sup>، بل إنَّ الإمام ابن تيمية وصف الاستعارة بالحسن في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾<sup>(2)</sup> وأجراها إجراء المعترف بالمجاز<sup>(3)</sup>، أما تلميذه ابن القيم فقال: «إذا قلت: لك عندي يد، الله يجازيك بها، تبادر من هذا النعمة والإحسان، ولما كان أصله الإعطاء، وهو باليد عبّر عنه بها لأنها آله»<sup>(4)</sup> ومع ذلك ينكر المجاز بقوة.

وضرب ابن عبد البر الأندلسي - المحسوب على المتحفظين على وجود المجاز في القرآن الكريم - صرّب أمثلة للمجاز تنتمي إلى العصر الجاهلي والإسلامي. ومن ذلك ما نقله من قول الحارثي:

يريدُ الرُمحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ      وَيَرِغِبُ عَن دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ<sup>(5)</sup>

فهل للرمح إرادة ورغبة أو هو تحويل للفظ من معناه الأصلي إلى معنى جديد هو المعنى المجازي؟ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾<sup>(6)</sup> فهل للذلل جناح أو هو من المجاز؟ وهل أصدق من الله قبيلا؟! ودع عنك الفذلكات التي تُحاول أن تُخرج هذا المثال ونظائره من المجاز، مخالفة لمنطق كل اللغات واللهجات العالمية.

ولئن تأخر مصطلح المجاز، كما تأخرت المصطلحات النحوية والصرفية والفقهيّة وغيرها، فإنَّ جوهره قديمٌ قدّم الكلام العربي، بل هو موجودٌ حتى في لهجاتنا العامية فضلا عن اللغات العالمية.

(1) مصدر سابق وصفحات متعددة.

(2) البقرة: 187.

(3) زاد المعاد 3 / 174.

(4) الصواعق: 297 ولديه اعتراف آخر بالمجاز في بدائع الفوائد 2، 3، 4.

(5) تفسير القرطبي 11 / 26 والتمهيد 5 / 13.

(6) الإسراء: 24.

ومع ذلك فقد ظهر مصطلح المجاز في القرن الثاني الهجري أي قبل إنكار المنكرين الذي عُرف لأول مرة في آخر القرن الثالث الهجري على يد داود الظاهري<sup>(1)</sup> ومن الطبيعي أن يظهر الإنكار بعد الإثبات، وقد ضُربت له أمثلة كثيرة تُنظر في مواضعها<sup>(2)</sup>، وبذلك يكون الإنكار هو البدعة والإثبات هو السنة. إذ كيف يكون المجاز بدعة وهو المتقدم؟! والإنكار سنة وهو المتأخر؟! وما زلنا نسمع حتى الآن قول بعضهم «والصواب: أن لا مجاز في اللغة ولا في القرآن»<sup>(3)</sup>.

(18)

### آثار أخرى للاختلاف

والأدهى من هذا الادعاء الباطل هو آثاره السيئة في تقسيم الأمة إلى ناجين ومبتدعة، وما نجم عن ذلك من صراع ونزاع، حتى أصبح المبتدعُ سنياً والسنيُّ مبتدعاً؛ وتبادل الخصمان التقرُّع والتجهيل، ووصل الأمر إلى المساس برموز العلماء الأكثر عنايةً بالسنة المطهرة والعلوم الإسلامية، كابن حجر العسقلاني، والنووي، والبيهقي، والمنذري، والباقلاني، والجويني، والغزالي، والفخر الرازي، والقاضي عياض، والسيوطي، والعز بن عبد السلام، والتقي السبكي، وابن عساكر، وغيرهم وهم أمةٌ في العدد والعلم والورع والآثار. وحين يعارضهم منكر المجاز مع علو قدرهم، على قلة عددهم، فإنما يعارضون أمةً كاملةً من العلماء من مختلف المذاهب، وتراثاً خالداً في شتى العلوم والآداب، ويعارضون منطق اللغات واللهجات، وليس لهم عذر سوى هاجس الخوف من دخول الكذب والباطل

(1) داود الظاهري: هو الفقيه داود بن علي الأصبهاني الكوفي الظاهري (200 - 270 هـ) وهو رأس الظاهرية التي لا تقول بالتأويل ولا القياس ولا بالرأي. (انظر الأعلام للزركلي ومصادره).

(2) انظر بحث المجاز في العربية: حقيقة مقبولة أو دعوى مرفوضة، مجلة مجمع اللغة العربية العدد 15 مواضع متعددة.

(3) عبارة وردت في أحد المواقع الإلكترونية على لسان الشيخ محمد صالح ابن العثيمين، وقد سبقه إلى معناها غيره (شاهد يوتيوب أبي عبد الملك 6 / 12 / 2018)، ولها نظائر في ما كتبه الشيخ الأمين الشنقيطي في إنكار المجاز.

إلى الكتاب والسنة، وهو ما يدلُّ على خُشوعِ محمودٍ في نفوسهم، وحبِّ سامٍ لكتاب الله وسنة رسوله، ولكنه لا يستندُ إلى واقعٍ وحججٍ قويةٍ ومنطقٍ سليمٍ، فالمجاز وعاءٌ للكلام لا يدخُلُهُ الكذبُ والباطلُ إلا إذا كان المتحدثُ كاذباً، وحاشا الله أن تُنسَبَ إليه هذه الصفةُ، أو أن يقبلها له أحدُ المسلمين.

## (19)

### عقيدة الفريقين

وعليه يمكنُ القولُ بأنَّ عقيدةَ الفريقين سليمةٌ، يغلبُ عليها التنافسُ في تنزيه الله، وقد أعجبتني في هذا السياق محاضرةُ ألقاها الشيخ المغربي د. سعيد الكملي، مع اختلافٍ في معناه في بعض ما جاء من كلامه. فهو من غيرِ القائلين بالمجاز في تفسير نزول الله وغيره من الألفاظ المشبهة، ولكننا نقدِّره لأنه يصدرُ عن إدراكٍ ومعرفةٍ بصحة عقيدة الفريقين وسلامة نياتهم.

وتتناولُ محاضرتهُ بيانَ اختلافِ علماء الإسلام في المراد مما يُشكِّلُ على النَّاسِ مِنْ هذه الألفاظ المشبهة والمنسوبة إلى الله تعالى، مع التركيز على نزوله تعالى في آخر الليل، حيث قال ما معناه: إنَّ العلماء اختلفوا في الظاهر من هذا النزول إلى ظاهرين، ظاهرٍ يُفهم منه التشبُّهُ بنزولِ المخلوقاتِ من تَرَكِ الحَيِّزِ الذي كانت فيه وملئها للفراغ الذي حلَّت فيه، وقال: وهذا مرفوضٌ دون ريب، ولا يقول به أحدٌ من الفريقين، فهو ينصفُ الفريقين كما ترى. أما رأيهُ في الظاهرين فقد تمَّ الردُّ عليه سابقاً.

## (20)

### عقيدة التفويض

أمَّا وقد عرفنا الرأيين السابقين فثمة رأيٌ ثالثٌ عمادُهُ الإيمانُ بهذه الألفاظ والتوقُّفُ عن الخوض في تفسيرها، وذلك لِعجزِ عقلي الإنسانِ عن إدراكِ معانيها، فالقائلون

بهذا الرأي أتهموا عقلَ الإنسانِ بالقُصورِ عن فهم مدلولاتها فتوقفوا وانزعجوا ممن يسأل عنها، وقد ورد في كلام الرازي، والآمدي، والغزالي، والسيوطي، وابن الجوزي، وغيرهم نسبتهم مذهبَ التَّفويضِ إلى السَّلَفِ، ولهم على ذلك أدلةٌ مذكورةٌ في مظانها.

(21)

### ثمرةُ الأمثالِ

لقد عَلِمَ عقلاءُ الأمةِ وعلمائُها أنَّ الأوَّلَى صرفُ الأمثالِ والألفاظِ المشبَّهةِ إلى ثمرتها ومعانيها التي وردتْ مِنْ أَجلِها، فثمرةُ نزولِ اللهِ كُلِّ ليلةٍ هي تهيئةُ النَّفسِ للعبادةِ، واستحضارُ وجودِ الخالقِ سبحانه، وثمرَةٌ ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾<sup>(1)</sup> هي استحضارُ رضاءِ اللهِ وموافقتهِ لهم، وثمرَةٌ ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾<sup>(2)</sup> هي الإيمانُ برعايةِ اللهِ لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلا إشكالَ بينِ المختلفينِ من علماءِ المسلمين يُوجبُ الاستنكارَ والتنازعَ، وكلهم مجتهدٌ، وليس ثمةُ مبتدعةٍ ولا معطلةٍ ولا مجسمةٍ إلا في خطابنا الجدليِّ المُعانِدِ.

والمفوضون لم يتوقفوا عند تفسيرِ هذه الألفاظِ لعجزِ عقولهم عنها فقط، بل لأنهم لم يَجِدُوا عملاً يبنِي على العِلمِ بها، فهي ليستْ من التكاليفِ الواجبةِ، ولا هي من العقائدِ الرَّاسخةِ، وتركها تحييدٌ للخلافِ وتَجَنُّبٌ للنزاعِ في غيرِ مأمورٍ به ولا مأجورٍ عليه.

(22)

### مرحلةٌ يَجِبُ أن تُطَوَّى

لقد كان هذا الخلافُ اللفظيُّ في مرحلةٍ أوليةٍ مِنْ حَيَاةِ الفِرَقِ الإسلاميةِ يَجِبُ أن تُطَوَّى، وما كان يجوزُ أن يستمرَّ معنا حتى في عصرنا الحاضر، فنفرَّقَ مِنْ أَجلِهِ الأُمَّةَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾<sup>(3)</sup>. إننا نقولُ ذلك لتعودَ للأُمَّةِ

(1) الفتح: 10.

(2) الطور: 48.

(3) الأنفال: 46.

وحدثها، واتفق على أنّ الإيمان هو اليقينُ باللهِ وملائكته وكتبه ورسله والقدرِ خيرِه وشرِّه. ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۗ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۗ ﴾ (1).

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



(1) البينة: 4 - 5.

## المصادر والمراجع:

- 1 - أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، نشر دار المعرفة بيروت.
- 2 - الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف لعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي.
- 3 - تفسير ابن كثير طبعة دار الأندلس 1984.
- 4 - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لعبد البر يوسف بن عبد الله النمري، طبعة وزارة الأوقاف بالمغرب.
- 5 - التوليد الدلالي في ألفاظ أعضاء الحواس: دراسة بين الدلالة المركزية والدلالة الهامشية لمجدي حسين أحمد ومحمد حسين فقيه.
- 6 - الذخيرة، لشهاب الدين أحمد القرافي، تحقيق محمد حجي، وسعيد عراب، ومحمد أبو خبزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- 7 - الصّاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1327هـ-1956م.
- 8 - الطراز، للعلوي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- 9 - قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث لمحمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية.
- 10 - كتاب الصناعتين للعسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية 1406هـ.

- 11 - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله الزمخشري، المكتبة التجارية الكبرى: القاهرة، 1354هـ.
- 12 - المثل السائر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة الحلبي، القاهرة 1939م.
- 13 - معجم البلاغة د. بدوي طبانة، منشورات جامعة طرابلس، كلية التربية ط 1 سنة 1975م.
- 14 - المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- 15 - مجلة القانون والسياسة، العدد 23 السنة 16.
- 16 - مجلة مجمع اللغة العربية العددان 15 و16 ص 113
- 17 - نظرية الوضع اللغوي ومشكلة الاجتهاد الفقهي - الدكتور تاج الدين المصطفى، موقع الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب.

\*\*\*

## الشعر العربي والشعر الأوربي

La poesía árabe y la poesía europea , por Ramon Pidal

بقلم د. رامون مينيندث بيدال

تقديم وترجمة أ. د. عبد الله الزيات

(عضوالمجمع)

### التقديم:

رامون مينيندث بيدال (1869-1968) Ramon Menendez Pidal مستشرق لغوي إسباني ولد في مدينة لا كرونيا La Coruña في الشمال الغربي من إسبانيا عام 1868م. وتخرج في كلية الفلسفة والآداب في جامعة مدريد، وأسهم إسهاما كبيرا في المحاضرات بهذه الجامعة، كما أنتج العديد من الأعمال اللغوية والتاريخية؛ خصوصا في اللغة والأدب الإسبانيين وأصولهما، صار عضوا في المجمع اللغوي الإسباني، ثم رئيسا له منذ عام 1925، وعضوا في مجمع التاريخ الملكي، وأشرف على موسوعة تاريخ إسبانيا التي صدرت في ثلاثين جزءا، واهتم بالميدان اللغوي والأدبي وخصوصا استقراؤه لغات شبه جزيرة إيبيريا ولهجاتها، وكانت له أعمال كثيرة تركزت على القرون الوسطى خصوصا في تاريخ إسبانيا، بل إيبيريا، ولنشاطه العلمي عرف في كثير من الجامعات فكان أستاذا زائرا فيها، أو منحته هذه الجامعات الدكتوراه الفخرية مثل جامعات، السربون، وأكسفورد، وزيورخ، وبروكسل، وبالرمو، وتولوس، وهافانا، وكان يتابع ويشرف حتى وفاته على صدور الموسوعة العظمى للعالم Gran Inciclopedia del Mundo التي صدرت في واحد وعشرين مجلدا، ومن أهم كتبه وأبحاثه:

- 1 - ترجمة مذكرات الأمير عبد الله بن زيدي.
- 2 - مدرسة المترجمين في طليطلة.
- 3 - إسبانيا بين النصرانية والإسلام.
- 4 - إسبانيا وأثرها في إدخال العلوم العربية إلى أوروبا.
- 5 - أغنية السيد، 1908<sup>(1)</sup>.
- 6 - الشعر العربي والشعر الأوربي، مدريد 1941، وهو هذه الدراسة المترجمة .

وقد ترجم هذا البحث بل الكتاب إلى اللغتين الإيطالية والروسية وغيرهما من اللغات الأوربية، ولا أعلم أنه قد ترجم إلى العربية، كما اعتمد العديد من الباحثين في الأدب المقارن على كتاب الدكتور رامون هذا، ومن بين أولئك الباحثون الفرنسيون الذين ينقل عنهم د. محمد غنيمي هلال في كتابه الأدب المقارن، ومحمد غنيمي هلال نفسه في هذا الكتاب<sup>(2)</sup>، وكذلك المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في محاضراته التي ألقاها بالمعهد الفرنسي بمدريد في 15 مارس 1948 بعنوان «الشعر العربي في إسبانيا وشعر أوروبا في العصر الوسيط» ثم نشرت في كتاب<sup>(3)</sup>، ومن الإسبان المعاصرين الذين أفادوا من كتاب الدكتور رامون الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا ماتا في كتابها تاريخ الأدب الأندلسي<sup>(4)</sup>، وفي بحثها بعنوان «مقاربة جديدة إلى الدراسة الأدبية للخرجات الأندلسية»<sup>(5)</sup>، وكذلك

(1) انظر ترجمة حياة بيدال وأعماله في 9,3461 *Gran diccionario enciclopédico durvan* وانظر أيضا المستشرقون للعقيقي 2 / 193 .

(2) انظر ص 279 من هذا الكتاب ط3 دار العودة بيروت 1987 .

(3) هو كتاب «الإسلام في المغرب والأندلس» ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ومراجعة د. لطفي عبد البديع، منشورات شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990. ص 279-303.

(4) *Literatura hispanoárabe*, María Jesus Rubiera Mata , Mapfre , Madrid 1992 .

(5) «Nueva aproximación al studio literario de las jarchas andalusies» شرق الأندلس جامعة Alicante القونت إسبانيا العدد 5 1988.

الدكتورة تيريسا غارولو في كتابها الأدب الأندلسي في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر المسيحي<sup>(1)</sup>، والدكتورة ثيليا دلمورال مولينا في بحث لها عن أثر الأدب العربي القديم في الآداب الأوربية وطرق انتقاله إليها<sup>(2)</sup>.

و رامون مينيندث بيدال رغم كونه «بحق من أكبر علماء الإسبان باللغويات مع مشاركة في التاريخ»<sup>(3)</sup> فإنه قد خلط بين الموشح والزجل أو اعتبرهما شيئا واحدا، وإن ذكر أن ذلك محاولة للتبسيط والتسهيل<sup>(4)</sup>، وقد ردد هذا الخلط غيره من الباحثين الإسبان، ولعل ذلك جاءهم من رامون هذا، كما لم يغيب هذا الخلط عن مستشرقين آخرين .

### الترجمة:

لقد تنوسيت زيادة الشعر الغنائي الإسباني، لقد تُحدث عنها كشيء ضبابي غير واضح جدا، دون اهتمام أكبر من الاهتمام الذي كانوا يولونه إلى العلماء المدروسين، ولكننا الآن نذهب لكشف ذلك مفتاحا للمشاكل الأصلية في بعض الأنواع الغنائية الأوربية، وكنقطة للانطلاق من فكرة الحب الروحي الذي سيطر في الغرب، مضادا لمفهوم الحب الحسي الذي كان مسيطرا في القديم.

### الأغنية الشعبية الأندلسية:

أشير إلى النظرية التي تردُّ جزءا من الغنائية الرومانية إلى أصل عربي أندلسي، وهو الموضوع الذي سنتناوله، إذا بحثنا عن هذه النظرية كشيء معدود منوي في نفوسنا، يمكن أن نفكر أن هذا الشعر الشعبي العربي الأندلسي كان مغنى في لحن يصحبه رقص، وهو ما ينسب إليه قدرة فائقة ليست متأتية من كونه في ذاته، وإنما لمظهر

(1) La literatura árabe de Al-Andalus Durante el siglo XI Hiperión Madrid 1998.

(2) Huellas de la literatura árabe clasica en las literatures europeas vías de transmision 2010 طرابلس 19 العدد

(3) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس مجلد الثاني العصر الحديث للنشر والتوزيع، 2/ 48 ص [المترجم].

(4) انظر ص 11 من هذه الترجمة [المترجم].

ذي أوجه عديدة، كما تعرضه علينا الرغبة الموسيقية الشعرية اللحنية لأندلثيا<sup>(1)</sup>، فراقصات أندلثيا اليوم ينقرن صنوجهن ويغنين في الهواء الطلق شعبية الطقطقات الإشبيلية والمالقية والرندية الأبوية، ولا أدري ما هو أكثر من ذلك. وتبدو لنا تلك الطقطقات إرثا عرفيا ثقافيا لأولئك الفتيات الواديشيات<sup>(2)</sup>، اللائي - طبقا لما يصفهن به خوبينال في الرقصة - يهززن ظهورهن في شبق عازفات لصنوجهن البرونزية وقد انتشرت طريقتهن حتى وصلت روما التي عرفت تيتو<sup>(3)</sup> ومن قبله تراخانو<sup>(4)</sup>، وكان إعجاب أهل روما بها إلى درجة أن الشباب الروماني لم يمل من إعادتها، وهذا ارتباط رائع بين الأمس واليوم (بين ماض وحاضر) منفصلين بعشرين قرنا، نعم إنه صحيح ولكن الحلقات المتوسطة أخذت في الظهور إذا اعتبرنا الأغنية الأندلسية في القرن الثامن عشر وفي السابع عشر وفي القرون السابقة لذلك أقل توثيقا حتى القرنين العاشر والحادي عشر، اللذين يهماننا بشكل خاص، إذا أشرنا إلى هذا العصر الأكثر بعدا، ونحن نعلم الشهرة الكبيرة التي بلغتها مدارس مغنيات قرطبيات<sup>(5)</sup> ونملك شواهد عديدة من التقدير والتمثين لتلك المدارس التي كانت فيها المغنيات الأندلسيات معروفات خارج وطنهن في قلعة الكوندي سانتشو غرسية Sancho García<sup>(6)</sup> وفي أوروبا السابقة مباشرة لانبعث شعر التروبادور، وحتى لو تذكرنا غزو الأغنية الأندلسية في القرن السابع عشر الذي ذكرناه قبل قليل، فإننا

(1) أندلثيا المقصود بها الإقليم الجنوبي من أقاليم المملكة الإسبانية المتحدة، وهي تضم تقريبا أهم المدن والقرى التي استقرت فيها الحضارة العربية الإسلامية فترة أطول [المترجم].

(2) نسبة إلى وادي آش مدينة معروفة في جنوب الأندلس قرب غرناطة تدعى Guadix [المترجم].

(3) رسام إيطالي عاش بين 1859 و1941 م .

(4) امبراطور روماني ولد في إسبانيا وعاش بين 53 و117 م .

(5) H.Peres : La poesie andaluse en arabe clasique ,Paris 1937. P.383 .

(6) هو كوندي من الدرجة الأولى في أشبيلية تدخل في حروب الفتنة القرطبية إلى جانب سليمان المستعين (سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر) وأعاد إليه هذا ثمننا لمساعدته ضد الطرف الأموي الآخرياتي قلعة كان قد خسرها والده، توفي عام 1017 م انظر 12 / 4656 Gran diccionario enciclopédico. [المترجم].

نشعر بهاجس شك أن المتتابعة الصغيرة والمربعة هما شكلان [عروضيان موسيقيان  
[متواضعان جدا أكثر مما هما عليه اليوم في توظيف الراقصات الأندلثيات، لقد كانا  
الشكلين الرائدتين المستعملين آن ذاك في أزمنة أصول رومانية:

كم تبدو جميلا يا نهر إشبيلية سفنك البيضاء وأغصانك الخضراء  
ما أجملك يا نهر إشبيلية بسفنك البيضاء وأغصانك الخضراء  
فقد كانت هذه الأبيات تغنى في زمن الشاعر لوبي دي بيغا<sup>(1)</sup> Lope de Vega أثناء  
الحفلات التي كانت تملأ نهر الوادي الكبير في سفن راسية متصلة ومزدحمة، وفي الشكل  
العروضي نفسه الذي نجده في النماذج الأدبية اليوم بعد قرون، دون تغيير حتى في الإيقاع:

الإشبيليات في طرحاتهن

يحملن مكتوبا يقول

تحيا إشبيلية

ولكن هذا سيبدو غير مقنع، ولا يمكن الدفاع عنه، إلا إذا اخترنا تاريخ المتتابعة  
الصغيرة [اللازمة] والرباعية، فيزول الانطباع الطبيعي الأول، وقد وضح أن انتشار  
هذه الأشكال لا يرجع إلى أكثر من القرن السادس عشر، وقبل هذا التاريخ فإن الغنائية  
الأندلسية الوسيطة، وكذلك الغنائية الإسبانية بشكل عام كانت تتبنى أشكالا عروضية  
أخرى، ومن بينها ما يهمننا الآن بشكل خاص، وهو الذي نسميه زجلا، كما يسميه الكتاب  
العرب، لأجل التنبيه إلى أن المسلمين الأندلسيين استعملوا ذلك أيضا، وقبل المسيحيين  
بوقت كبير، يبرز ذلك في أشعارهم كالشاعر القرطبي المدعو بابن قزمان الذي قال شعره في  
نهايات القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر.

(1) هو فيليكس لوبي دي بيغا كاريو (1562-1635) كاتب إسباني ولد في مدريد له أعمال أدبية كثيرة في الشعر  
المسرحي والرواية وغير ذلك، انظر 5271 / Gran diccionario enciclopédico durvan 14 [المترجم].

## النظرية العربية الأندلسية ومروجوها:

تتكون قطعة الزجل من ثلاثة أبيات وحيدة القافية، وهو شكل موظف ليس في الشعر الإسباني الوسيط فقط، وإنما أيضا في الشعر البروفنصالي القديم، والنظرية العربية الأندلسية التي يدعمها خوليان ريبيرا، والتي أبرزها حديثا أ. ر. نيكل A.R. Nykl<sup>(1)</sup> يعتقد أصحابها أن هذا الشكل المقطعي، وكذلك كما هو الحال في بعض عناصر الحب الأيديولوجية المعبر عنها في الزجل العربي الأندلسي، قد أثرا في بدايات الشعر البروفنصالي، وخاصة في شاعر التروبادور الأول المعروف؛ غيرمو التاسع Guellermo IX كوندي دي بويترس Conde de Poitiers ودوق أكيثانيا Lapo de Aquitania<sup>(2)</sup> وبالعكس فإن آخرين مثل رودريغيس لابا Rodrigues<sup>(3)</sup> ينفون نفيًا قاطعا هذا التأثير؛ حيث إن رودريغس هذا عمل على بيان أن التركيب العروضي للزجل كان معروفا في أوربا قبل الشاعر القرطبي ابن قزمان بوقت طويل، وقد أورد لابا هذا بعد تحديد مقاطع عديدة من ثلاثة أبيات وحيدة القافية مستعملة في الشعر اللاتيني في القرن العاشر.

بعد ذلك اتفق المختصان الأكبران في الشعر البروفنصالي؛ الألماني أبل Appel، والفرنسي خيانروي Jeanroy<sup>(4)</sup> على أن الأثر العربي ترجح احتمالاه، ولكن لا يعتقد

(1) J. Ribera : Disertaciones y opúsculos .11928 y La música de las cantigas , 1922,p.71,etc, A.R. Nykl en Al-Andalus,1,1933,pag. 385, etc. en el Cancionero de Aben Guzman, 1933, Introducción , y en la traducción del Tauq al-hamamah, The Doves Neck-ring, Paris ,1931,Introducción.

(2) أكيثانيا إقليم في جنوب فرنسا صار جزءا منها فيما بعد انظر 2 Durvan Diccionario Enciclopédico [ المترجم ] 426 .

(3) Das Origen da poesía lírica em Portugal ,1929.

(4) C. Appel , en Zeitschrft fur romanische Philologie LII, 1932,pag, 700, y LV, 1935,pag, 736.A.Jeanroy :La poesie lyrique des trouvadors, 1934,1,pag.73-75: 11, paggina 368.

أن ذلك ثابت؟، ويضيف الفرنسي خيانروي معيدا دليل رودريغس لآبا: أن المقاطع البروفنسالية التي يعينونها أو يشيرون إليها مشابهة للمقاطع الزجلية، هي متواضعة أو بدائية جدا يمكن معالقتها دون جهد مع وحيدة القافية الحزينة من الشعر اللاتيني الوسيط، ولكن تدليل رودريغس لآبا ليس ذا فعالية، لأنه لا يكفي تحديد أو اقتباس أبيات لاتينية حزينة تنتمي إلى القرن العاشر والحادي عشر، لأن الزجل ليس أي شعر حزين، وإنما هو شعر حزين خاص لا يوجد مثل له في الشعر اللاتيني في هذين القرنين.

### تعريف الزجل:

الزجل شعر حزين وحيد القافية مع قفل (وهذا هو الشكل البسيط أو البدائي) مع عجز من بيت بقافية ماثلة كقافية المركز أو القفل؛ قافية تعاد في البيت الرابع أو في العجز في كل المقاطع في الزجلية نفسها.

يفيدنا في بيان ذلك القصيدة رقم 51 من شاعر قرية بيّانة<sup>(1)</sup> المخصصة إلى الفونسو الباريث دي بيّا سندينو Alfonso Alvarez de Villasandino التي نظمها بين القرنين، الرابع عشر والخامس عشر<sup>(2)</sup>:

أعيش مُورطاً دوماً بعقلي

أجل، هذا صحيح يا صديقي.

(1) بيانة قرية أندلسية كبيرة قريبة من قرطبة أثنى الحميري على غنائها الطبيعي وعمارتها وقال بأنها كانت قبل الفتنة من غرر البلدان وذكر من علمائها قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف الذي سمع عن علماء كثيرين في قرطبة ومكة والعراق (انظر الروض المعطار ص 119). كان قد استولى عليها فرناندو الثالث عام 1329 م و تحمل اليوم اسم بائنا Baena وتحتوي على 16599 نسمة انظر Diccionario Enciclopédico Durvan [ المترجم ] 2,660.

(2) لقد ساق الكاتب أمثلة من أشعار ظهر فيها البيتان الأولان بقافية، ثم ثلاثة أبيات بقافية أخرى واحدة في الثلاثة، ثم بيتان بالقافية نفسها التي في البيتين الأولين ثم ثلاثة بقافية أخرى جديدة، ثم بيتان بالقافية التي في البيتين الأولين نرزمز إليها جميعا بالتالي:

أ - ب - ب - ب، أ - أ، ج - ج - ج، أ - أ وهذا ما لم يتضح في ترجمة الأبيات لصعوبة ذلك على المترجم

فلا تستنكر الأحداث مني  
أعيش مورطا دون اجتياز  
بلى في الورطة تم احتيازي  
فصرتُ متيما بالعالمينا  
ومن نجواه في سعة المجازِ  
ومن حاز الجمال بكل وجهِ  
فصار فينوس البلادِ  
أعيش مورطا  
أعيش مورطا أبدا أعيشُ  
لأنني قد بلغت الحب قمه  
وأجوأن يفيد الحب حبي  
وأن أعطى جوائز مجزيات  
أعيش مورطا دوما بعقلي... إلخ.

وتتوالى خمس مقطعيات مثل السابقتين؛ يعني تأليف من ثلاثة عناصر:

- 1 - الوحيد القافية الحزين أو بيت أو دور مع قافية متعددة في كل مقطع.
- 2 - بيت القفل أو الخرجة وحيد الصوت (1) أو يكون بقافية موحدة في كل المقاطع لأن به قافية المطع مثل لفت انتباه، أو مدخل المركز على طرف أو رأس كل مقطع.

(1) لا أسمح لنفسى توسعة معنى صفة وحيد الصوت المطبق على الشعر البروفنساى لإطلاقه على المقاطع التي لها حروف صامتة متساوية.

3 - المركز الذي يكون موضوع القصيدة.

قصيدة أو شكل بيا سندينو يحمل الشكل العروضي نفسه بالضبط والشكل المقطعي نفسه في الزجل رقم 14 لابن قزمان<sup>(1)</sup>:

يا مليح الدنيا قولُ

علاش أنت يا ابني ملولُ

إي أنا عندك وقيحُ

يتمقق منو وفيحُ

ثم فعلها ما تطيحُ

ترقى عن ناسك وصولُ

يا مليح الدنيا قولُ

ثم تتوالى تسعة عشر مقطعا ماثلة لهذا.

وقد أخذنا أبياتا - قشتالية وعربية، ثمانية المقاطع - نموذجاً، مع وجود أزجال أخرى ذات ستة مقاطع أو عشرة أو اثني عشرة، أو أبيات مختلطة؛ طويلة وقصيرة (لا يهم عدد المقاطع).

الزجل ليس مثل البيت عشري المقاطع، الوزن العروضي سونيتو أو ذو الشماني مقاطع هو تأليف أو تركيب ذو قوافي ملحقة، أو مضافة إلى بيت يكون دائماً مكوناً من أحد عشر مقطعا.

البدائي الوحيد هو التأليف المكون من ثلاثة أبيات وحيدة القافية، بقافية متغيرة في كل مقطع، متبوعة ببيت آخر في قافية موحدة في كل المقاطع، لأنه مثل الذي به قفل أو مركز؛ أي

(1) A. R. Nykl, Cancionero de Aben Guzman , Madrid 1933.

أنه تأليف بقواف متعددة مهما كان الحجم المختار أو الموضوعه عليه الأبيات.

هكذا اتحدت الأزجال في شكلها البدائي الأصلي، ولكن هذا الشكل بقي علامة بدائية فقط بعد أن خضع لعدة تعقيدات وحذف، فبقي بيت أو أبيات القفل مع قافية متساوية مماثلة في كل المقاطع، والعودة بمقطع موحد أو صوت موحد أو إيقاع موحد في كل التأليفة أو الزجل<sup>(1)</sup>.

### أعمى قرطبة؛ مقدم:

يفيدنا كاتبان مسلمان كبيران أخبارا عن أصل هذا الشكل المقطعي، واحد منهما هو ابن بسام الشنتريني الذي حرر في إشبيلية - عام 1109 م - ترجمات لأدباء إسبانيين عربا [أندلسيين] والآخر هو ابن خلدون المولود في تونس، عام 1332 م، والمتوفى عام 1406 م، وهو فيلسوف التاريخ الكبير، ومؤرخ الحضارة، وطبقا للكاتبين فإن مخترع الموشحة أو الزجل<sup>(2)</sup> كان شاعرا أندلسيا يدعى مقدم بن معافى القبري الأعمى<sup>(3)</sup>؛ إنه أعمى من قبرة في إقليم قرطبة، وكان يعيش في عهدي الأميرين عبد الله، ثم عبد الرحمن الثالث في نهايات القرن التاسع والربع الأول من العاشر؛ وقال كلا الكاتبين إن المقطع الذي اخترعه مقدم به مركز وهو كلمة عربية معناها سند، أو اعتماد وهو ما تعنيه كلمة استريبيلو *estribello* في الإسبانية التي كانت تستعمل العربية الدارجة مختلطة باللغة الأعجمية، أو الرومانثية التي كان يتحدثها المسيحيون

(1) وبلغت الموشحات العربية بقي الزجل -وقبله الموشح - بشكله الذي يتكون من مطلع وهو بقافية ستتكرر في كل الأجزاء المماثلة، التي تسمى أقفالا، حتى الجزء الأخير الذي يدعى خرجة، وبين كل قفل وآخر الأبيات أو الأدوار التي تكون بقافية متحدة في أجزاء كل دور مختلفة عن قافية الدور الآخر، يرجع إلى أي مصدر أو مرجع في الموشحات [ المترجم ].

(2) واضح هنا أن الكاتب لا يفرق بين الموشحة وبين الزجل، والسائد في فهم حديثي ابن بسام وابن خلدون أن المقصود هو الموشحة [ المترجم ].

(3) لا يذكر ابن بسام أن المخترع هو مقدم ابن معافى بل يذكر محمد بن محمود القبري الضريرا الذخيرة 1، 1 / 469 [ المترجم ].

الخاضعون للحكم الإسلامي، وعلى هذا المركز كان مقدم يبني مقاطع مع نقلات؛  
mudanzas=أغصان وأسماط = vueltas .

الموشح المكون من هذه المقاطع<sup>(1)</sup> دعي أو سمي أيضا زجلا (مغنى مع الرقص) عندما  
كان يستعمل هذه العربية الأندلسية الأكثر شعبية، وفيما بعد استعملنا للتبسيط هذا  
الاسم الثاني فقط.

يخبرنا ابن خلدون أن الزجل جاء بديلا شعبيا عن القصيدة العربية القديمة، مشبها  
القصيدة لأن القصيدة والزجل شكلان يعاد فيهما الغناء أو ثنائيا الغناء، كان الجزء الأول  
فيهما مخصصا للحب والثاني كان في مدح بعض الشخصيات، وقد «وصل الأندلسيون إلى  
أن صاروا مهذبين ومنقحين لهذا النوع الجديد، وكل الناس - سواء أكانوا المخترعين، أم  
الطبقات العامة - وجدوا هذا النوع من الشعر عجبيا ومبهجا، بسبب سهولة فهمه وتعلمه»  
من كلام ابن خلدون<sup>(2)</sup>.

### طريقة غناء الزجل:

هذا الشكل المقطعي خاص بأغنية لا يلقيها شخص واحد منفردا، وإنما تلقيها  
جماعة من الجمهور العام؛ يشرح خوليان ريبيرا Julian Ribera جيدا - تأسيسا  
على إشارات ابن قرمان - كيف يجب أن يغنى أو ينشد هذه الأزجال منفردا يجيبه  
الجمهور دفعة واحدة وينغم الجمهور سمط الغصن بعد كل مقطع، وبعد أن يسمع  
المنفرد منغما بيت القفل.

لقد كان ذلك التصرف مثل لفت انتباه للمجموعة لتدخل؛ فالأغنية تُلقى - طبقا

(1) عاد المؤلف هنا ليوجي لنا أن الفهم الصحيح هو أن ابن بسام وابن خلدون كانا يتحدثان عن الموشح وليس  
الزجل. [المترجم].

(2) هذه ترجمة للترجمة، أما كلام ابن خلدون نضا فهو قوله بعد أن تحدث عن أهل الأندلس واختراع الموشح :  
«وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة؛ الخاصة والكافة، لسهولة تناوله وقرب طريقه» مقدمة ابن  
خلدون ط4 دار القلم بيروت 1981، ص 583- 584 [المترجم].

لإشارات ابن قزمان - مرفقةً بالعود أو الناي أو الزمارة والطنبور والدفوف أو الصنوج، وفي بعض الأحيان مصحوبة بالرقص.

اختيار هذا الشكل الجماعي للزجل وُجد في الأغنية الشعبية الحديثة للأقطار الإسلامية التي ما زالت تحتفظ بأشكال عديدة مشتقة من الأغاني الأندلسية القديمة منتشرة - كما سنرى فيما بعد - في العالم الإسلامي كله.

يمكن أن يفيدنا نموذج الأغنية «يا صحبنا» التي تلقىها السيدة شافية رشدي من تونس<sup>(1)</sup>؛ حيث العازفة تُنغم المركز أو القفل بدايةً ثم الجماعة تعيد ذلك، يتبع ذلك وقت موسيقي دون غناء، وبعد ذلك تُنغم المنفردة مصحوبةً بالموسيقى السمط الأول أو الغصن الأول متبوعاً بالقفل الأول، وقافية هذا القفل متساوية مع قافية المطلع، منبهة إلى دخول الجماعة، وعندها تنغم الجماعة والعازفة المنفردة ذلك المطلع، وتعود الموسيقى لتعزف بدون غناء، وعندها تغني العازفة المنفردة الغصن أو الدور الثاني مع القفل أو السمط الثاني، وتعيد المجموعة المطلع، وهكذا في المقطع الثالث والمقاطع الموالية.

كان اختراع مقدم [ابن معافى] شيئاً ملاحظاً داخل الشعر العربي، بالرغم من استعماله أشكالاً عروضية غير أدبية، ولغة غير صحيحة، مليئة بكلمات أجنبية تستحق أن يُعنى بها المؤرخون للأدب والتحضر الإسلاميين.

### منتجو الزجل في القرنين العاشر والحادي عشر:

لقد رأى مقدم بن معافى اختراعه مقبولاً، ولاحقوه أو الذين جاءوا بعده ذكرهم ابن بسام.

(1) ديسكو غرامافونيكو <راديو فونو « Mlle غافية رشدي و انظر أعلاه ص 9-12 ] لم نترجم هذه الصفحات التي يشير إليها لأنها تصوير لرسم موسيقي، أما شافية رشدي فهي زكية المراكشي مغنية وممثلة تونسية «، ولدت بمدينة صفاقس عام 1910 م من أب مغربي وأم ليبية ذات جذور تركية وتوفيت عام 1989 م، ويكيبيديا - المترجم [.

المعاصر لأعمى قبره، وإن كان أصغر بعشرين عاما، أي ابن عبد ربه القرطبي<sup>(1)</sup> هو الأول الذي وظف هذا الشكل الجديد، بعد هذا يأتي موظف آخر لهذا الشكل وهو من المنتمين إلى قصر المنصور بن أبي عامر، متوفى في عام 1022 م وهو ملقب في العربية بالرمادي وفي الرومانشية أبو ثينيثا أو الثينيثيننتو [الئينيثا Ceniza الرماد Ceniciento الرمادي] وهو رجل متهم بممارسات عديدة تشي بالإلحاد والهرقطة، مثل وضعه علامة الصليب فوق كأس الخمر عندما يشرب، والقيام بمعاملات عديدة مع المسيحيين، خاصة مع شاب ذهب يبحث عنه في الكنيسة، إن الرمادي ممثل جيد لامتزاج الثقافتين، وهو ما سنلاحظه في الزجل، بعد ذلك بقليل يذكر ابن بسام عبادة بن ماء السماء مؤلفا رابعا للأزجال، وابن ماء السماء عاش في بلنسية ومات في مالقة في عام 1028<sup>(2)</sup>.

وبعد ذلك نستطيع أن نذكر من أعجب به أكثر ابنُ قزمان أستاذا كبيرا في الزجل؛ إنه شاعر ينتمي إلى نبلة في مملكة إشبيلية الإسلامية، وهو أخطل بن نمارة، الذي توفي حوالي عام 1080 م، وبعد ذلك وجد كثير ممن لا يعيننا أمرهم.

نذكر فقط الذين سنتناول بعضا من أزجالهم [موشحاتهم]، ومنهم ابن اللبانة الداني المتوفى عام 1113م، وكان شاعر بلاط المعتمد في إشبيلية حوالي عام 1090 م، وأخيرا الفيلسوف السرقسطي ابن باجة، الذي ذكره المدرسيون أو الاتباعيون كثيرا في علوم العصر الوسيط، وهو أيضا منتج أزجال [موشحات] يقول عنها ناقد له أنها تتطلع إلى أغان أكثر فظاظة من الأغاني الريفية، وقد توفي بفاس عام 1139م.

وهاهنا إذن سابقون، ولكن الوحيد الذي يعلمه الناشرون للنظرية العربية الأندلسية هو ابن قزمان إنها مجموعة غير متكررة من معلمي الزجل أو أساتيد الزجل، وهكذا يُرى

(1) أي أصغر من مقدم.

(2) كل الذين ذكرهم في الفقرة السابقة ساقهم ابن بسام على أنهم منتجون للموشحات [المترجم].

كم هو سيء أن نحدد ابن قزمان فقط لمناقشة هذه الأنواع والأصناف والتقاليد. ابن قزمان هو المذكور الوحيد اليوم لأنه الوحيد الذي احتفظ له بديوان أو مختارات كاملة من الزجل، ولكن بعضا من الآخرين يحتفظ لهم بنماذج أعطتنا ضوءا كافيا. ابن قزمان هذا عندما كان لا يزال في ميعة الشباب، كان يظهر موهبته الشعرية في قصر الملك الطائفي المتوكل صاحب بطليوس، الذي دعاه إلى منادماته الأدبية، كما كان قد أهدى إليه أثوابا فاخرة، ولكن المتوكل خُلع، وقتله المرابطون في بدايات عام 1094م، ومنذ ذلك الحين بدأ ابن قزمان حياته شاعرا متنقلا بين إشبيلية وجيان وغرناطة والمرية وبلنسية، وأيضا فاس، راجعا بين وقت وآخر إلى قرطبة، وقضى حياته يقول الشعر حتى وقت متأخر جدا من عمره، فله زجل يمدح به الفيلسوف القرطبي ابن رشد المولود عام 1126م، والذي صار مفكرا كبيرا يتمتع بشهرة واسعة، وفي النهاية نعرف أن ابن قزمان توفي في الثمانين من عمره في العام 1160م.

### الصبغة العربية الرومانثية للزجل:

كما أثبتنا فإن الزجل الذي عمل على طرازه كل المذكورين السابقين هو ثمرة المزج بين الحضارتين العربية والرومانثية، فالزجل عربي بلغته، وإن كانت عامية وغير صحيحة، لاحتوائه قافية مشتركة عبر المقاطع المتعددة لكل زجل، بسبب القضيتين المعالجتين معا في كل زجل؛ وهما الغزل أو العلاقة الغزلية، ومدح شخصية يطلب الشاعر نوالها.

لا يبدو الزجل عربيا لتبنيه تجزئة مقطعية، هي شيء غريب عن النظام وحيد القافية في القصيدة، وباستعمال المطلع، أو استعمال المركز في نهاية كل مقطع في بعض المواضيع المتناولة مثل الفجر، أو افتراق الحبيبين عند انبلاج الصباح مع غياب موضوعات معينة في القصيدة، وهي تقليديا إسلامية؛ مثل السفر عبر الأقاليم الصحراوية، وحياة البدو، والتعرف على المكان الذي تركته القبيلة، ووصف الناقة إلخ، إن الزجل هو بالتأكيد إسباني في النهاية بالإشارة إلى الحفلات والأعياد، ومواسم التقويم اللاتيني، وباستعمال الأصوات

والجمل الرومانية الأندلسية الممتزجة بالعربية، فابن قزمان مثلاً - في الوقت الذي نسي فيه موضوعات أدبية إسلامية مهمة - تبدو به عدوى عادات المستعربين الأندلسيين؛ فقد كان يحتفل بـ [ حلول ] شهر يناير؛ بمعنى أكبر يحتفل بقدوم عام المسيحيين الجديد داخل التقويم الإسلامي الذي هو عام قمري وليس شمسياً، أي ليس له تاريخ محدد ولا معنى له [ هكذا ].

يقول ابن قزمان في الزجل 41<sup>(1)</sup>:

عندما يأتي يناير- أجهز ملابس العيد - أنا دائماً أرتدي شهر يناير

وفي الزجل 137 يذكر شهر مايو<sup>(2)</sup>

أما في رقم 87<sup>(3)</sup> فيذكر المهرجان، والعشب المقدس عند الرومان، الذي يأخذه المسيحيون طقساً عند هبوب صباح القديس خوان، فالأصوات الرومانية الأندلسية: يرددون، مدور، جيد، مصيدة، سيتجاوزون، المزلاج، كل الأمر على ما يرام يا حبيبي، إلى المرأة المحبوبة المغازلة التي تنادي وجنتها الشمسية مهسيا [ مخيا ] دي سول، ومقطع من الزجل رقم 20 [ 10 ] يقول<sup>(4)</sup>:

يا مطرني شلباطُ تو أن حزينُ تو أن بناطُ  
تري اليوم وشطاطُ لم تذق فيه غير لقيمة

وهو ما ترجم في إيقاع وقافية مشابهتين؛ إنه موجه إلى سالبادو معين، وهو اسم إسباني قديم محتفظ به في القطلونية حتى اليوم [ سالباط ] Salbato بدلا من الاسم الحديث

(1) ما ذكره لابن قزمان في الزجل 41 غير موجود به حسب الطبعة التي بين أيدينا من ديوان ابن قزمان [ المترجم ].  
(2) انظر ديوان ابن قزمان نسا ولغة وعروضاً ف كرينتي المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد 1980 ص 864 [ المترجم ].

(3) لا يوجد ما ذكره في الزجل ذي الرقم الذي ذكره [ المترجم ].

(4) ديوان ابن قزمان نسا ولغة وعروضاً ف كرينتي المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد 1980 ص 78 [ المترجم ].

## سالبادور Salvador

Oh mi locuelo Salbado

Tú estás triste, tú penato

Verás el día gastado

Sin probar más que un poquito.

يا مجنني الصغير

إنك حزين، إنك كئيب

سترى اليوم الذي يمضي

دون أن تجرب إلا قليلا

منبهين إلى أن حرف النداء العربي «يا» في بداية الجملة أو الكلام، كان المسيحيون يستعملونه كثيرا في ذلك الوقت، وكان موظفا كثيرا في قصيدة [ملحمة] السيد<sup>(1)</sup>، والشطر الثاني: تو أن حزينو Tú un hazino أنت حزين، تو أن بناتو Tú un penato أنت كئيب؛ كان مسلمو قرطبة يفهمونه كأبي إسباني [أندلسي مستعرب] في ذلك الوقت، جاهل باللغة العربية؛ فالكلمة المؤسبنة hazino حزين، كانت قد دخلت اللغة الرومانثية التي تحتفظ من العربية ببعض الاستعمالات حتى القرن الخامس عشر، وهذا الخلط أو المزج اللغوي يجبرنا عنه ابن بسام أنه كان مبدئيا وأوليا خاصة بأزجال<sup>(2)</sup> الأعمى مقدم [بن معافي القبري].

(1) من الملاحم المهمة في الشعر الإسباني وتعد الأقدم عند الإسبان وهي تصف بطولات السيد القمبيطور وهو مغامر كان قائد مليشيا يجارب مع المسيحيين تارة ومع المسلمين أخرى وهو الذي استولى على بلنسية في عصر المرابطين ومثل بحاكمها وقاضيا ابن الجحاف الذي قاومه ومنعه من دخولها وقد كتب عنها وترجمها الدكتور الطاهر مكي رحمه الله بهذا العنوان «ملحمة السيد».

(2) لم يتحدث ابن بسام عن أزجال لمقدم وإنما تحدث عن موشحات، وقد ذكر الكاتب أنه سيكتفي باستعمال كلمة زجل للتعبير عن الموشح أو الزجل [المترجم].

في الأبيات القليلة المحفوظ بها لابن نُمارة الذي قلنا إنه توفي حوالي عام 1080 م توجد الكلمة الرومانثية (قنديل) قافية.

ويصر أيضا مقعد [للموشحات] حوالي عام 1200 م - سنذكره فيما بعد - <sup>(1)</sup> على مزج العربية العامية باللغة الأعجمية أو الرومانثي، فذلك المزج يكون رائحة الزجل ومسكه وعنبره وملحه وسكره.

وفي النهاية فإن الزجل [الموشح] شعر وُلد ليكون مغنى في وسط شعب متعدد العرقيات وثنائي اللغة، يتحدث عربية لاتينية، بها مزيج من الرومانثية، ولاتينية معربة في وسط أو عبر الشعب الأندلسي، حيث يقترن نضج العالمين الإسلامي والمسيحي، وقد انتشر هذا الشعر بسرعة في كل العالم العربي كما سنرى، ونعتقد أنه أيضا انتشر بالسرعة نفسها في العالم الروماني [اللاتيني] كما سنرى فيما بعد.

### انتشار الزجل في المشرق:

لقد ذاع الزجل الأندلسي حالا في الأقطار الإسلامية؛ فالفيلسوف والشاعر الكبير ابن حزم الذي توفي في عام 1063م؛ أي بعد الأعمى مقدم بقرن ونصف أورد في رسالته <sup>(2)</sup> نص المؤرخ ابن غالب الذي يذكر بين فضائل الأندلسيين كونهم اخترعوا الأزجال التي يجبها

(1) هو ابن سناء الملك انظر دار الطراز في عمل الموشحات تحقيق جودت الركابي ط3 دار الفكر سوريا 1400 هـ 1980 م، ص 43 [المترجم].

(2) لم يورد ابن حزم أي ذكر للموشحات أو الزجل في رسالته في فضل الأندلس ولا في غيرها فيما علمت، ثم إن ما ذكره من نقل ابن حزم عن ابن غالب محال، ذلك أن ابن حزم عاش في القرن الخامس الهجري وابن غالب عاش في القرن السادس الهجري فابن حزم متقدم على ابن غالب فكيف ينقل المتقدم عن المتأخر، وإنما الذي ضلل (في توقعي) المستعرب رامون هو ما ذكره المقرئ من بعض رسالة ابن غالب في أمور أخرى ثم أورد المقرئ قوله «ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكور في رسالة لابن حزم ....» ثم ذكر المقرئ قوله «وعد ابن غالب من فضائلهم [أهل الأندلس] اختراعهم للموشحات التي قد استحسناها أهل المشرق» نفح الطيب للمقرئ تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1988، 3 ص 150-151 فاختلط الأمر على المستعرب، انظر أيضا تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، لحسين مؤنس ط2 مكتبة مدبولي القاهرة 1986 ص 453 [المترجم].

كثيرا أهل المشرق الذين قلدوها أو جعلهم حبهم لها يقلدونها، أي قبل أن تنتشر أعمال علماء الكلام والمتصوفة والأطباء والأدباء الإسبان المسلمون [الأندلسيون]، وفي المشرق كانت الأغنية الشعبية الأندلسية قد انتشرت هناك، وشاعر أندلسي قرطبي مثل ابن بقي (ت 1145م) عندما نُظر إليه بأنه فقير غير محتفل به في الأندلس، فإنه يفتخر أو يزدهي بأنه سيؤخذ بالأحضان في العراق<sup>(1)</sup>، ويفتخر ابن قزمان في نهاية زجل له بأن « زجلي الجميل يغنى في العراق؛ يا لها من روعة! شعر الآخرين ليست له قيمة بجانب أمْلوحتي الشعرية»، بل مرة أخرى يذكر أن حبه سيكون مذكورا في العراق، والنجاح الذي كان يفخر به ابن قزمان في حياته لم ينته بعد قرن، وذلك عندما يقول الغرناطي ابن سعيد (ت 1274م): «لقد سمعت أزجال ابن قزمان مغناة في بغداد أكثر من غنائها في مدن الغرب»<sup>(2)</sup> وفي هذا الاتجاه تنبيه إلى أن ابن قزمان نعرفه اليوم فقط عبر الاهتمام الذي أولته له آسيا؛ حيث إن النسخة الوحيدة التي نملكها من ديوانه منسوخة في المشرق<sup>(3)</sup>؛ حيث لا يعرف من نسخها حرفا واحدا من الكلمات الرومانثية (الأعجمية) التي تتضمنها الأزجال، فيفسدها ذلك الناسخ ويجعلها غير ذات معنى .

أيضا في حوالي عام 1200 م يؤلف المصري ابن سناء الملك كتابا في الشعر والمختارات الشعرية، لاستعمال محبي الزجل أو المغرمين به، وقد أصبح في النهاية هذا الشعر الأندلسي منتشرا اليوم في كل العالم الإسلامي، من المغرب حتى الهند، وإن ذكر أصله الإسباني في بعض المناطق؛ ففي تونس تعرف الأزجال باسم «أغاني غرناطية».

(1) إشارة إلى بيته المشهور (قلائد العقيان لابن خاقان تحقيق محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية 1990 ص 675:

أنا امرؤ إن نبت بي أرض أندلس جئت العراق فقامت لي على قدم

[المترجم]

(2) يقول ابن سعيد في حديثه عن ابن قزمان: «وأزجاله المدونة رأيتها ببغداد أكثر مما رأيتها بجواضر المغرب» المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد تحقيق سيد حنفي حسنين الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1984 ص 263 [المترجم].

(3) استجلبت من حلب [المترجم].

لم نذكر أحدا من شعراء الزجل اللاحقين لابن قزمان؛ لأنهم أكثر جدا، ولا يضيفون شيئا إلى مشكلة بحثنا المتعلق بأصل الأزجال، ولكن يجب أن نستثني هنا الصوفي الشهير الذي يستحق أن ننبه عليه وهو ابن عربي؛ محيي الدين، المولود في مرسية عام 1165 م، فقد استخدم هذا النوع الشعري الشعبي، لأهداف دينية أو صوفية، فوضع كثيرا من أشعاره الدينية في الشكل الزجلي [الموشح] من أجل أن يغنيها المؤمنون [المتصوفة] في مجموعات، وقد لقي الديوان الصوفي لابن عربي نجاحا مستمرا، وإن كان اليوم ينتشر بواسطة دور المطابع الهندية لاستعمال المتصوفة المسلمين.

### هل انتشر الزجل في الغرب؟:

هذا [ ما سبق ] بالنسبة للمشرق، ولكن حدود انتشار الزجل في الغرب كانت في الأندلس نفسه الذي تجاوزه إلى المشرق.

لقد توصلت إلى الخلاصة بأن الزجل انتشر أيضا عبر أوروبا، وأن الصورة الأولى للتقليد التي نستطيع أن نشير إليها بالضبط، هي في أعمال الشاعر الغنائي الأول الذي نعرفه في لغة لاتينية حديثة وهو غيرمو التاسع Guillermo IX دوق أكيثانيا<sup>(1)</sup>، الزجل العربي الأندلسي يتقدم هكذا ميلاد الشعر الغنائي للأمم الأوربية الحديثة! نعم إنني أؤكد أمرا مشكوكا فيه كثيرا، وهو مناقش كثيرا أيضا؛ لأن هذا الشعر يقع خارج نطاق الموضة العلمية الحالية المعمول بها لتحديد مصادر الشعر الوسطوي من الأدب اللاتيني؛ سواء أكانت هذه المصادر معاصرة أو قديمة، ولكنني أثق في أن هذا التأكيد سيبقى معتمدا بعد أن نختبر الأسباب العديدة من الشك أو التعارض أو الرفض، المدفوعة من قبل غير المعتقدين بالنظرية العربية الأندلسية.

(1) شاعر بروفنصالي مشهور يميز بأنه صاحب التروبادور الجيد شارك في الحروب الصليبية في المشرق عام 1101 م، وكان مساعدا لملك أراغون في حربه ضد الأندلسيين، وفي عام 1124 ساعد ملك فرنسا ضد الجرمان انظر Gran diccionario enciclopédico durvan 7 / 2648.

## مقطع زجلي دون مطلع أو خرجة:

يقال بالدرجة الأولى إن الشكل المقطعي الذي استعمله غيرمو التاسع ليس مماثلاً تماماً لشكل الزجل؛ لأن شكل غيرمو ينقصه المطلع أو الخرجة، ولكن زجل غيرمو الذي يحمل الرقم 11 نجده مثلاً [يبدأ بمقطع من أربعة أغصان]:

عندي أمل في أن أغني

ستكون أغنية الألم

أبدا لن أكون حبيبا

لا في البويتو، ولا في الليمسين

ثم يتبعه بتسع مقاطع هي بالضبط زجلية، مؤلفة من قواف وحيدة حزينة، وبخاصة بيت الدور الصائت في التسع مرات بـ الحرف I ولكن دون خرجة.

وهذا الشكل نفسه يكتبه شعراء بروفنساليون آخرون، أسبق من غيرمو؛ أي مقاطع عديدة بقافية واحدة، ولكن بمطلع وبدون خرجة مثل روديل Rudel وماركابرو<sup>(1)</sup> Marcabré وبيري بيدال<sup>(2)</sup> Peire Vidal وثيركامون Cercamón<sup>(3)</sup> وبيري كاردينال Peire Cardenal وهذا النقص في الخرجة أو المطلع جعل خيانروي Jeanroy يشك في وجود علاقة بين النظام العربي والنظام البروفنسالي.

(1) شاعر بروفنسالي جوال عاش في القرن الثاني عشر حيث له أخبار بين العامين 1129 و 1150 م وعلى خلاف أغلب شعراء التروبادور ترك موضوع الغزل ليتبنى نغماً زهدياً أخلاقياً في شعره، ويمكن أن يقارن في نشاطه وأسلوبه بكيبيدو Quivedo انظر 9/ 3369 Gran diccionario enciclopédico durvan.

(2) شاعر بروفنسالي جوال ولد في تولوس وتمتع برعاية ملك أراغون الفونسو الثاني وملك قشتالة الفونسو الثامن وكوندي مرسيليا، طبعت أشعاره عام 1857م، انظر 14 / 5322 Gran diccionario enciclopédico durvan.

(3) شاعر بروفنسالي جوال عاش في القرن الثاني عشر كتب عدة أشعار غزلية ومدىحا لغيرمو العاشر سيد أكيثانيا انظر 4 / 1225 Gran diccionario enciclopédico durvan.

ولكن وفي كلمة أولى يجب أن نعيد أن بدائية المقطع الزجلي ليس المطلع؛ لأن أشكالا أخرى كثيرة في آداب عديدة بها هذا المطلع إلا ذلك البيت الرابع أو الشطر الرابع، مع الدور وقافية ماثلة في كل المقاطع في الزجل، دور مختلف الشكل عن أغاني غيرمو التاسع، أو هو دور ذو صبغة مختلفة عما هو في أغاني غيرمو التاسع وغيره من شعراء الجيل الأول من التروبادور الذين ذكرناهم قبل قليل، وأكثر من هذا فإن خيانروي Jeanroy نفسه يعترف أن هذا الشعر ذي القافية الماثلة الموظفة في الشطر الأخير من كل واحد من المقاطع في الأغنية، يبدو -دون شك - بقية من مركز صغير قديم؛ إنه افتراض ذكي جدا، ولكنه اليوم فقط بالنظر إلى القدم الطويل في المقطع الزجلي في الأندلس، والتجذر عبر القرون بأشكال متساوية.

لا نستطيع أن نقول الآن إن هذه القافية المتكررة في كل الآداب الرومانية هي بقية من خرجة، بينما هو بيت من مطلع أو غصن، أو دور ينتظر خرجة، وإذن فكيف لا يتعلق هذا المقطع من التروبادور - مكونا للبيت وحيد الحركة من المطلع أو القفل أو الدور - مع المقطع المستعمل كثيرا في كل الآداب الرومانية، المكونة من دور مع خرجة؛ أي مماثل أو مطابق للمقطع الزجلي العربي، لم يعلم الشعراء التروبادور بهذا الحدث الكبير. استفادت الأغنية الشعبية في بروفنسيا والأقطار الأخرى، من المقطع الزجلي التام، كما سنكشف عن ذلك الستار فيما بعد حالا.

ولكن إضافة إلى ذلك قلنا هذا ضد اعتراض خيانروي Jeanroy فقط على سبيل الإثبات الوافر، لأن المستعربين لم يُطلعوا الرومانيين على وجود الأزجال العربية دون خرجة، وفي الواقع فإن الاختلاف الذي لاحظته خيانروي (وإن لم يكن أساسيا أو مبدئيا بأي حال من الأحوال) يختفي مع العلم أنه كان يوجد في الشعر العربي الأندلسي المقطع الزجلي مع خرجة وبدون مطلع بدرجة معروفة جدا، لم يكن الزجل فقط أغنية ملحنة تلقى جماعيا، وإنما كان يغنيه في أحيان كثيرة عازف منفرد دون جوقة أو فرقة، أو ينشد

ببساطة دون غناء، وعندنا من ذلك حكايات كثيرة، واحدة منها تُنمى بالضبط إلى ابن قزمان نفسه؛ حيث كان ذات مرة في حفلة صيد مع أصحابه، على شاطئ الوادي الكبير في إشبيلية يتلهون بتأليف أزجال.

وفي حالة الإنشاد البسيط فإن نزعة الاستغناء عن المطلع شيء غير متجنب، وإعادة المطلع [ أي الأفعال ] في سبعة مقاطع أو أكثر تكون لطيفة عندما يكون الزجل مشتركا بين المنشد والفرقة، المنشد مُشجّع بفرقة معتمدة على توتر شعري جماعي. ولكنها ستكون ثقيلة وغير مسموح أن تبقى مقتصرة على الإنشاد الفردي. الذي يقرأ بشكل خاص قصيدة مع خرجة يلغي المقطع الثاني أو الثالث، والذي يضع شعرا من هذا النوع للإنشاد البسيط أو السهل يسعى إلى أن يدخل في القفل أشخاصا عديدين ليساعدوه أو ليشجعوه.

الأمر إذن هو أن كثيرا من الأزجال العربية تخلو من المطلع، فالمقري يضمن في تحليلاته العديد من الأزجال دون مطلع<sup>(1)</sup>، واحد من تلك الأزجال موجود في ديوان الصوفي ابن عربي الذي ذكرناه آنفا، وأزجال أخرى لغير ابن عربي، الزجل الوحيد للمعلم أو الشيخ ابن نمارة [من القرن XI] الذي أنشده ابن قزمان ليس له مطلع، والقديم من هذا النوع لهذا الزجل نجده في آداب أخرى معتمدة على الأدب العربي [أولها علاقة باللغة العربية] فالشاعر الفارسي فخر الدين أسد يضع قصيدته «وز ورامين» حوالي عام 1084م على هيئة مقاطع زجلية؛ أي مقطع حزين وحيد القافية إضافة إلى قفل أو دور، والشاعر العبري الكبير ابن جبرول (1021-1069)<sup>(2)</sup> له بين

(1) يقصد الموشحات؛ لأن المقري لم يضمن كتابه أزجالا، ولم أستطع التعرف على ما نسبة المؤلف إلى المقري، بمعنى أنه لا تظهر موشحات دون مطلع في كتاب المقري كما قال، وأما الموشح الوحيد الذي ذكره المقري لابن عربي فهو ذو المطلع:

لناظرين  
بيدي الأنين

لاحت على الأكوأ  
من ذاك في بحران

سائر الأعيان  
والعاشق الغيران

انظر نفع الطيب 2 / 181 [ المترجم ]

(2) هو شيلوموه بن غابيرول، يهودي أندلسي ولد في مالقة وترى في قرطبة وتردد بين سرقسطة وغرناطة في

أشعاره الدينية العديد من الأزجال بدون مطلع، فمنذ النصف الأول من القرن الحادي عشر المسيحي نجد شواهد مستعملة في الشعر العربي والفارسي والعبري من المربعات الزجلية دون المطلع، كما هو الحال في القصيدة أو الأغنية رقم 11 المذكورة من شعر غيرمو البوتيه Poitiers الذي ينتمي إلى بدايات القرن الثاني عشر، وهي كذلك مثل أغان أخرى أو أناشيد أخرى لاحقة لماركابرو وبيري كاردينال، ولا يوجد تناقض في أن يقال إن شعر أوائل التروبادور، المخصص لمغن شعبي جوال عازف منفرد، دون مشاركة أيّ جوقة، مستغن دائما عن أي مطلع، وإن كان بدون هذا يفقد بيت الدور معناه الأصلي الذي يعني أنه نداء إلى الجوقة للمشاركة أو المداخلة.

في شعر بلاطي مخصص لمنشد منفرد في صالة قلعة أمام مستمعين قليلين من السادة النبلاء، كان الاحتياج إلى إلغاء المطلع باعتباره ردا أو مشاركة متجاوبة مع آخرين، لم يوجدوا في مثل هذه الحالة .

### الصعوبة التاريخية:

الأسباب الرئيسة في الشك في الأثر العربي الأندلسي لا تكمن فقط في عدم وجود المطلع من شعر الشعراء التروبادور البروفنساليين، وهي صعوبة انتهينا من استعراضها قبل قليل ملاحظين عدم وجود المطلع أيضا في الشعر العربي، وإنما يكمن في عدم وجود واضح للزمن والمناسبة اللذين تم فيهما التأثير والتأثير<sup>(1)</sup>.

برهن ك. أبيل C. Appel محتجا ضد نظرية الأثر العربي الأندلسي بكون « أن الشعر البروفنسالي الذي كان موجودا قبل ابن قزمان كان يتضمن القصيدة أو النشيد الأول»

عهد ملوك الطوائف كان شاعرا ومؤلفا في عديد من العلوم في العربية والعبرية، انظر Dictionario de autores judíos, Angel Saenz ediciones el Almendro , Granada p 91-93 .

(1) يشير إلى الاتصال المكاني والزمني وهو الشرط المهم الذي تتطلبه الدراسة الأدبية المقارنة حسب المدرسة الفرنسية أي غياب علاقة الاتصال بين المؤثر والمتأثر انظر الأدب المقارن أصوله ومناهجه للطاهر مكي دار المعارف مصر 1988، ص 197- 211 .

ولكن العالم الألماني المبرز يخطئ في هذا؛ لأن الحقيقة هو أننا نعلم أنه قبل غيرمو التاسع كان قد بدئ في صناعة الشعر، لأننا نعلم أن ابن قزمان كان يعيش حياة الشاعر الجوال (أو حياة شعراء التروبادور) منذ العام 1094 م، وفوق ذلك فقد كان الزجل منتجاً ومجدداً قبل أن يخرج الشعر البروفنسالي بحوالي قرنين لدى العديد من الأجيال الأساتذة. ومهما يكن الأمر فإن الشعراء التروبادور لم يتخذوا دائماً طريقة ابن قزمان في الزجل نموذجاً، بل يكفي النظر إليه على أنه ممثل بسيط للمدرسة الأندلسية، أما النماذج الحقيقية المؤثرة فقد كانت أكثر قدماً أو سابقة لابن قزمان؛ أي الرمادي وابن نمارة وابن اللبانة، أو يمكن أن يكون أي شاعر لم يبق له ذكر، ونحن نتناول أولئك الشعراء في مدرستين شعريتين أكثر من كون كل واحد منهم شاعراً منفرداً، فابن قزمان يمثل بالنسبة لنا النصيب الذي نستعرض من خلاله الثروة الأكثر تصويراً للمدرسة الزجلية الأندلسية التي فقدت جزءاً كبيراً من إنتاج شيوخها الأقدم من ابن قزمان، لقد سجل كتاب ومؤلفون تقدموا ابن قزمان نقاطاً مهمة للمقارنة كما سنرى فيما بعد.

### مناسبة وطريقة التأثير العربي الأندلسي:

لقد قلنا إن النموذج الأول من المقطع الزجلي في الأقطار الرومانية، يتضح لنا في عمل الشاعر الغنائي الأول الذي نعرف من خلاله ذلك، وهو غيرمو التاسع دوق أكيثانيا، المعاصر لابن قزمان، ويعتقد أنه استطاع أثناء سفره في الحروب الصليبية خلال العامين 1101 - 1102 م أن يستمع - وهو في سوريا - إلى القصيدة الأندلسية، وأن يقلد منها الشعر الحزين مع قفل، لقد حل غيرمو أيضاً في أراغون لمساعدة الملك الفونسو المحارب<sup>(1)</sup> في الحملة التي أعلنها بسبب نصره في كتندا في العام 1120 م، ولكن يفترض أنه قد قال أشعاره قبل ذلك.

شاعر التروبادور البروفنسالي الثاني تاريخياً هو ماركابرو، الذي كان في إسبانيا في بلاط

(1) انظر في هذا أيضاً الأدب المقارن محمد غنيمي هلال، دار العودة بيروت 1987 م ص 273. [الترجم]

الامبراطور الفونسو السابع، وربما كان في طليطلة في العام 1143م، ولكن الشعر المقطعي الأندلسي كان قد استعمل قبل ذلك، على وجه يفيد أن هذه الأسفار لشعراء التروبادور الأكثر قدما إلى إسبانيا، لا تشرح شيئا.

لكن سفر غيرمو إلى سوريا لا يبدو هو الآخر مفتاحا للشرح المأمول؛ فليس منطقيا افتراض أن الشاعر الجوال الأول المعروف، هو الجوال الأول الذي وجد، ومن ثم فإن نضوج أسلوب غيرمو يفترض عند نقاد عديدين وجود شعراء آخرين متقدمين عليه، وبالتالي فإنه لا يوجد أي سبب لاعتقاد أن غيرمو هو المتأثر الأول بالشعر المقطعي العربي الأندلسي. فاستعمال الأشكال دون مطلع أو دون خرجة يجب أن يكون متقدما على اقتباس المقطع كاملا، كما نرى في استعمال البرتغاليين الغاليسيين اللاحقين لذلك، كما استعمل ذلك في الأناشيد الوطنية التقليدية لبروفنسا، وكل البلاد الرومانية، وهي أناشيد موثقة منذ أواخر القرن الثاني عشر، وفي هذا الاتجاه نذكر أن غيرمو التاسع لم يقل الشعر في لغته الأصلية، فقد كان يتحدث منذ ولادته لغة الشمال الفرنسي أي عامية منطقة بويتيرس، ومع ذلك قال شعرا في لغة اكتسبها بالتعلم؛ أي لغة رعاياه الجنوبيين، وذلك يدل على أنه في هذه اللغة الأخيرة - وليس في لغة الشمال - كان يوجد تطور وإنماء لمدرسة غنائية، وفيها كان التأثير الأندلسي قد عمل عمله منذ وقت.

بدأ ملك نابارة Navarra سانتشو المايور Sancho el Mayor (1000-1035م)<sup>(1)</sup> منذ بدايات القرن الحادي عشر تغييرا في السياسة في إسبانيا، ساعيا إلى تقريب العلاقات مع أكيثانيا، المنطقة ذات الأصل ما قبل التاريخ الإيبيري، وهو المعنون بـ *rex ibericus*، وقد بدأ هذا السعي بواسطة أحد السادة الإقطاعيين من

(1) هو أشهر ملوك نابارا إحدى الممالك المسيحية في عصر الأندلس حكم بعد أبيه غرسية شانجة الثاني، وقد بلغت نابارا في عهده ذروة اتساعها وتحكمها في منحدرات جبال البرتات بين إسبانيا وفرنسا (Gran diccionario enciclopédico Durvan 12p 4656) المترجم.

غاسقونيا<sup>(1)</sup> Gascona الذي لعب -هو وأبناؤه وأحفاده- دورا في ربط علاقات زوجية وسياسية وثقافية - من كل الأنواع - مع فرنسا.

سنعلم أن هذه الروابط لم تضمن وجود علاقات أدبية دقيقة للتأثير في موضوع النوع الذي نتحدث فيه، نعم هو كذلك ولكن لحسن الحظ، وإن كانت المادة الشعرية لم تسترع الانتباه في التاريخ القديم، فإنها يمكن أن تضيف معلومات مفسرة لذيوع وتثمين النشيد أو الأغنية الموريسكية الأندلسية، معلومات سابقة لسفر غيرمو التاسع إلى سوريا، إحدى تلك المعلومات يزودنا بها الطبيب القرطبي ابن الكتاني الذي حضر بدون شك إلى برغش Burgos في بلاط القومس كاستيا سانتشو Castilla Sancho (995-1017م) بمناسبة حفلة لمع فيها العديد من المغنيات والراقصات، اللاتي أهداهن خليفة قرطبة إلى القومس، وقد أمرت زوجة القومس القشتالية واحدة منهن لأن تغني، وعندما سمعت جارية من جوارى المسيحية [أي زوجة القومس] الأبيات المغناة انفجرت بالبكاء، فاقترب منها ابن الكتاني ليسألها عن سبب بكائها فأجابته: «هذه الأبيات لأبي: [وهو] سليمان بن مهران السرقسطي، وأنا منذ زمن أسيرة، ومنذ ذلك الوقت لم أحصل أبدا على أي أخبار عن أسرتي»<sup>(2)</sup>.

ويوجد خبر آخر حول الموضوع، مثل الخبر السابق، لم يكن في حساب مشكلتنا، يتعلق بحرب صليبية إسبانية قبل التي كانت في المشرق، شنها النبلاء الفرنسيون بمساعدة

(1) اسم قديم لمحافظة في الجنوب الغربي من فرنسا بين خليج بسكاية ونهر غارونة وجبال البرتات الغربية Gran diccionario enciclopédico durvan 7 / 2482 .

(2) انظر الحكاية بتمامها وتفصيلها عند ابن بسام الذخيرة 3، 1 / 317-318 حيث أورد ترجمة سليمان بن مهران السرقسطي، والترجمة لابن الكتاني، والأبيات هي:

يخالطها عند الهبوب خلوق	خليلي ما للريح تأتي كأنما
فأحسبها ربح الحبيب تسوق	أم الريح جاءت من بلاد أحبتي
لتذكاره بين الضلوع حريق	سقى الله أرضا حلها الأعيد الذي
فريق وعندي للسباق فريق	أصار فؤادي فرقتين فعنده

[المترجم]

ملك أراجون حفيد سانتشو الكبير Sancho el Mayor، حيث غزا جيش بابوي مكون من جنود نورمنديين وفرنسيين باربستر Barbastro التي تقع في حدود أراغون في العام 1064 م، وقد حكى المؤرخ القرطبي ابن حيان المعاصر لتلك الأحداث أن تاجرا يهوديا صديقا له، كان مكلفا بفداء بنات لأحد أغنياء المسلمين أسيرات لدى أحد القوامس الذين غزوا تلك المدينة، وقد عرض اليهودي هدفه من زيارته للقومس، فقال هذا الأخير بعد أن جعل واحدة من الأسيرات تُخرج إلى الصلاة كثيرا من الأقمشة الفاخرة والملابس الثمينة والذهب والحلي: «وإن لم يكن موجودا شيء من هذا، وكنت قد عرضت عليّ أكثر منه، فلن أسلم لك الأسيرات؛ فالتى تراها هناك هي المفضلة لديّ، وتلك الأخرى جميلة جدا، وهي مغنية نادرة، لا تقارن بأية مغنية، إنها التي تحب أباهما أكثر»<sup>(1)</sup>، وأمر بعد ذلك -في رطانة عربية- واحدة منهن لتغني، وعندما تناولت الجويرية المسلمة عودها لم تستطع أن تتحكم في دموعها التي مسحها القومس في مودة<sup>(2)</sup>، وبعدها بدأت أغنية عربية سمعها القومس مبديا علامات السرور الكبير، والافتتان الفائق، كأنه فهم الأغنية، وهو أمر يشك فيه اليهودي، لأنه لم يفهمها هو جيدا، وعند نهاية الأغنية ودع القومس التاجر مثنيا من جديد الإعجاب والسرور الذي يجده في الأسيرات، وهو مفضل جدا عنده على كل الذهب الذي بعته الأب لفدائهن.

أهمية هذا الحدث كبيرة بالنسبة لبحثنا هذا، ونعلم من المؤرخ ابن حيان نفسه ومن آخرين أن هؤلاء الأسيرات المختارات كان الغناء من مهاراتهم المثمنة، وقد حمل منهن الغزاة البربستريون آلافا كثيرة إلى فرنسا، بل وصل منهن إلى القسطنطينية سبعة آلاف، وأخذ منهن إلى رئاسة البابا 1500 أسيرة. وإن أمكن أن يكون لهذا الخبر عن بربستر علاقة مباشرة مع أول شاعر معروف من شعراء الجوالين البروفنساليين،

(1) انظر القصة ببعض اختلاف في الذخيرة 186 3، 188-188، وفي نفع الطيب 4 / 451-452. [المرجم]  
(2) في النفع (4 / 452 وفي الذخيرة 3، 1 / 188) فتسارقت العليج مسخه. أي أنها تسمح دمعها بحيث لا يشعر بها العليج [المرجم]

فإن دوق أكيثانيا غيرمو الثامن، الأب المستقبلي لغيرمو التاسع الجوال، كان له إسهام رئيس جدا في الحروب الصليبية؛ إضافة إلى بعض الوثائق الفرنسية ينسبون إليه أنه غزا برديشتر، وهكذا من المفترض أنه كان ضمن أبرز الغنيمات التي حملها إلى بلاده بعض المئات من الفتيات الأسيرات.

ولكن معرفة الأغنية الموريسكية الإسبانية في فرنسا مفهومة أكثر حتى بدون اللجوء إلى الاستشهاد بهذا التصدير للسجناء من برديشتر، فقد كانت العلاقات بين بلاطات الأمراء والسادة الكبراء في فرنسا وإسبانيا كاملة وعالية، عبر العلاقات الزوجية المعروفة؛ فغيرمو الثامن زوّج بنتين له، أي أختين للشاعر الجوال، إلى ملكين من ملوك إسبانيا؛ واحدة إلى الفونسو السادس ملك قشتالة، والأخرى إلى بيدرو الأول ملك أراجون، كما زوج أخيرا الشاعر الجوال نفسه (غيرمو التاسع) ابنة له إلى الملك الأراجوني راميرو المونخي Ramiro el Monje<sup>(1)</sup>، والاتصال عبر الأسفار كان معتادا هو الآخر، وفوق ذلك الحج إلى سانت ياقب Santiago كان عبادة خاصة لدوقات أكيثانيا أنفسهم، يحكى عن سلف من أسلاف غيرمو التاسع أنه كان يذهب حاجا كل عام إلى روما أو إلى سانت ياقب.

ونعلم بالصدفة عن النكبة المأساوية التي تعرض لها ابن الشاعر الجوال حين كان يمارس هذه العبادة؛ إذ فاجأه الموت داخل مزار سانت ياقب في يوم الأربعاء المقدس في عام 1137، وهو حادث كان له صدى، خلده بالتأكيد ثيركامون في مرثية ذات مقاطع زجلية دون خرجات أو مطالع كما هو الشأن دائما في شعره.

### الوهم والتحيز ضد ما هو عربي:

مقاومة كثير من العلماء لقبول أثر الزجل العربي الأندلسي على بداية الغنائية الرومانسية

(1) ملك أراجون (ت 1154) كان راهبا في دير وصار قسا كبيرا عام 1134 وصعد العرش في العام نفسه، وهو أخو الملك الأراجونجي الفونسو الأول المشهور بالمحارب الذي كانت له معارك عدة مع المسلمين، انظر Gran diccionario enciclopédico durvan 12 / 4396 [ المترجم ].

يتأسس على وهم متأصل جداً؛ أي الاعتقاد الخاطيء في عدم الاتصال الثقافي بين القطبين المسيحي والإسلامي.

دون أن ندخل الآن في أي تدليل على الشكل العام ضد هذا الوهم يكفي أن نسوق -إلى جانب هذه المناقشة التي تتعلق بالزجل مناقشة أمرين آخرين للزجل معاصرين ولم يناقشهما أحد في العالم؛ فلا يفهم كيف يتناسى دائماً - عندما يتناول أثر الزجل- أمران آخران رئيسيان في التاريخ الثقافي للغرب، وقد كانا يحدثان في إسبانيا أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر نفسه؛ حيث عاش غيرمو التاسع، هذان الأمران يكشفان القوة الكبيرة المتعددة الجوانب التي كانت تتمتع بها الثقافة العربية أكثر جداً مما كانت تتمتع به الثقافة اللاتينية، كما يعترف بذلك روخيريو باكون Rogerio Bacon<sup>(1)</sup> وفيما بعد ذلك الوقت أي حوالي 1106 م، كان اليهودي الأراجوني المعتنق للديانة المسيحية وهو بيدرو الفونسو الوقشي<sup>(2)</sup> Pedro Alfonso يترجم إلى اللاتينية - لأول مرة في أوروبا - مختارات من القصص الشرقي، من أصل هندي وعربي، وقد حملت ترجمته عنوان « أدبيات دينية » لاقت واحداً من النجاحات الكبيرة التي عرفها الأدب، وصارت لعدة عقود بمثابة توراة لكُتَّاب القصة في كل الأمم الغربية بما في ذلك الثلاثة الروائيين الأكبر؛ السيد خوان مانويل

(1) رجل دين فرانسيسكانو وعالم إنجليزي (1214-1292) كان أستاذاً في باريس، انضم إلى النظام الفرانسيسكانو في أكسفورد وباريس اتجه اهتمامه منذ البداية إلى العلوم التجريبية التي بنى فيها مجده الأكبر وقد اتصل بالبابا كلمنتي الرابع، وكان شغوفاً بنقد الأفكار وفروع المعرفة جميعاً، وقد اختلف مع رجال الكنيسة في أشياء عديدة من بينها تفريقه بين اللاهوت والعلم وهو ما تأثر فيه بشراح أرسطو العرب وخاصة ابن رشد، وقد تضمنت كتاباته التعجيل بأفكار في صناعة المجهر والمكبّر و ماكنة البخار، والطيران وكروية الأرض انظر Gran diccionario enciclopédico durvan 2 / 653. [المترجم]

(2) هو الاسم المسيحي لليهودي سفاردي أندلسي ولد في وشقة (ق 11م) عمد في العام 1106 م أثناء حكم الفونسو الأول المحارب الذي تبناه، وترجع شهرته إلى كتابه تعاليم تربية الذي ضمنه ثلاثين قصة شرقية وقد كان الكتاب في اللاتينية ولكنه مارس أثرًا واسعاً على الأدب الأوربي، انظر Gran diccionario enciclopédico durvan11/ 4022 [المترجم]

Juan Manuel<sup>(1)</sup> في إسبانيا، وبوكا كثيو Bocaccio<sup>(2)</sup> في إيطاليا وتشاوتر Chaucer في إنجلترا<sup>(3)</sup>.

بعد بيدرو الفونسو Pedro Alfonso ببعض سنوات؛ أي منذ 1130 م فصاعدا يفتتح رئيس أساقفة طليطلة رايموندو Raimondo<sup>(4)</sup> والقاضي الكنسي لشقوية Segovia غونديسالبو Gundisalvo<sup>(5)</sup> في كاتدرائية طليطلة، مدرسة المترجمين المعروفة

(1) خوان مانويل (1282-1384) كاتب إسباني ولد في إسكالونة بإسبانيا وكان أحد أقارب الفونسو العاشر العالم، عندما بلغ عمر خوان الثانية عشرة تجاوز الحدود الإسلامية المسيحية في مرسية محاربا المسلمين، كما تدخل في شؤون القصر أثناء ثورة الوصاية للفونسو الحادي عشر، وكان من مواقف خوان هذا ما قد أدى إلى مساعدة للملك الفونسو الحادي عشر في معركة طريف El salado والجزيرة الخضراء، وتمثل أعمال خوان مانويل نضوج الاتجاه الفني في النثر القشتالي، وقد برز في أعماله أثر رامون لول، وأهم أعماله كتاب الأمثال للكوندي لوكانور وباترونيو (1335) وهو المسمى الكوندي لوكانور، وباترونيو هو مستشار ومعلم خوان وكان يحكي له ليختار عدة قصص عن الحيوان وغيره معتمدا عدة مصادر متنوعة وغالبا ما يعتمد على تشخيص الحيوانات، ومعروف أنه يمثل الورقة المهمة التي لعبت دورا في نقل تأثير الأدبين العربي والهندي إلى النثر الإسباني. انظر Encicolédico Durvan, 8p.3046 < المترجم ] .

(2) هو جيوفاني بوكا كثيو (1313-1375) كاتب إيطالي في الإنسانيات ولد في باريس لأم فرنسية وأب إيطالي قضى شبابه الأول في بيت والديه بثرالدو، قريبا من فلورنسيا، وبعث إلى نابولي لتعلم مهنة التجارة، ترك ذلك ليدرس القانون الكنسي وليهوى الشعر وقد كتب العديد من الكتب وصنع العديد من القصائد ومن بينها شعر حماسي قلده فيه إنيادة فرجيل وشعر غزلي كثير كما كتب أيضا روايته الرعوية الذي كامبرون التي تمثل اتجاهها جديدا بما حواه من قصص وحوادث شرقية بدأ بعد العام 1350 التعامل مع البحث وبما أنه كان يعرف دانتي فقد كتب ترجمة لحياته صدرت عام (1477) كما بدأ شرحا للكوميديا الإلهية لدانتي ولكنه مات قبل أن يتمه وإلى بوكا كثيو يرجع الفضل في رد الاعتبار إلى الشاعر اليوناني هوميروس في العالم الغربي، لأنه رعى الترجمة التي قام بها لهذا الشاعر ليون بيلاتوس، وقد كانت وفاة بترارك عام 1374 ضربة قاصمة لبوكا كثيو الذي توفي بعد بترارك بقليل. انظر 3 / 834 Gran diccionario enciclopédico durvan , [ المترجم ]

(3) هو تشاوتر جيفري (1340-1400) شاعر إنجليزي ولد في لندن واشترك في بعض الحروب جنديا وقائدا وفي إيطاليا تعلم اللغة والأدب الإيطاليين اللذين كان لهما صيت كبير نشرته أعمال بوكا كثيو وشهرته ومن ثم تأثر تشاوتر بذلك، انظر 5 / 1609 Gran diccionario enciclopédico durvan , [ المترجم ]

(4) كان مؤسسا لنظام عسكري ديني ت عام 1164 م Gran diccionario enciclopédico durvan 12 / 1609 [ المترجم ] .

(5) هو دومنغو دي سالبو (القرن 12) فيلسوف إسباني عاش في القرن الثاني عشر وكان واحدا من مقدمي الأرسطاطاليسية العربية في إسبانيا وأوربا، ترجم العديد من الكتب من العربية إلى اللاتينية صحبة يهودي يدعى خوان، كما ألف كتبها غير الترجمة. 7/ 2655 Gran diccionario enciclopédico durvan [ المترجم ]

التي كانت تترجم إلى اللاتينية الكتب الفلكية والرياضية والنباتية، وكتب الفلاسفة العرب الذين أدهشوا الفلاسفة المسيحيين، وكما يقول رينان: صانعين عصرا كبيرا مقسما التاريخ العلمي للعصور الوسطى إلى نصفين؛ نصف سابق وآخر لاحق لهذه الترجمات في طليطلة. كيف لا يُعترف بذيوع الزجل الأندلسي الذي يجب أن يكون مكونا من مكونات هذا المجموع؟ [أي الذي ترجم].

إلى جانب هذين الحدثين الكبيرين غير المردودين، كانت هذه الاستعارات الثقافية تحدث في عصر يجب أن نسميه العصر المسيحي الإسلامي يعيشه شعبان يتنافسان على التحكم في البحر الأبيض المتوسط الذي يرتبط فيه التقدم الكبير بالنشاط الروحي ومناهج الحياة الرفيعة في العالم الإسلامي.

إذن لا يجب أن يُفاجأ أو يندهش أحد بالقول: إن شكلا غنائيا عربيا قد انتشر في العالم اللاتيني، وإنما الذي يجب أن نندهش له كثيرا ألا ينتشر شيء من ذلك، فالمغنيات والراقصات الأندلسيات اللاتي أهداهن خليفة قرطبة إلى دوق قشتالة، أو الأسيرات من برديتر والمنتشرات عبر أوروبا تشير أحداثهن إلى ذيوع الزجل، وأخيرا فإن شيئا آخر يضاف إلى الذي أثرناه في البداية؛ إنها إعادة لحظة جديدة من عرض تفضيل الرفض تبلغها في منطقة باطقة Bética (أي جنوب الوادي الكبير من إسبانيا) من قادش السعيدة، كما كان يقول الرومان (iocasaGadis) عندما كانت قادش تفرض على الحاضرة الجمال الذي يتمتع به غناؤها ورقصها، وتتمتع به فتياتها مع النجاح الكبير الذي يشهد لنا به مارثيال خوبينال<sup>(1)</sup> وبلينيوس<sup>(2)</sup> Marcial Juvenal y Plinio .

(1) هو بلينيوس الثاني المسمى بلينيوس الحد (23-76 م) عالم طبيعيات وكاتب روماني، كبير ترك عملا موسوعيا يتضمن علوما في الصيدلة وعلم النبات وعلم الحيوان والمعادن وغيرها انظر Gran diccionario enciclopédico durvan 11 / 4180 [المترجم].

(2) شاعر إسباني لاتيني هجاء اسمه بالكامل مارثيال ماركو باليرا، عاش بين عامي 40 ق م و 104 م تنقل بين روما وإسبانيا Gran diccionario enciclopédico durvan, 9/ 3370, [المترجم]

ذيع الزجل إعادة لهذا النجاح في لحظة مناسبة، ظهر فيها إنتاج ثقافي كبير أنتجه الإسلام مهوراً بقوة كبيرة من التبصر في الغرب.

وانطلاقاً من حادثة بريشتر نستطيع أن نفكر أن انتشار الزجل في أوروبا يجب أن يحدث بعد منتصف القرن الحادي عشر بقليل، عندما نعلم متأكدين أنه منذ وقت كاف من ظهور الزجل الأندلسي، كان هذا الزجل محبوباً كثيراً، يقلده العرب وفرنسا العراق، نعلم أن ذلك الانتشار قد حدث في المشرق قبل أن يصل إلى بغداد شهرة علماء الكلام والفلسفة والأطباء والمفكرين والكتاب الأندلسيين الآخرين، والأمر نفسه يمكن أن نفترضه في الغرب؛ أي قبل أن يذيع الأراغوني بيدرو الفونسو القصة الشرقية في أوروبا، وقبل أن يبدأ الشيقوي غونديسابو بقليل في كشف الفلسفة الهلينية العربية كان الزجل الأندلسي قد فتح طريقه؛ لأن الموسيقى لا تحتاج إلى انتظار مساعدة تقاليد أو ثقافة شعبية لتطير إلى بلدان بعيدة، ولحن الأغنية أو الزجل لم يحتاج إلى أي عالم مترجم مثل بيدرو الفونسو أو غونديسابو؛ يكفيها فقط رواية شفوية مرتجلة ومضبوطة لتأسر النفوس بفتنة عميقة، كلفتنة التي أسرت كوندي بريشتر الفاتح، كما يصورها ابن حيان.

### المقطع الزجلي في فرنسا:

طبقاً لما سنراه فإن أثر الزجل الأندلسي كان من المفترض أن ينتشر أكثر من حالتي غيرمو التاسع أو ماركابرو اللتين ناقشهما. يُتحدث عن الحزين وحيد الحركة مع القفل، الذي كان يتعاطاه أوائل التروبادور دون اعتماد الاقتباس الكبير الذي كان موجوداً في كل الأراضي الرومانية، وقد كان يوجد بهذا الأخير الحزين مع قفل ومع مطلع. إذا كانت الخرجة معطلة في الغنائية البلاطية فإنها كانت تحتفظ بقيمتها الكبيرة في الغناء الشعبي، والآن إذن عندنا في بروفنسيا - وكذلك في فرنسا الشمالية - كثير من أغنيات الرقص، وأشعار أخرى تستعمل المقطع الزجلي كاملاً، وفي كل أرجال ابن اللبانة أو ابن قزمان شبه لم يشر إليه أبداً المتعاملون مع العروض الروماني، بعض هذه القطع الشعرية المحتفظ بها تُورِّخ بنهايات

القرن الثاني عشر، وأغلب تلك الأشعار من القرن الثالث عشر؛ إنها إذن لاحقة لأشعار التروبادور، وذلك أمر طبيعي؛ لأنها أشعار شعبية مقدرّة أو مثمّنة قليلا، وقد وثقت أخيرا كتابة.

سنضع نموذجا [ لما قلنا ] أغنية حزينة في لغة فرنسية، لراهبة تائبة تنتمي إلى القرن الثالث عشر .....<sup>(1)</sup>

تتتابع بعد ذلك أربعة مقاطع متشابهة، والرونديل الذي يعيده كثيرا آدم دي لا أيّ Adam de la Halle<sup>(2)</sup> في أغنية Belle Aeliz وفي أغان أخرى كثيرة ذائعة تحتوي على هذا الشكل من الحزين؛ أي أن المقطع يحتوي على دور وقفل.

### الزجل في إسبانيا:

المقطع نفسه استعمل أيضا كثيرا في إسبانيا؛ في البلاط وفي الأوساط الشعبية، أو الشعر الرسمي والشعر الشعبي.

كما هو الأمر في بدايات الغنائية البروفنسالية نجد المقطع الحزين مع دور أو قفل في أعمال غير مودي أكيثانيا، وأيضا نجده متأخرا بعد ذلك في أوائل عصر الغنائية الغاليسية اللستانية قوةً أخرى كبيرة مسيطرة، فالسيد لوبي دي دياث دي آرو Lope de Diaz de Haro سيد بزكايّة Vizcaya صاحب المقام الأرفع في بلاط الفونسو الثامن منذ 1206 م المشارك في المعركة الشهيرة الأرك في عام 1212 م<sup>(3)</sup>، استعمل في واحدة من أغانيه الساخرة

(1) عندما تفتح الورد في مايو سأقطفها مليئةً بالحب، بعد هنيهة قليلة سمعت صوتا ناعما خرج من من أكمة مجاورة لدير، شعرت بألم مستعذب في منتصفني، ملعون من الله من جعلني أدخل أصير راهبة [ هذه ترجمة لترجمة المقطع الذي أورده رامون باللغة الفرنسية فوق وأورده في الهامش مترجما إلى الإسبانية ] المترجم .

(2) شاعر من شعراء التروبادور الفرنسيين عاش بين 1240 م، والعام 1288 م انظر Gran diccionario enciclopédico durvan, 1/ 93 [ المترجم ] .

(3) هي معركة جرت بين الصليبيين بقيادة مملكة قشتالة والمسلمين بقيادة عاهل الموحدين المنصور الموحد عام 591 هـ انظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي قسم الموحدين تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين دار الغرب الإسلامي بيروت ص 221-222. [ المترجم ]

المقطع الحزين مع دور وخرجة، وكما هو الأمر في الشخصية الفرنسية؛ فالقشتالي يقول الشعر في لغة ليست هي لغته الأم، بل يقول الشعر في اللغة الغاليسية؛ حيث وُظِّفَت الغنائية منذ نهايات القرن الثاني عشر على الأقل، وحيث لا نعلم منذ متى كان يُقرَض الشعر على طراز المقطع الأندلسي، إذ لم يكن المقطع الزجلي الحزين من إنتاج شعراء البلاط فقط، وإنما كان الشعراء الشعبيون في غاليسية يجربون الأغنية الراقصة الطريفة في أبيلا نيراس فروليداس Avelanieras التي استعملها التراث القديم، والتي سنجدتها في نصين ينتميان إلى القرن الثالث عشر، وهما لرجل الدين في شنت ياقب أيراس نونيس Airas Nunes والشاعر الشعبي خوان تُوْرُ Juan Torro، وسيُرى المقطع الزجلي بعد ذلك في مؤلفات أخرى عديدة من الأغاني الغاليسية البرتغالية، كما في أعمال الملك ديونيس Dionis وفي أعمال دوق بارثيلس Barcelos<sup>(1)</sup>.

ونجد في اللغة القشتالية - في مرحلة متأخرة - كثيرا من نماذج المقطع الحزين مع مطلع وخرجة كما هو الشأن في كتاب الحب الشريف El buen amor لراهب إيتا<sup>(2)</sup>، وفي أغنيات عديدة تنتمي إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كما نجد تلك النماذج أيضا في الغنائية الشعبية مضمنة في مسرح لوبي دي بيغا Lope De Vega وكالديرون Calderón<sup>(3)</sup>، ولكن النماذج التي نملكها ابتداء من القرن السادس عشر لاشيء

(1) هي اليوم في البرتغال وهي عاصمة إقليم براغة، تتكون من 13800 نسمة، انظر معجم Diccionario Durvan, 2/ 705 المترجم .

(2) هو راهب أيتا أي قرية تسمى بهذا الاسم Hita شاعر إسباني ومؤلف كتاب الحب الشريف الذي تأثر فيه بالثقافة العربية الإسلامية وخصوصا كتاب ابن حزم طوق الحمامة وقد كان هذا الرجل ابنا لأسرة مسيحية تواجدت في غرناطة الإسلامية في القرن 14 المسيحي، بل في قصر حكام غرناطة، ولد هنالك وبقي حتى نيف عمره على الخمسة والعشرين عاما انظر Gran diccionario enciclopédico durvan , 12 / 4600 [ المترجم ]

(3) هو بيدرو كالديرون دي لا باركا (1600-1681) كاتب مسرحيات وروايات إسباني ولد في مدريد ودرس في مدرسة الامبراطورية في المدينة نفسها ثم تخرج في جامعة سلمنكة Salamanca عاصر قليلا الشاعر الإسباني لوبي دي بيغا ومثل الصنعة النهائية لعملية طويلة (أي العصر الذهبي وبأكثر شمولاً لقرون من الثقافة التي توجهها الكنيسة مباشرة والدخول في العهد الحديث من الروح الأوربية، وكانت روايته « الحياة =

منها يبدو عملا لشاعر معروف، وإنما هي دائما تنتمي إلى شعراء مجهولين تقليديين بقيت أشعارهم على قيد الحياة بعدهم، مثل تلك الأغنية التي تحمل عنوان: دي مايو De Mayo التي توجد في المجموع الموسيقي لحوالي عام 1520 م:

دخل مايو وخرج أبريل.

دخل مايو في رشاقة أحلى وفي جمال أروع.

فخرج أبريل مع أنواع الحب العذبة.

وقد بدأ المحبون الرائعون في العمل الدائب.

فكتاب «مفردات كُريَّاس Correas» وكتاب «دخول موسم ازدهار النبات وتنوير الأشجار Maya» المطبوع في عام 1616م يشهدان بالذيق الكبير لهذه الأغنية القصيرة قبل انقضاء القرن السابع عشر.

من الطبيعي أن يحتفظ المغنون الإسبان بنماذج واضحة القرابة بهذا المقطع في الشعر العربي، كما لم توجد في شعر الشعوب الرومانية الأخرى، فالديوان الموسيقي أو المجموع الموسيقي المذكور قبلا يحتوي على عدة مؤلفات زجلية ذات أصل مسلم واضح، ومن ذلك يمكن أن يفيدنا نموذجا أو دليلا على ذلك أغنية المسلمات الصغيرات الثلاث؛ فموضوعها ينحدر من أغنية شرقية قديمة جدا، تنتمي إلى القرن التاسع، يحكي حكاية حريم فظيعة خشنة، بطلها الخليفة العظيم المعاصر لكارلوس العظيم أي هارون الرشيد، وتحكي القصة أن «ثلاث فتيات تملكنه» فالمغامرة الجنسية مشهورة شعبيا أو منتشرة عبر المغنية الشهيرة «عريب» [عريب<sup>(1)</sup>] التي أذاعت لها انتشارا لم يسبق في العالم الإسلامي، أما في إسبانيا

= حلم «مثلة لذلك مع غيرها ما أسهم في أفكار كانت، لكامبيرون أعمال عديدة غير هذه الرواية. انظر Gran 1005-diccionario enciclopédico durvan 3 / 1004. المترجم]

(1) هي عريب بفتح العين وليس كما كتب المستعرب بضمها، وهي مغنية مشهورة عاصرت ثمانية من الخلفاء العباسيين أولهم الرشيد انظر اخبار عريب هذه مبسوط في الأغاني لأبي الفرج 21 / 61-103 غير أن حكاية المغامرة الجنسية المنتشرة مع عريب هذه لم تذكر في الأغاني كما يوحى المستعرب [المترجم].

[الأندلس] فقد هذبت الحكاية من كل فحش، وأعيد إنتاجها في صورة الزجل الذي كان يشهد تحولاً ما في القرن السادس عشر: جزء من المطلع كان مندمجاً مع الدور بينما يندمج الدور مع البيت الثالث من القفل مشكلاً مع هذا جملة موسيقية واحدة، وهو ما يجعلها ذات خصوصية عذبة رقيقة؛ يوجد من هذا الاندماج نماذج فرنسية أيضاً كما في الرونديل الشهير لروبين إيت ماريون Robin et Marión، أغنيات الفتيات المسلمات الثلاث تقول:

في مدينة جيان

عشقني ثلاث فتيات مسلمات صغيرات

هن: عائشة، وفاطمة ومريم.

ثلاث فتيات ما أجملهن.

ذهبن يجمعن الزيتون

تأخرن في عودتهن من جمع الزيتون

في جيان

عائشة وفاطمة ومريم

ثلاث فتيات ما أنظر محياهن

ذهبن يجمعن التفاح

تأخرن في جمع التفاح

في جيان

عائشة وفاطمة ومريم

قيل لهن: من أنتن يا سيدات؟

يا من سرقن حياتي؟

مسيحيات؛ كن من جيان

عائشة وفاطمة ومريم... إلخ.

فهذا الزجل هو صدق قرون كثيرة من التعايش بين المغنين المسلمين والمسيحيين، وكان معبرا أكثر عن التصميم المصور المعروف لألفونسو العاشر<sup>(1)</sup> الذي يمثل شاعرين شعبيين؛ مسلم ومسيحي، مترافقين الواحد إلى جانب الآخر في أغنية مشتركة.

### المقطع الزجلي في إيطاليا:

الوحدة الروحية القوية بين الشعوب الرومانية تجعلنا نتوقع أيضا أن المقطع الذي نتحدث عنه كان أيضا شعبيا في إيطاليا، وهو كذلك في فرنسا وإسبانيا، الراهب اليعقوبي د. تودي Jacopene de Tode تلميذ القديس فرانثيسكو دي أسيس Francisco de<sup>(2)</sup> وكان هذا الراهب معاصرا لألفونسو العاشر [العالم] وجد عندما كان يبحث - من أجل أعواده وأغانيه التي كان يغني بها المترهبون جماعة [مصاحبة لعزف تلك الأعواد -] البحور الأكثر ذيوعا وقتها في أرضه (وهو من قلب إيطاليا في أمبريا Umbría<sup>(3)</sup>)

(1) هو الفونوسون هراندة (الفونوسو العاشر 1252-1284)، كان معاصرا لثالث ملوك بني نصر محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر عرف بالحكيم أو العالم بلغت قشتالة وإسبانيا المسيحية كلها في عهده قمة عهد ما سمي بالاسترداد، من أهم ما يشار به إليه أنه طور مدرسة طليطلة للمترجمين، وفتح قصره ليكون ما يشبه أكاديمية اجتمع فيها العلماء المسلمون والمسيحيون واليهود ليرجموا أهم مصادر المعرفة والعلوم الإسلامية إلى اللغة اللاتينية أو الإسبانية القشتالية وقد ترك أعمالا أدبية وتاريخية، من الأولى أشعار بعنوان أغاني للعذراء، ومن الثانية تاريخ إسبانيا العام انظر الإحاطة لابن الخطيب 1 / 564 القظوف الدواني في التاريخ الإسباني لعبادة كحيل ط 1419-1998 ص 165، Gran diccionario enciclopédico durvan, 1 / 233 [ المترجم ]

(2) رجل دين مسيحي مؤسس لنظام الفرنسيسكان في أسيس بأمبريا في إيطاليا (1182-1226) وهو ابن تاجر جملة غني له بعض المؤلفات في تراجم بعض أعلام الأدب في عصره Gran diccionario enciclopédico durvan5 / 2401 [ المترجم ]

(3) منطقة في إيطاليا ذات طبيعة جبلية بركانية تتمتع بأودية خصبة وهي مجاورة للأراضي الفرنسية اليوم =

وجد هناك المقطع الزجلي باعتباره الأكثر شعبية، ويُحتفظ - حتى اليوم - بنص متطابق مدحي منسوب إلى اليعقوبي نفسه، مكون من 102 مقطع مدحي، اثنان وخمسون منها - وهي أكثر من النصف- مكتوبة في المقطع الحزين مع دور وخرجة، وهذه الأخيرة بطريقة يكون فيها المدحي الفرنسيكاني بعد أغاني العذراء لألفونسو العاشر، تلك الأغاني هي المختارات الغنائية الأكثر قربا من الزجل في كل الآداب الرومانية، ونعرض هنا نموذجا ليحتكم إليه في الهوية الشكلية بين مقطوعات الفونسو العاشر وأزجال ابن قزمان:

تواضع أيها الحب

أنا وفرنسا وانجلترا

يدخل بحر أرضا واسعة

منها لا تنطلق الحرب

إذا استطعت أن أرقص.

إضافة إلى ذلك فليس اليعقوبي el Jacopen فقط، بل معظم الشعراء الفرنسيكان يفضلون غالبا هذا البحر، بل إن مغنيا آخر لـ « السيد الفقر » يستعمله كذلك:

أيها الحب العذب

كم ناجيتك أيها الحب!

تواضع أنت ونجمك وقمرك

تعال وأقبل، يكفي اختفاء

وعند الرؤية

= وكانت رومانية وعانت من غزو المجاورين من فرنجة أو غيرهم انظر Gran diccionario enciclopédico [ المترجم ] durvan 14 / 5196

والأمر نفسه في مدحية أخرى لبيسا Pisa<sup>(1)</sup> يمكن أن تمثل الاستعمال Toscana<sup>(2)</sup> التسكاني في أوائل القرن الرابع عشر، تعرض أيضا أو تتحكم في مقطعتنا التي للراهب خاكوبي أو اليعقوبي، ومع ذلك فإن الناشرين لشعر هؤلاء الشعراء الفرنسيين والدارسين لعروضه لم ينتبهوا إلى التحكم المتفرد في هذه الأشكال المقطعية، وقد فهرسوها دون أن يقولوا شيئا عن أصلها ونسبها.

نذكر بأنه قبل نصف قرن من تأليف الفونسو العاشر لأغانيه الدينية في مقطعات زجلية كان محيي الدين بن عربي قد فعل الأمر نفسه للزهاد المسلمين، وفي المكانة الثالثة يأتي الراهب اليعقوبي الأصغر سنا - من الملك الفونسو العالم - بعشر سنوات، وعادة فإن في هذا الجزء من العصر الوسيط الذي اتفقنا على تسميته العصر المسيحي-الإسلامي، معتمدين على مظاهر ثقافية لاتينية وعربية عديدة، واللاتينية دائما هي الأكثر تأخرا؛ لأن الثقافة الإسلامية وقتها كانت أكثر تقدما في مناح كثيرة.

اليعقوبي هو الشاهد الأول الذي أعرفه من أصحاب المقطع الزجلي في إيطاليا، إنه متأخر أكثر عن المقطع الزجلي في فرنسا وإسبانيا، ولكن هذا ليس سوى صدفة.

هذا المقطع كان موجودا دون شك في إيطاليا مبعدا الشعر الشفهي منذ وقت لم تعرف بدايته، وقد أدين بكونه لم يترك ذاكرة لنفسه؛ ف «شعر الفن» يقلل من قيمة الشعر المقطعي باعتباره شيئا شعبيا ساذجا، والشعراء الفرنسيين هم فقط من رفض ذلك الإهمال، ورفع من شأن الشعر المقطعي لكونهم منتجين للشعر الشعبي الإلهي، كما يسمون أنفسهم شعراء الشعب المقدسين، وليسوا شعراء البلاطات؛ فهم في حماسهم الدينية يميلون إلى التمسك بالأشكال الشعرية الشعبية لتوظيفها في ما هو ديني، وهكذا نستدل على ذلك

(1) محافظة و مدينة في إيطاليا يقطنها حوالي 103150 نسمة مشهورة بعمارتها وبغنائها الزراعي والاقتصادي Gran diccionario enciclopédico durvan, 11 / 4146 [ المترجم ]

(2) بيسا Pisa هي بلدة في إقليم تسكانة Toscana من إيطاليا انظر، 11 / 4146 Gran diccionario enciclopédico durvan [ المترجم ].

بالذبوع الكبير للأغنية الزجلية في الشعر الدنيوي الشفهي.

ولا تقل الشواهد الإيطالية اللاحقة حتى القرن السادس عشر؛ أي يوجد كثير من أشعار الفروتلي fróttœlle الشعبية، وأغان من كل الأنواع التي توظف المقطع مع دور وخرجة، لقد كتب لورنثو دي ماغنيفيكو<sup>(1)</sup> Lorenzo de Magnifico في فلورنسيا في نهايات القرن السادس عشر مدائح أواهة توسلية إلهية في هذا المقطع، في أشعار ذات أحد عشر إيقاعا لتؤدّى في لحن أغان غير دينية شعبية جدا، وقد استعمل المقطع نفسه في ست من أغنياته الكرنفالية الخمسة عشر، التي وضعها لمجموعاته العديدة، التي أراد أن يدعم بها أغاني الكرنفال الفلورنسية، وأيضا حافظ السر والسياسي الكبير مكيا فيلو Mequiavelo<sup>(2)</sup> له قصيدة كرنفالية في هذه المقاطع، كانت تغني أيضا في فلورنسيا، وهكذا أيضا عند كتاب آخرين ينتمون إلى القرن السادس عشر.

### تنوع المقطع الزجلي:

لقد حددنا حتى الآن نماذج عربية ورومانية من المقطع الأولي البسيط، غير نموذج الفتيات المسلمات الثلاث، ولكن يجب أن يكون في حسابنا أن الشعراء وضعوا منذ وقت مبكر جدا الروايات المختلفة التي تحتفظ دائما بمظهر مبدئي لدور وحيد الصوت، فالأنواع المختلفة ستة:

1 - بدلا من أن تكون الأبيات كلها سواء متماثلة الحجم كان البيت أقصر من القفل،

(1) رجل دين مسيحي بل مؤسس فرقة دينية عاش بين عامي 1559 م و 1619 م، وثق فيه كثير من رجال المؤسسة الدينية المسيحية، كلف بتمسيح اليهود، لقب بدكتور الكنيسة انظر Gran diccionario enciclopédico durvan, 9 / 3253 [ المترجم ].

(2) هو الكاتب الإيطالي السياسي الشهير نيكولاس مكيا فيلي (1469-1527) ولد في فلورنسيا وتلقى تكويننا قويا فيما عرف بالإنسانيات في تلك الفترة، وعين سكرتيرا لجمهورية فلورنسيا ثم تقلب وترقى في السياسة وأنتج العديد من الكتب من بينها كتابه الأمير الذي وضع فيه تصوره للسلوك النموذجي لرجل السياسة الذي في رأيه لا يجب أن يخضع للخلق بل للمصلحة، ومن ثم شهر عن أنه أول من نظر للمقولة «الغاية تبرر الوسيلة» انظر Gran diccionario enciclopédico durvan, 9 / 3360 [ المترجم ]

وتقريبا متجاوبا دائما، مع أن تكون الخرجة غير متساوية الأبيات، كما في هذا  
المثال الآتي من الأغنية الموسيقية التي تنتمي إلى عام 1520 م:

هناك وضعتني الشمس

حيث أجد الحب وأملكه

هناك الشمس وضعتني

حيث يراني حبيبي

قبل أن يقتلني بهذا الألم

وعلى هذا الشكل توجد أمثال في العربية والفرنسية والغاليسية.

2 - بدل أن يشتمل القفل على بيت واحد فقط نجده يتكون من بيتين، والمثال على ذلك في  
شعر ابن نمارة الذي ينتمي إلى القرن الحادي عشر، وأمثلة كثيرة في ديوان ابن قزمان،  
وفي منتخبات المقري<sup>(1)</sup>، وأغاني الفونسو العاشر، وديوان دي بائينا Baena البياني،  
وفي ديوان خوان دي الإنثيما Juan del Incima وفي قصائد الرنديلا<sup>(2)</sup> rondela  
القصصية الرقصية؛ الفرنسية والبروفنسالية.

3 - الأدوار لها قواف داخلية ترتبط أحيانا بالخرجة، ويبدو أن هذا التعقيد كان كما يرى  
ابن بسام اختراعا من ذلك المدعو بعبادة بن ماء السماء، المتوفى في مالقة في عام 1028  
م، والذي يُحتَفَظ له ببعض أزجال من هذا النوع<sup>(3)</sup>، وأيضا عندنا منه زجل لابن

(1) يقصد ما ضمنه المقري في كتابه نفع الطيب من موشحات [ المترجم ].

(2) الرنديلا نوع من القطع الشعرية [ المترجم ].

(3) يقصد موشحات؛ إذ لم يصل شيء من زجل لابن ماء السماء، والمؤلف يسوي بين الموشح والزجل وذكر بأنه  
سيستخدم دائما مصطلح الزجل لكليهما [ المترجم ].

اللبانة الداني سابق لعام 1091 م<sup>(1)</sup> في مدح ابن المعتمد بن عباد في إشبيلية<sup>(2)</sup>، وعديد من أزجال ابن قزمان، وكذلك عديد من أزجال ابن عربي هي من هذا النوع، إلخ. توجد أيضا القوافي الداخلية المتماثلة في أغاني الملك العالم [الفونسو العاشر] وفي أغاني الملك ديونيس Dionis<sup>(3)</sup>، وفي مجموع أغاني شاعر بيانة وفي الرونديلات الفرنسية ومدائح خاكوبي في بيسا Pisa، وفي أشعار حب إيطالية تنتمي إلى القرن الثالث عشر إلخ، ولكون هذا الشكل أكثر فنية من الأشكال الأخرى كان أكثر تفضيلا، ونثبت هنا نشيدا من أناشيد الورع لراهب إيتا بقافية داخلية أيضا في الخرجة:

الذين يرينا إياهم القانون - من الصلبان المحفوظة

نحن مدينون لموتهم - يؤلمنا أن نذكرهم

كم من النبوءات - كانت ستتحقق

أولا المفرطون في النواح - كما كان سيأتي

يقول [Isaías] أشعيا] بعد ذلك - ما الذي كان يجب أن يولد

العذراء التي نعرفها - مريم القديسة هنا حاضرة.

(1) وكذلك الأمر بالنسبة لابن اللبانة فلا تروى له أزجال ويقصد المؤلف موشحات [ المترجم ]

(2) يقصد موشح ابن اللبانة في مدح الرشيد بن المعتمد ابن عباد الذي يقول في مطلعته :

في الكأس والمبسم البرود  
أنس العميد

ويقول في خرجته:

لما علوت الملوك شانا

واتضح الأمر واستبانا

وصحح الناظر العيانا

شدوث لا ألوي لسانا

لم يمش خلق على الصعيد  
مثل الرشيد

انظر ديوان الموشحات الأندلسية، تحقيق الدكتور سيد غازي منشأة المعارف الإسكندرية 1979، 1 / 217-219 .

(3) ملك البرتغال (-1261 1325) كان مؤسسا لبعض الأنظمة الدينية ولجامعة لشبونة عام 1290 م ، وكان

شاعرا بارزا بين شعراء القصر ومهتما بالترجمة انظر Gran diccionario enciclopédico durvan.

1817 / 5 [ المترجم ]

الذين يرينا إياهم القانون - من الصليبان المحفوظة.

لقد تُعوّد أن يكتب كل شطر وكأنه بيت قصير، وذلك ما يغير أو يشوه شكل الحزين في الانتقالات أو الأدوار؛ محولا إياه إلى سادس، مثل ما يعمل صاحب ديوان بائينا مع الأغنية المعروفة للسيد بيدرو غونثالث دي مندوثا Pedro Gonzalez de Menduza حوالي 1370 م التي يشكو فيها بعنف من إله الحب:

دون فن أو صناعه      إنني عبدك طاعه  
أيها الحب العجيبُ!      أيها الحب العجيبُ!  
إنها سعد كوؤدُ      قد أراها شاهقاتٍ  
يا إلهي أنت تعلمُ      أنما الحق طريقي  
فذنوبي باعدتي      قد محت عني المعالمُ  
كلّ ما كنت أحاذرُ      كلّ ما منه احترستُ  
هذه أولى هديه.      أعقبت تلك السنية

بعدها حي محالٌ في بلاد الله طُراً

إنها ثلاثة مقاطع كما هذا الذي سلف.

4 - الأدوار بها أكثر من ثلاثة أبيات وذلك قبل العام 1091 م، الذي كان قد أزيل فيه المعتمد عن عرشه في إشبيلية؛ حيث وضع ابن اللبانة في مدحه زجلا [موشحا] مقاطعه الخمسة دور كل واحد منها أربعة أبيات<sup>(1)</sup>، وقد وضع ابن قزمان العديد من

(1) لعله يقصد الموشح الذي يقول ابن اللبانة في مطلع (ديوان الموشحات الأندلسية تحقيق سيد غازي / 1 - 232-234):

غربى مهند  
وما تقلدُ

طل النجيع وفل الأسرُ  
وكان من منتضاه الدهرُ

ويقول في بيته الثاني وما بعده :

يا سائلي عن بني عبادٍ

الأزجال من النوع نفسه.

وُجِدَتْ أدوار من أربعة أبيات، ومن أكثر من ذلك في أغاني العذراء، وفي أمداح خاكوبوني، وفي مدونات [رونديلس] الفرنسية، والأمر نفسه أيضا عند شعراء التروبادور البروفنساليين الذين لم يستعملوا خرقة؛ فالبلانيه Cerramón del planh الذي ذكرناه قبلا - به أدوار من خمسة أبيات.

5 - القفل يتكون من ثلاثة أبيات؛ واحد منها يكون في العادة قصيرا، أو أحيانا الروي الثاني من تلك الأبيات يكون مع الأدوار، والأمثلة لذلك نجدها عند ابن قزمان وعند

حدى بهم في ذكرهم حادٍ فالبيت بيت بلا عمادٍ وما لنا بعدهم من هادٍ	فلي دموع عليهم حمراً وطي ما ضم مني الصدرُ
تنهل سرمد جمر توقد	أين المؤيد قطب المجيد أين الرشيد مع المعتد أين اللذان هما في اللحد أين القرابة زين العقد
فليس يوجد ووجد تجدد	ولّى الجميع وولى الصبرُ من ذا وذاك إلا ذكر أفديهم من نجاد محض
تفرقوا بعضهم عن بعض وصار ما أبرموا للنقض كانوا إذا ما مشوا في الأرض	أحيا الربيع وجاء الزهرُ وسال فوق رباها بحرُ
فيها منضد من ذوب عسجد	عيش كريم محاه الدهرُ أبكيهم ما تراخي العمرُ قصر مشيد وروض نصرُ وربما قال فيه الشعرُ
على المؤيد بعد محمد	بكى البديع وناح القصرُ لم يبق يسرُ وولى البشرُ

محي الدين بن عربي، والأمر نفسه موجود في الأغاني الدينية الغاليسية والقشتالية وفي الرعويات والدوريات الفرنسية.

### الصلة بين المنهجين؛ العربي والغربي:

إذا اعتبرنا الشكل البسيط فقط من المقطع الزجلي والشعر الحزين اللاتيني، مع عدم الاستغناء دائما عن أن الشعر اللاتيني يمكن أن ينتج المقطع الروماني، يمكن أن نفكر في هذا دون إغارة انتباه إلى بيت الدور، وهو ما يضطرنا إلى إقامة علاقة مع الشعر العربي، لم أصل من جانبي إلى الاقتناع بهذه العلاقة العربية الرومانية حتى أنني لم أدرس تماثل الأشكال الثانوية؛ إضافة إلى الشكل البسيط من هذه الخمسة المتعددة المشتقة التي عدناها قبل قليل، هناك الشكل الذي ما انفك دون خرجة الذي ذكرناه أعلاه، وهذه في مجموعها سبعة أشكال من النوع نفسه (دور وقفل وحيدى القافية) سبعة أشكال تتفق بالكامل في الشعر العربي والشعر الروماني، مشكّلة وحدةً عائلية لا تخطئ مع أي حزين آخر، ولا مع أي مقاطع أخرى ذات خرجة، لنشك في الصلة بين الأدب الشرقي والآداب الغربية، كان يجب أن نشرح صدفه هذه الاتفاقات السبعة.

المقطع الزجلي يشكل في عمومها منهاجا مقاربا لنبتة بجذع متأصل في الأرض وفروع بأوصاف هي بالضبط لا نهائية، أين يراد أن نراها تزدهر كان يجب علينا أن نعترف بانتقال البذرة نفسها، وليس الولادة التلقائية أو انتقال بذرة نوع آخر.

أن نتحدث الآن عن اللاتينيات الحزينة هو إضاعة للوقت؛ إذ لا يوجد في الشعر اللاتيني، في القرن الحادي عشر، الحزين مع دور، وكل النظام من المتشابهات؛ مع بيت قصير، مع قواف داخلية في الأقفال أو الأدوار، كما هو موجود في الشعر العربي في هذا القرن؛ أي الحادي عشر.

الاعتراف بأن الاتفاق بين المنهج العربي والمنهج الروماني ذائع بشكل مبدئي وبشكل خاص يوحي بعلاقة بين اثنين، مع إدراك تفوق الثقافة العربية في القرون من العاشر حتى الثالث

عشر، والانتشار على مدى القدم الطويل الذي هو في كل الأحوال تتمتع به الأمثلة العربية الإسبانية، والشرح الأكثر طبيعية لهذه العلاقة الوصلية التشابهيّة يفترض أن الشعر الروماني قد قلد الشعر العربي، كما تؤكد النظرية العربية الأندلسية، وفي الحقيقة يمكن أن يكون هناك أيضا تفسير آخر، وهو أنه لم يفكر أحد في هذه النظرية؛ نعم، فحوالي العام 900م كان مقدم القبري القرطبي يقول الشعر في خرجة مع أصوات مستعربة، ومحمّل جدا أنه كان يقلد أغنية أو قصيدة رومانية أندلسية، وعندئذ يمكن أن هذا النوع من الغناء كان موجودا هو نفسه في الأندلس كما هو الأمر في أقاليم وبلدان أخرى رومانية، وكان قد طوّر أو نُمّي في الوقت نفسه في العربية الأندلسية في عامية مستعربة، وفي الغاليسية، وفي البروفنسال إلخ. الصعوبة في الاعتراف بهذا تكمن في أنه إن وجد مقطع ما في الرومانية منذ القرن التاسع، فسيكون توقع بعض النماذج منه سابقا للقرن الثاني عشر.

### صعوبات غموض الشعر العربي:

ضد هذه الفرضية للنشوء المستقل للنظامين العربي والروماني تبدو الصعوبة الكبيرة للاعتراف بتسرب منهج إلى الآخر في المعنى نفسه في الأغنية.

حتى الآن نحن نتحدث في العلاقة العروضية بين منهجين، ولكن عندما تابعنا ذبوع الزجل حتى في قصة «المواعظ الكنسية أو التعاليم الكنسية» وفي فلسفة المترجمين في طليطلة بدا لنا أن نفترض وجود أثر لمعنى القصيدة العربية على الرومانية، وهنا إذن تتمثل الأسباب الكبيرة للشك.

فبالدرجة الأولى الشعر العربي غير مفهوم، أو هو مفهوم قليلا بالنسبة لشخص أوربي، وابن حيان يشك في أن الكوندي الغازي لبردشتر - وإن كان يربط بالعربية - يفهم معنى الأبيات التي كانت تغنيها الأسيرة، ومن جانب آخر فهو غير معتقد أن الكوندي لم يحضر أي مسلم ثنائي اللغة ليشرح له تلك الأبيات التي تدخل السرور عليه أكثر من أي ثروة معروضة فداء للمغنية، وهذا دون شرح يعني أن المغنية نفسها ومنذ أشهر قليلة من الأسر

كانت قد أصبحت لاتينية اللغة (إن لم تكن كذلك منذ الولادة) لتشرح هي نفسها أغانيها، كما يشرح ذلك كل شاعر شعبي مسلم لأي مستمع مسيحي<sup>(1)</sup>، وفوق ذلك فيجب أن يكون في علمك أيها القارئ أن الزجل شعري شعبي أو عامي<sup>(2)</sup> لا يتضمن صعوبات تحتاج إلى شرح كما هو الشأن في الشعر العربي الفصيح؛ لقد أخبرنا ابن خلدون أن الأندلسيين وجدوا الزجل رائعا بسبب سهولة فهمه<sup>(3)</sup>، وأضاف بأن الزجل منذ بداياته كان يوظف لغة هي مزيج من العربية والرومانثية وهو مزيج مبالغ فيه أمام جمهور روماني.

### ظروف المرأة المسلمة:

ومع اعتبار كل هذا فإن حاجزا كبيرا - كسور الصين - يقف مانعا بأن نعترف بأثر الزجل العربي في الأغنية المسيحية، سيقال: لا يوجد مماثلة عقيدية، بل أكثر من ذلك: لا يمكن أن تكون هذه المماثلة أو المشابهة قد حصلت بين النشيد البروفنسالي والنشيد العربي [الموشح والزجل].

هذا الطرح الخيالي الذي يردده اليوم الكثيرون كان قد عرضه منذ قرن من الزمان غيرمو شليجل Guillermo Schlegel الذي كتب: «لا أستطيع أن أقنع أن شعرا مثل الشعر البروفنسالي الذي يعبر عن الحب الشديد للنساء وعن الحرية المطلقة في التعامل الاجتماعي مع المرأة المتزوجة، كان متطلعا إلى شعب فيه النساء جواري سجينات في سجن محكم» فالحقيقة أن هذا الاعتبار يمثل أمامنا شيئا مهما غير مدفوع، ويجدده اليوم غير واحد من النقاد والمؤرخين للأدب، ولكن الواقع مختلف جدا عن الأفكار البسيطة التي

(1) هذا تعميم يعوزه الدليل أراد منه الباحث استبعاد عمومية التعريب الذي حصل لأهل الذمة في الأندلس [المترجم].

(2) هذا تعميم يسبب تضليلا للقارئ لأن الباحث قال إنه يستعمل مصطلح الزجل للفنين الموشح والزجل، ونفهم من إشارته هنا إلى ما قاله ابن خلدون أنه يقصد الموشح وليس صحيحا أن الموشح شعري شعبي عامي فهو شعبي نعم ولكنه فصيح أيضا وليس عاميا .

(3) قال ابن خلدون متحدثا عن الموشح ونبوغ أهل الأندلس فيه « وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة؛ الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه » المقدمة ص 583-584 [المترجم].

يمثلها ذلك الاعتبار ويرسمها في أفكارنا، فلم تكن السيدة المسيحية في هذه البلاطات البروفنسالية السعيدة متحررة كثيراً، رغم أن تلك البلاطات كانت تمثل في الذهنية الأوربية نوع الحياة الدنيوية الأنيقة؛ فلم تعش السيدة المسلمة أكثر عبودية وحسباً في حريم موريسكي تحت حرس رهيب من الخصيان (1).

امرأة الشمال وامرأة الجنوب (2) تشتركان في أكثر من الجوع أو الفقر المدقع القاسي والتمييز والعبودية الإقطاعية.

نعم قد لاحظ الكوندي ستجك Schack في القرن الماضي أن المرأة الأندلسية كانت أكثر حرية من أي امرأة مسلمة أخرى، ولم تكن بحال من الأحوال حبيسة بأي مفهوم من المفاهيم الإسلامية التي يفترضونها مقدماً؛ نحن نعرف حكايات تكشف كيف أن نساء حرائر كثيرات في قرطبة لم يكن محجبات، وكن يتحدثن مع الرجال في الشوارع، ويواعدنهم للقاء في يوم آخر أو أيام آخر، كما كن يستمعن إلى مغازلات من أفواه الرجال غير المعروفين، ويتجاوبن مع تلك المغازلات، كما يجتمعن في أمكنة عامة في المدينة، إن الحرية التي كانت تعيش فيها في أوائل القرن الحادي عشر ابنة واحد من خلفاء قرطبة الأميرة ولادة مشهورة جداً.

### الحارس أو الرقيب:

إذا نظرنا إلى الجانب الآخر فسيدهشنا من ثم ما يوجد في أغاني وأناشيد الشعراء التروبادور الأكثر قديماً - مثل غييرمو التاسع، وماركابرو - من ذكر متكرر لحارس المرأة، الذي يوظفه في ذلك زوجها أو منافس له وغريم، فالأمر نفسه نجده في الأزجال الأندلسية حيث يُذكر الرقيب؛ أي أن حرية المرأة في البلاطات البروفنسالية وعبودية السيدة في الحريم الأندلسي يتفقان بشكل حزين في النقطة نفسها أي وجود حارس أو رقيب. وصولاً إلى هذا

(1) يريد أن يقول إن المرأة المسلمة كانت مثل غيرها من نساء العالم المسيحي في ذلك الوقت الذي كانت فيه الموريسكية ضمن نساء قصور المسيحيين تعاني أكثر من المرأة المسلمة في غير شبه جزيرة إيبيريا [الترجم].

(2) أي المرأة في الممالك المسيحية المرأة الأندلسية [الترجم].

الاتفاق الداخلي الأول بين الأغنية أو القصيدة البروفنسالية، والزجل الأندلسي يظهر عدم قيمة حديث بلاوتو Plauto وأبيديو Ovidio عن الحراسة البغيضة للفتاة، التي يمارسها الحارس أو الرقيب، ولكن استغناء عن أن أوائل شعراء التروبادور لم يرجعوا إلى أبيديو، وكانوا يجهلون بلاوتو يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن الحراسة تظهر عند أبيديو في تعبير تعليمي تربوي خلال نصائح للمرأة بأن تسخر من الحراسة ليس بوصفها شخصية مكونة للنشيد الغنائي كما يظهر في الأندلس وفي بروفنسيا.

فغيرمو التاسع وكذلك ابن قزمان يشتكيان من الحارس الذي يسبب ألماً وشقاء للمحبين، أو أن هؤلاء يسعدون بإحساسهم أنهم أحرار من رقابة أو حراسة. ولكن وأكثر من ذلك ففي الشعرين، أي شعر الشمال وشعر الجنوب يبدو الحارس ضمن مجموعة من الشخصيات الأخرى التي يلعبها الشاعر.

تضع الغنائية البروفنسالية دائماً بجانب الشاعر ومحبوته- أي الزوجين المحبين البطلين - عدة متنكرين منزعجين متلاشين في آخر اللوحة أو الصورة، أي المفتنين المفتنين أو الموقعين بين الناس العداوة، والمفرقين بينهم، والمزعجين الذين يحسدون ويفسدون المحب، الزوج الغيور، والأمر نفسه نجده في الغنائية العربية وفي حالات ليست قليلة كما كان يعتقد أبل Appel حيث كثيراً ما يُفَرِّج عن العاشق اعتراضه على الوصي المفتن، والنام والحاسد العاذل، كل هؤلاء يتسببون في حزن المحبين وتعاستهم.

لا نجد شيئاً من ذلك في شعر أبيديو Ovidio، نعم إلى جانب هذا نجد عند كاتولو Catulo<sup>(1)</sup> المجهول بين شعراء التروبادور ذكّر المحبين للحسد عندما يتمتعون بأرقى درجات السعادة في الوصل، خائفين من الإصابة بالعين، كما هو الشأن في أي شخص سعيد

(1) هو كايو باليريو كاتولو (84 Cayo Valerio Catulo - 54 ق م) شاعر غنائي لاتيني ولد في برونيا وأقام بعد فترة في روما وكان شاعراً غنائياً كبيراً واحتفظ من شعره بحوالي 116 قصيدة، كانت في المدح والهجاء والمرثي التي صارت شهيرة، بل كانت سبباً في شهرته، وكان يستلهم الشعراء الإسكندرانيين ولكنه ينطلق من تجاربه الخاصة ويتوسع في استلهامهم، كما كان مشاركاً في المناقشات السياسية آنذاك. انظر، 3 / Gran diccionario enciclopédico durvan 1182 [ المترجم ].

متنعم بالسعادة بعيدا عن دسيسة الموقعين بين الحبيبين أو العذال، نعم يوجد عند تيبولو Tibulo<sup>(1)</sup> ذكر الزوج ليس بالتأكيد هو الغيور وإنما على العكس تماما، بل هو الزوج المستعذب أو الملائف جدا لمن يطلبه المحب المحتقر للزوج نفسه، الذي يحفظ المرأة ويمنعها من أن تستسلم لغريمه.

في شعر كاتولو يمكن أن ننبش ملامات أو عذل الشيوخ المهممين، والذي لا نجده في أي مكان هو إعادة هذه الأنواع، مجموعة هذه الشخصيات المتفقة لتكون ظلا للشخصين المحبين.

### الحب النبيل [العذري]:

باختيار مشابهاة داخلية أخرى بين القصيدة الأندلسية [الموشحات والزجل] والبروفنسالية يضيف خيانروي Jeanroy الشؤن الوعة أو الحشنة، الإهداء إلى راع ماء، المديح الذي يقوم به الشاعر إلى قريحته الخاصة، وبعض الأشعار الأخرى المماثلة التي ستكون كثيرة، ولكنه ترك استخراج نتائج من ذلك، لأنه يحكم على الشعر العربي بكونه يوجد به -إلى جانب مقدمات للحب العذري - الشغف الخطير جدا، وهو نبيل في نعمته كما يرى مثلا عند برنارت دي بنتادورن Bernart de Ventadorn وكما يصوره غيرمو التاسع نفسه بشكل واضح، ولكن اليوم وبعد نشر أسين بلاثيوس Asin Palacios دراساته عن ابن حزم القرطبي<sup>(2)</sup>، وبعد أن صارت ترجمة ديوان ابن قزمان ذائعة ومنتشرة، وكذلك ترجمة ابن حزم التي قام بها نيكل Nekl، وبعد دراسات غرسية غومس عن الشعراء الأندلسيين، وبعد كتاب هنري بيريس H.Pérés عن الشعر الأندلسي في العربية الفصحى، بعد كل هذا من غير الممكن الدفاع عن الاعتقاد بوجود حب حسي

(1) هو تيبولو البي Albie شاعر رثاء لاتيني توفي عام 19 قبل ميلاد المسيح انظر Gran diccionario enciclopédico durvan, 13 / 5038. [المترجم].

(2) من دراسات أسين بلاثيوس عن ابن حزم ترجمة كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتابه «ابن حزم طبائعه وسلوكه وصفاته وأخلاقه» الصادر في مدريد عام 1916. [المترجم].

بالكامل في الشعر العربي مقدمة للحب العذري.

إذا كانت المرأة في بروفنسيا لم تستطع أن تكون حرة بالكامل طبقا لما رأيناه أعلاه، وليس كما كان يُعتقد، فإن المرأة الأندلسية لم تكن مستعبدة أو مملوكة أو جارية، وإنما كانت سيدة مُطلقة لمحبوبها. تتجه أفكار قديمة جدا إلى هذا التعظيم أو التمجيد المعبر عنه في الأدب العربي قبل الإسلام، والمصاغ فيما بعد عند الاتصال بالفلسفة الأفلاطونية<sup>(1)</sup>.

### سمو المحبوبة:

يتأمل الفيلسوف القرطبي في كتابه عن الحب<sup>(2)</sup>، المحرر في عام 1022م، غزلا مثاليا يتفق في كثير من النقاط مع الحب عند شعراء التروبادور الذي يجعله أبيديو دائما في المقدمة، وهو أي أبيديو، نجده في شعره رهينة - غير موفق كثيرا - لبعض إيجاءات شعراء التروبادور في العصر الأول، أي شعرهم الذي يبحثون فيه مع التزام غير مقبول عن بعض الإيجاءات.

يتناول ابن حزم بخاصة موضوع المحب الخاضع والمتنازل عن إرادته للمحبوبة، إنه موضوع خالد في الأدب العربي؛ حيث نجد الخليفة القرطبي الحكم الأول (ت 822م) قد جعل ذلك موضوعا في شعره، ممتدحا شرف تحكم الحب (الاذعان شيء جميل من رجل حر عندما يكون هو عبدا للحب)<sup>(3)</sup>

(1) انظر الشعر الأندلسي لغرسية غومس ترجمة حسين مؤنس ص 59 [المترجم].

(2) يقصد كتاب طوق الحمامة. [المترجم].

(3) يقصد الكاتب الإشارة إلى شعره جاء في النسب منه قوله (الحلة السبراء لابن الأبار تحقيق وتعليق حسين مؤنس ط2 دار المعارف مصر 1985، 1 / 49 :

ظل من فرط حبه مملوكا	ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكا أو شكا الهوى زيد ظلما	وبعادا يدني حماما وشيكا
تركته جآذر القصر صبا	مستهما على الصعيد تريكا
يجعل الخد واضعا فوق ترب	للذي يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل في الحب	بيذا كان في الهوى مملوكا

فبين أيدينا هنا فكرة توأم لفضيلة الكرم والتبجيل في الحب عند شعراء التروبادور، وعند الاعتراف بالسلطة التي تملكها المحبوبة على حياة المحب جميعها، كما هو موجود عند غيرمو التاسع في نشيده 8،9 وعند ثيركامون في أنشودته الأولى وعند لاحقيه الآخرين.

### الخضوع خدمة للحب:

هذا المفهوم من المحب المطيع يحمل على تجربة الخضوع عند الشعراء الأندلسيين وكان ابن زيدون قد قال في بدايات القرن الحادي عشر (1):

يكفيك أنك إن حمّلت قلبي ما لا تستطيع قلوبُ الناسِ يستطع  
تَهْ أحتملُ واستطلُ أصبرُ وعزَّأهنُ وولَّ أقبَلُ وقلُّ أسمعُ ومُرُّ أطمعُ

وتقول الحكمة العربية في سياق ديني، فيما اقتبسه كتاب « تعاليم كنسية»: اخضع أيها المحب، وكذلك يستعمل غيرمو دي أكيثانيا اسم الفاعل من الفعل خضع كمرادف للمحب أو العاشق (2) وقيم النشاط العام للعاشق بالخضوع والذل (القصيدتان 7، 11) وقد استعمل شعراء تروبادور آخرون تعبيرات الخضوع في الحب، والطاعة في الحب، وخدمة الحب مشبهين طاعة السيدة المحبوبة وخدمتها بطاعة الشخص الذي يعيش في الإقطاعية لصاحب الإقطاع، وهو أمر وجد قبل كثيرا في الأدب العربي، ففي المشرق وفي بلاط هارون كان الشاعر عباس بن الأحنف المتوفى عام 806 م يقارن الحب بالطاعة العسكرية (3) وعند ابن حزم فإن المحب هو مطيع وخاضع لمحبوبته التي يناديها بسيدي

(1) الذخيرة لابن بسام 1، 1 / 371 [ المترجم ]

(2) انظر المقطع المقتبس أعلاه ص 29 [ يقصد الكاتب مقطعا لغيرمو اقتبسه الكاتب مستشهدا به وهو في هذه الترجمة ص 19 ] المترجم [ .

(3) انظر دراسة هذه القضية في L, Ecker, Arabicher, provenzalischer und deutscher Minnesang. Bern 1934, pag.156, etc حيث يحدد بشكل عام الأصول الأولى للحب الشريف (العذري) في الأدب العربي بين العرب Minnesng “ (el) هو أمر كامن في كل العهود بينما هو بين البروفنساليين والألمان كان نوعا من الموضة العابرة، ذلك الأصل لا يوجد في الأقطار المسيحية، وإنما فقط في البلاد الإسبانية الأندلسية .

ومولاي في ضمير المذكر وليس المؤنث<sup>(1)</sup>، كما هو الشأن في العادة في الشعر العربي من استعمال المذكر للجارية للسمو بالمرأة المحبوبة<sup>(2)</sup> وهي تعبيرات من غير الممكن ألا تتعلق بالمذكر المستعمل من قبل شعراء التروبادور بدلا من المؤنث.

لكن طاعة المحبوب في شعر أوائل التروبادور لا تبدو ذات أصل أوربي، ليس لها المعنى الإقطاعي الغربي الذي تبنته فقط فيما بعد، فالأصل الأوربي لا يتبنى كيفية الطاعة الإقطاعية وفاء ومساعدة متبادلين بين السيد والمسود، أو السيد ومن يعيش في إقطاعيته، إنما هو الخضوع التعبدي إلى سيدة مستبدة ناكرة للجميل، وهذا هو إحساس الشعراء العرب.

يصرح ابن قزمان في عدة أزجال له (52،134) بواجب المحب وهو الخضوع المتواضع والراضي عن آمال المحبوب ونزواته وظلمه<sup>(3)</sup>.

### الحب دون جزاء:

لا نجد سوابق من هذا النوع في الأدب اللاتيني، فالطاعة أو اللطافة التي يمنحها أوفيدو Ovidio أو تيبولو Tibulo إلى المحبوبة أمر مادي تافه، من مثل وضع المرأة في الحقيبة أو في دولاب الزينة؛ أو أن يربط لها خيط النسيج الأبيض، وأن يفتح لها الطريق

- (1) ذكر ابن حزم بابا بعنوان باب الطاعة (طوق الحمامة تحقيق حسن كامل الصيرفي وتقديم إبراهيم الأبياري المكتبة التجارية القاهرة ص 42-43) لكنه لم يذكر شيئا عن المخاطبة بسيدى ومولاي [المترجم]
- (2) H. Péres ; La poesie andalouse en arabe classique, 1937, pag. 416. الاستعمال الإسباني في قول سيدي والسيد للمحبوبة لا علاقة له بما يشبهه في البروفنسالية؛ لأنه ليس خاصا باستعماله في لغة الحب وإنما هو عام كما هو عند كالديرون انظر R. J. Cuervo ; Apontaciones críticas sobre el lenguaje bogotano , 1907 , 180 y Bello ; Gramatica , 52. وإن كان Cuervo لا يعتقد في هذا الاستعمال المشترك للفظ سيدي أو مولاي فهو ناتج أنه جاء من كونه بداية لغوية ترجع إلى نفور من السيدات أو الخادومات اللاتي شهرن بأنهن عجائز قبيحات ومهممات، يقول ثربانتس الشائن المهين والحقير ينتمي إلى جنس الدامات أو الموالي من جنس النساء.
- (3) انظر الزجلين ذوي الرقمين المذكورين من ديوان ابن قزمان تحقيق وترجمة فدريكو كرينتي المعهد الإسباني مدريد 1980. [المترجم].

في الشارع لتمر بين خليط من الناس الرعاع، أو أن يترك لها فرصة لتنتصر عليه في اللعبة، أو لا يكون معارضا لها، كل ذلك من الفن الذي من شأنه أن يجذب، ولكنه لا يشبه في شيء الاستسلام التام في الوجود الخاص في يد المحبوبة، دون وجود موافقة منها؛ دون أمل أو انتظار السيطرة.

التمتع بالحب دون جزاء تفنن لم يخطر قط ببال أي روماني، وقد كثر أولا عند الشعراء العرب، وعند الأندلسيين خاصة، ويظهر بعد ذلك عند الشعراء البروفنسالين؛ ففي زجل لابن اللبانة الداني سابق للعام 1091 م، وكنا قد ذكرناه أعلاه، يتناول قسوة المحبوبة ويراهها سيفاً سل من غمده ليقطع الأمل « ولكن قلبي - يضيف العاشق - مليء باستعذاب ذلك نحو تلك التي تعذبني »<sup>(1)</sup> وتترد أفكار مشابهة لذلك في أزجال ابن قزمان؛ العاشق يحس دائما بأنه متفق مع الظلم الذي تسببه له المعشوقة: « ما أعذب الحب وما أمره... كوني متمنعة أو لطيفة، احكمي عليّ كقاض، متعيني أو عذبيني (13)... أثيري غضبي.... افعلي معي ما تشائين (14). ونجد الأمر نفسه بين الشعراء التروبادور فالعاشق - ودون أن يكون معاملاً بالمثل - يخضع لقرارات المحبوبة القاسية كما يقول بيرنارت دي بنتادورن (30) Bernart de Ventadorn:

«حسنا.. هي تفكر فيّ، وهي تفعل بي ما تمليه عليها نزواتها، لكنني أقبل كيف تفكر

بي.

أبكل إرادتك تبيعييني أو تهديني؟ سيكون كله متعة لي » (26)

سيحبها بعد أن يكون ميتا وموارى في التراب، سيحب السيدة التي لا تسمعه أو

لا تكثر به.

(1) الكاتب ليس دقيقا في الإشارة إلى مصادره ومراجعته فهو يذكر أولا موشحا مشيرا إلى موضوعه دون تحديد مصدر ونحاول أن نحسن ذلك النص الذي يشير إليه، فيعود ليشير مرة أخرى بأفكار ينسبها إلى الموشح السابق نفسه وليست فيه فيما فهمت [ المترجم ].

## معاناة مستعذبة:

الصدود والصرامة في أزجال ابن قزمان تسعدهما المحبوبة، وذلك سبب السرور بالنسبة للعاشق (52)، فعذاب الحب لذيد جدا (140) وكلما كان الحب مرا كان أكثر عذوبة (132) وكان الشعراء التروبادور أيضا يتمتعون بالجرح في الحب « لقد قتلتني بنعومة فائقة » كما يقول ثيركامون:

هناك غيبتني بنعومة كبيرة.

البكاء والشهقات كلها أمور مستعذبة، والجرح لذيد بالنسبة للعاشق كما يرى بيرنارت دي بنتادورن (44,31) وكذلك يشعر أليغريت Alegret « إذا أسرَّ المحبوب أن أموت، ألا أكون حبيبا له؟ فإن في ذلك متعتي وسروري وهو جيد لي ».

من الطبيعي أن تكون المعاناة وبكاء العاشق موضوعا مستعملا في الغنائية اللاتينية كما في كل الغنائيات، ولكن استعماله حاجزا متنقلا مانعا من التملك المنشود هو - بالعكس - الإحساس باللذة في هذا الألم، وهذه المعاناة ومن ثم قبولهما صبرا على المكروه دون محفزات منتظرة من الأمل؛ إنه حماسة مهذبة غريبة على الحساسية الرومانية، ويظهر حدثا أو عملا جديدا في الشعر العربي وفي الشعر البروفنسالي، الجوهرة أو الحماسة الغزلية ممتزجة بالضبط مع الحزن والعذاب، أو حزن وعذاب الشهيد عند برنارت دي بنتادورن (44) ويفاجئنا أيضا وجود أحاسيس مصاحبة للسعادة عند العاشق، كانت موجودة في شعر الشعراء الأندلسيين في القرن الحادي عشر، أو تحفة الطرب وألم الحب، أو الوجد وطرب الحب الناتج عن العذابات المحرقة كما قال ابن عمار المتوفى عام 1084.

هذه الموضوعات جرت أيضا في الشعر العربي المشرقي، ولكن ليس كثيرا مثل ما في الشعر الأندلسي.

## مشابهة أخرى:

يعترف خيانروي Jeanroy بالرغم من ارتياحه في ذلك ببعض حالات المشابهة الكلية بين أشعار بروفنسالية وأخرى أندلسية، وسنركز الآن على بعض تلك الحالات:

فالقصيدة رقم 5 من أشعار غيرمو دي أكيثانيا بها مقطع هو زجلي بالكامل؛ حيث يسخر الشاعر من نفسه حاكيا لقاء فاحشا في سفر حدث له مع السيدتين إيناس وإرميسندا والأمر نفسه نجده عن ابن قزمان؛ حيث كان يتمتع بتقديم نفسه في أزجال عديدة في مظاهر ساخرة، قاصا مغامرات حدثت له مع بعض نساء الغرام في واحد من أسفاره العديدة التي يضطره إليها وظيفته، أو حدثت له مع جميلة تجعله في مشهد أضحوكة للحاضرين، أو مع زوجة أحد جيرانه، أو مع راقصة بربرية، نعم في تلك القصيدة رقم 5 غيرمو التاسع؛ الشخصية الكبيرة وسيد الولاية التي هي الأكبر من سيدها نفسه؛ ملك فرنسا، يتساوى مع شاعر شعبي كثير الأخطاء، ويظهر هذا السيد شقيا وغدا بسبب تقليد شعر شعبي وجد قبله متأثرا بالشعر الزجلي، فهذه السخرية من الذات كانت موضوعا مفضلا لدى الشعراء الشعبيين، وهو ما يشير باستمرار وجودها في القرن الرابع عشر؛ حيث طورها راهب إيتا Arcipreste de Hita.

أيضا القصيدة رقم 7 لغيرمو تتمظهر كلها بمظهر زجلي بشكلها المقطعي، وبديابقتها المستدعية للربيع، وهو أمر مكرر كثيرا في أزجال ابن قزمان، بتعبيره عن الاستسلام للمقادير أمام مكاره الحب، واستعراض المذهب المذكور من الخضوع، وأخيرا وفوق ذلك بإثبات الجزأين الرئيسيين من القصيدة العربية؛ الجزء المكرس للحب، ثم الجزء المخصص للمديح بعد انتقال فجائي خشن، ويمدح الشاعر نفسه شعره بعد ذلك الانتقال، ويرسل قصيدة المديح إلى شخصية مون إستيبي Mon Esteve.

لفت ريبيرا Ribera الانتباه إلى الزجل رقم 14 لابن قزمان، الذي يعبر فيه عن تهكم ساخر من معركة مع مغنية فجرية، تغني - مع نوع من الفكاهة والدعابة -

افتراق المحبين، وفي زجل رقم 82 وبالتحديد في المقطع الأخير ينزلق على لسانه بيت في اللغة الرومانشية:

أبا أبا إش دي لج أنون ذيه<sup>(1)</sup>

Alba alba es de luz en un día

وهو لاشك خرجة لفجرية مستعربة، كل ذلك يثبت أن الفجرية في اللغة الرومانشية كانت جنسا شعبيا في الأندلس نصف قرن قبل أن تكتب الفجريات البروفنسالية الأولى المحتفظ بها، وهي تنتمي إلى أواخر القرن الثاني عشر، هذه الفجريات البروفنسالية تتضمن في خرجتها كلمة أبا؛ أي الفجر، مكررة في بعض الأحيان، كما في المنسوبة بضعف إلى رمباوت دي باكيرس Rimbaut de Vaqueiras (ازدهر 1180-1207 م):

«أيها الفجر .. أيها الفجر، اسمع يا أيها الفجر»

وقبل ذلك بكثير كان يغنى في قرطبة أيضا: «فجر، يا أيها الفجر»

### خاتمة:

تكفي المقارنات التي قمنا بها لإقامة علاقة تاريخية بين القصيدة الأندلسية تلك التي يظهر أول شاعر فيها في نهايات القرن التاسع، والقصيدة البروفنسالية التي كتب فيها أوائل من وظفها من أولئك في أوائل القرن الثاني عشر، المفهوم المثالي للحب يؤرخ في الأدب العربي المشرقي منذ أزمنة ما قبل الإسلام، وقد ردد الشعراء الأندلسيون ذلك المفهوم وطوروه مغنين بذلك منذ القرن نفسه، أي القرن التاسع، فالسلطة الحقيقية التي يملكها الحب فوق عبيده فكرة لا تظهر في الآداب الرومانشية حتى زمن شعراء التروبادور الأوائل في القرن الثاني عشر، يجب علينا أن نعترف بوجود علاقات بين الأدبين، وهي علاقات متفردة جدا وهي وحيدة جدا في كونها غير

(1) ديوان ابن قرمان ص 526 ومعناها أيها الفجر يا لك من نور ناصع في هذا اليوم [ المترجم ] .

مشروحة، دون أثر واحد من الأدبين على الآخر.

ومن غير الممكن أن نعيد اليوم القول: إن الشعر الأندلسي كان متموضعا أو مستقرا في مقدمات الحب العذري، لقد رأينا أن المرأة في الإسلام بعيدة جدا عن أن تكون فقط المستعبدة الجارية كما يعتقد الكثيرون، فمع شليجل هي هدية النسيان في محارب الحریم، وهي تقدم له الخدمات في السجن.

وهذا ليس في الأدب فقط وإنما أيضا في العادات والتقاليد التي يتطلع إليها أو يراعيها الأدب، لن يكون عند مؤرخي الغرب اعتراف ذو أهمية وصدى بالأحاسيس النبيلة والشريفة مثل التي يحكيها تاريخ امبراطورية الأمراء المرابطين في المغرب: حيث هاجم هؤلاء طليطلة في عام 1139 م لأجل إلهاء وشغل قوات الإمبراطور الفونسو السابع الذي كان محاصرا لقلعة أورليا Aurelia، فأرسلت الإمبراطورة القطلونية الشجاعة السيدة برينغويلا Berenguela المدافعة عن طليطلة رسولا ليقول للمرابطين المحاصرين: «لماذا حطمت المرج وما حوالي هذه المدينة؟ لأجل الحصول على شرف زهيد من الحرب ضد امرأة؟! إذا أردتم الحرب اذهبوا لحرب زوجي الذي هو أمام قلعة أورليا» هي نفسها عندئذ تُركت لتظهر في أعلى قلعة في القصر الطليطلي مصحوبة بفرقة من الفتيات اللاتي كن يغنين في صوت مصحوب بالطبلة والقانون.

رفع الأمراء الأفارقة عيونهم غارقين في تأمل الإمبراطورة مطوقة بذلك الموكب من المغنيات فمالوا محترمين، وانسحبوا دون أن يحدثوا أكثر ضررا بالمدينة، هذه الصورة الوردية تكشف لنا جيدا إلى أي حد كان لهذه الأحاسيس المهذبة من النبل والسمو جذور عميقة في الحياة الإسلامية، كم تحدث عنهم المسيحيون، وكم يحكي عنهم أو معهم المسيحيون، وعندما يثمنون السيدة والأغنية الموسيقية وإن كان المسلمون هم المرابطين الذين هم بالنسبة للأندلسيين المعاصرين لابن قزمان غلاظ متبررون بصورة مضحكة.

السابقة الأولية نفسها بالنسبة إلى الحب الشريف تكشف أو تبين الشعر الأندلسي المقارن بالشعر البروفنصالي وغيره من الأشعار الرومانثية الأخرى فيما يتعلق بالشكل المقطعي، وهذا عندما يتعلق بالتنوعات السبع للمقطع مع قفل وحيد الصوت، مع اتفاق السبعة في اللغة الشرقية واللغات الغربية.

بالنسبة إلى النقاط الأخرى من المشابهة التي أشرنا إليها، والتي كانت بين الشعر الأندلسي والشعر البروفنصالي، نستطيع أن نضيف أخريات غير قليلة، تأتي أيضا لتثبت بدورها أثر الواحد في الآخر، ومع ذلك فإن الشك يبقى دائما ممكنا، وإن كان في جانب وجود تأثير ما، إضافة إلى ذلك فإن فرصة اللحظة التاريخية في امتداد الحكاية العربية الأندلسية إلى أوروبا وكذلك الفلسفة العربية الأندلسية تجعل من الحق أنه لا رأي يبقى دائما متمسكا به، أجل لاشيء من علوم الروح يمكن إثباته بالتجربة، ويمكن أن يكون غير مناقش، ولكن افتراض أن كل هذه المواصفات المشتركة في الشكل والمضمون كانت قد وجدت في كل أدب على حدة من جانبي البرتات أي في الأندلس وفي الغرب، يكون أكثر من مجازفة.

الحل الآخر بالنسبة لغنائية منتشرة في الأقطار المتحدثة بالرومانثية في زمن مقدم القبري، إذا لم يكن الاعتراف فيما يتعلق بالعروض فإن الاعتراف بالكل غير ممكن عندما يتعامل مع شرح مشابهاة في الموضوعات التي هي مفهومة أو مقبولة في الغرب الأوربي أثناء القرن التاسع أو العاشر، هكذا يأتي الموضوع ليخدمنا في إسناد الحب الشريف الذي كان ينظر إليه بصعوبة كبرى لإقامة علاقة للغنائية البروفنصالية مع الغنائية الأندلسية.

من جانب آخر يجب أن نحذر أو ننتبه ضد ميل مبالغ فيه، فالانطباع الأول الذي يمكن أن يُنتج مشابهاة عديدة يحمل على الاعتقاد أن الغنائية البروفنصالية وُلدت نتيجة تقليد للغنائية الأندلسية، ولكن هذا الاعتقاد ليس دقيقا، فإلى جانب

هذه المشابهات توجد اختلافات كثيرة تفترض أصولاً جد متعددة؛ يكفي أن نعتبر الجزء الخارجي من العروض؛ فعند غير مودي أكيثانيا خمس قصائد لها مقطع مع قفل وحيد الحركة أو المقطع، وبين إحدى عشرة قصيدة يُحْتَفَظُ بها لشيركامون واحدة فقط من ثمانية، ومن شعر ماركابرو سبعة قصائد فقط من ثلاثة وأربعين، وبعد هذا الجيل الأول من شعراء التروبادور صار المقطع الزجلي أكثر غرابة، إلى درجة الاختفاء، وبقي منفياً أو مبعداً إلى الشعر الشعبي؛ فالطرق المقطعية المتعددة التي هي دائماً أكثرية تشير إلى أصول أخرى ومتنوعة مختلفة عن الأندلسية التي تُرى ناضجة أو جاهزة فقط في شعر غير مودي الذي أنشأ الشعر الجوال المهذب.

يرجع ميلاد الغنائية البروفنسالية إلى الغنائية الشعبية التي وظفها الشعراء الشعبيون الغربيون، وكذلك كتاب النثر اللاتين من رجال الدين، يجب أن يكون هذا الميلاد نابعا من حياة البلاطات الجنوبية نفسها، ذات الأبهة الاحتفالية؛ حيث تفتخر السيدة الإقطاعية الأكثر صيتاً وتظهر جاذبة لرعاياها، فالشاعر الجوال (التروبادور) استطاع أن يرى في سيدته السيدة التي يخدمها مع خضوع الحب، كما يخدم السيد نفسه بمناولته سيفه وإعداده لحصانه، ولكنه كان عليه في ذلك الوقت أن يعاني - مبدئياً في أكبر عهد للانتماء الإسباني الأكيثاني - أثراً أندلسياً مهماً لتقبل أو حمل الخدمة في الحب، ليس بالضبط كخدمة للفروسية التي كانت قانوناً تتطلب أن تقابل بالمثل من قبل السيد، وإنما هي كاستسلام متواضع إلى سيدة استبدادية جائرة.

تلك الصرامات يستحسنها المحب، وذلك تأثير أو أثر للإحساس بالحب بطريقة جديدة كأمل بعيد المنال، كعذاب مستعذب، تأثير في بعض الأحيان لاستعمال مقطع مع قفل وحيد الصوت، وفي المجموع فإن القصيدة البروفنسالية لم يمكن أن تولد إلا في البلاطات الجنوبية من فرنسا، ولكن لم تولد دون تدخلات مهمة من الغنائية العربية الأندلسية.

استغراب التأثر يُدلل عليه بمحدودية استمراريته؛ فالآثار الأولى ذات فاعلية كبيرة، وبعد ذلك فإن المقطع مع قفل وحيد الصوت سيُنسى، وبعد انقضاء الجيل الأول من التروبادور ستنسى بعض التصورات الثانوية من القصيدة، ومن بين ذلك الحارس، الحب غير المرضي المشرف للنفس، الحب الشريف تجذر ونمى نمواً أكبر، ولكنه فتح من جديد طريقاً للعاطفة الطبيعية في التقليدية القديمة.

### الشعر الإسباني الروماني الأولي:

نتجاوز ما كنا فيه إلى شأن آخر أخير، ألا وهو ما العلاقة التي كانت للغنائية العربية الأندلسية مع الشعر الروماني في شبه الجزيرة الإسبانية [الإيبيرية]؟

وهذا يوصلنا إلى قضية أولية العنصر الروماني الذي انطلق منه مقدم القبري لتشكيل أو تكوين نوع قصيدته، فابن بسام يقول لنا إن مقداً كان ينشد في لغة عربية شعبية ممتزجة بالأعجمية أو الرومانشية المستعربة الأندلسية على الأقل في الحرجة، التي هي عنصر غريب على الشعر العربي، ولذلك يبدو أن مقداً اخترع له اسم المركز على حد قول ابن بسام.

يعتقد [خوليان] ريبيرا Ribera أن مقداً [ابن معافى القبري] ليس بالضرورة أن يكون قد انطلق من غنائية رومانشية أندلسية، وإنما يمكن أن يكون قد انطلق من غنائية وردها الغاليسيون إلى الأندلس، يؤسس ذلك انطلاقاً من أنه كان بين الكثير من الجنود والعبيد البشكنس [الباسك] والفرنسيين والقطلونيين والجرمان والصقالبة الذين تكاثروا في قرطبة كان بين هؤلاء الكثير من الغاليسيين المثمنين لجمالهم الجسدي ولعبقريتهم وذكائهم ومهارتهم، وكذلك الغاليسيات كن مفضلات لجاذبيتهن لاتخاذهن إيماء أو لعنتهن والزواج بهن، فالأهمية الخاصة التي كانت للغنائية الغاليسية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر جعلت ريبيرا يفترض أنها كانت قد ازدهرت في العصر الأولي، ولكن تصديراً ما للغنائية الغاليسية إلى قرطبة هو افتراض ليس له دليل يسنده، وهو

إضافة إلى ذلك زائد عن الحاجة، كمن يحمل التمر إلى هجر؛ لأن الجنس الشعبي الأندلسي يظهر لنا في كل العهود كالأكثر أصالة وانتشارا في إسبانيا.

هذا الزجل المهجن من العربية والرومانشية المخترع في القرن التاسع في قرطبة هو تقليد للنوع الحزين مع قفل وخرجة، وهو مستعمل بين المستعربين في بيتيكا Bética [إقليم جنوب النهر الكبير في الأندلس] مصاحبا لحزين عربي فارسي [دو بيت] مع خرجة مستعربة، لقد قلنا بوجوده متساويا في الشعر الرومانشي الشمالي في إسبانيا في اللغة الغاليسية أو اللغة القشتالية، موثقا منذ بدايات القرن الثالث عشر، حتى القرن السابع عشر، وبأكثر تجذرا في قشتالة وبأقل في غاليسيا، لا نعرف شكلا مقطوعيا أصيلا كان موجودا في واحدة من هاتين المنطقتين، وكان في البدء مشتركا لكل إسبانيا، أو كان مُصدرا من الأندلس، وهذا الثاني هو ما يبدو الأكثر احتمالا.

### الدواوين الغاليسية البرتغالية:

الغنائية الأولى التي نمت في لغة تنتمي إلى شبه الجزيرة الإيبيرية هي الغنائية الغاليسية. كان القطلونيون يقولون الشعر في البروفنسالية أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أما القشتاليون فكانوا يغنون بعض الأغاني في لغة خاصة، ولكن بالتالي كانوا يكتبونها في اللغة الغاليسية، فالغاليسية ولدت مختصة في جنس ملحمي، الدواوين الكبيرة الثلاثة في الغاليسية البرتغالية<sup>(1)</sup> تعاون فيها كثير من الشعراء القشتاليين ميلادا، وهي تقدم لنا شعرا متأخرا إلى حد ما، مقارنة بالشعر البروفنسالي الذي تأثر به شعر تلك الدواوين، وكما أن الغنائية البروفنسالية تكشف فقط مشابهة مع الأندلسية في الجيل الأول من جواليها لا يستطيع استغراب أن هذه المشابهات تنعدم في الشعر الغاليسي اللوسيتانو، حيث لا نجد

(1) Véase , E. Monaci; Il Cazioniere portoghese della biblioteca Vaticana , Halle, 1875; E, Molteni; Il Canzoniere port, de Colecci-Brancutti, Halle, 1880( el manuscrito par ahoy en la Biblioteca de Lisboa) , C. Michelis de Vasconcellos, Cancionero da Ajuda

فيها أثرا من الصور الثانوية من الوشاة والعدال.

لا يظهر الغيور أبدا ولا الحارس، لا شيء من ميدونس midons ولا شيء من المشابهة نجدها في القصائد البروفنسالية القديمة مع الشعر الأندلسي.

ربما إذا كنا نحفظ بأغاني Cantigas الشاعر الشعبي في شنت ياقب Santiago de Compostelas أي الشاعر باخا Paja المعاصر لماركابرو سنفاجا فيها ببعض المشابهات الأندلسية في المضمون.

بالنسبة لما يتعلق بالشكل فإن الشاعر رودريغس لا با Rodrigues Lapa فقط هو الذي يسجل أغنية دينية واحدة فقط من ديوانيه الأكثر قدما لها شكل زجلي، ولكن في الحقيقة يوجد حوالي 60 قصيدة منسوبة إلى الجوالين الأكثر قدما مثل السيد لوبي دياث Lope Diaz وإلى الأكثر حداثة مثل الكوندي دي برثيلوس De Barcelos لها شكل زجلي، وهو عدد قليل؛ إذ يمثل 4% من مجموع 1600 قصيدة، وهو مجموع قصائد ديواني هذين الشعارين، ولكنها وإن كانت قليلة فهي تكفي لبيان مميزات وتطورات الشكل الزجلي، وهي مميزات مختلفة بالكامل عن التي وجدناها في مقاطع شعر الجوالين، الخاضعة إلى تأثير أندلسي مبدئي أو التي لها أصول وطنية تقريبا.

كل الغنائية الغاليسية - البرتغالية البلاطية تنقسم إلى أسلوبين، طبقا للشعرية القديمة المعروضة في دواوينها، أسلوب لاس كانتيجس دي ميستريا Cantigas de meestria هذه التي تخلو من الخرجة على طريقة الاستعمال عند الشعراء البروفنساليين، وتوظف تأليفات من قافية مقلدة في معظمها من الغنائية البروفنسالية، إنه الأسلوب الأكثر أناقة، وأكثر من كونه موضة أو تقليدا.

الأسلوب الآخر أغاني رفرام Cantigas de reframe ويتميز كما يشير اسمه باستعمال الخرجة رفرام، ورغم أن تلك الغنائيات من النوع الزجلي، فهي قليلة جدا كما رأينا قبل قليل، والأغلبية تستخدم أشكالا مقطعية أخرى، وبخاصة (المتعارضة مع القليل

الذي يستعمل الزجلي الحزين) التي توظف كثيرا نظاما مقطوعيا ديستيكو (من بيتين) حيث يُنمى بمجاذبات متوازية، سببٌ حسي وحيد، مع إعادة الفكرة في المقطع الثاني، بل حتى الكلمات في المقطع الأول، ولكن بقافية مختلفة، كما في الفجرية المتفردة للفارس نونيو فرناندث توميول Nuño Fernandez Torneol الموضوع على لسان المحبة:

استيقظ يا صديقي، لا تنم حتى غد، حتى صباح بارد

كل طيور العالم؛ عالم الحب تقول:

استيقظ يا صديقي لتنم كل الصباحات الصقيعه

كل الطيور بعالم تتغنى، كل الطيور بحبها تتغنى

لقد بينت - منذ وقت - أن المقطع الموازي شكلا يمثل ملامح وأصالة الغنائية الغاليسية البرتغالية، والمقطع الزجلي شكلا أكثر خصوصية بالغنائية القشتالية<sup>(1)</sup>، ولا يعني هذا أن غاليسيا وقشتالة لم تستعملا أشكالا زجلية موازية؛ فالمقدمة الهيمنة بالنسبة لكليهما تفضل الافتراض أن المقطع الزجلي كان يشع من الأندلس وغاليسيا بأكثر حرية من أي جزء آخر في الجزيرة الإيبيرية المتأثرة بالإسلام، إنه طبيعي ألا يستعمل الشكل الزجلي إلا بالكاد.

بقي الاستثناء الغاليسي الغريب، وهو الديوان المقدس لألفونسو العاشر، فتقريبا كله زجلي، وتشكل فيه أغاني أو مدائح سانتا مريا Cantigas de Santa María 402 قصيدة، وذلك في طبعته التي نشرها الملك تقريبا بين عامي 1265 م و1280 م، ولا أقل من 335 قصيدة لها شكل الحزين وحيد القافية، وقفل وحيد الحركة، وخرجة، وتلك تكون 88% من المجموع الكلي.

(1) Estudios literarios 1920,p.310, y 332 tercera edición ek la Colección Austral, 1940,p.242y 260.

وأعتقد أن هذا يشرح لماذا كانت اللغة الغاليسية لغة شعر غنائي عام في إسبانيا، فالمدائح المقدسة في السيدة العذراء لم تكن غاليسية إلا لكونها في اللغة الغاليسية، أما فيما يتعلق بتقليدها الموسيقي فإنها تنتمي أكثر إلى أراضي طليطلة، أو أراضي إشبيلية، فالتأثير الجنوبي مؤكد بتلك الوثائق المكتوبة التي ذكرناها أعلاه، من بين المنمنمات أو الصور التي تبرز في هذا المجال مخطوطات أغاني السيدة العذراء، ممثلة شعراء شعبيين وموسيقيين من أصحاب الآلات المتنوعة، ومن ذلك ثنائي من شاعر شعبي مسيحي وآخر مسلم يعزفان على العود ويغنيان متشجعين بإبريق الخمر نفسه، ولا نستغرب هذا التعاون من المغنين للعذراء المنتسبين إلى الديانتين، فعندنا من ذلك شواهد ثابتة الحجة مثل المجمع الكنسي لبلد الوليد Valladolid الذي حرم في عام 1322م أن يُحمل الشعراء الشعبيون المسلمون ليعزفوا ويغنوا في الكنائس.

إذن الأغاني التي توضحها هذه المنمنمات أو الصور الفريدة يجب أن تكون المقدمة الكبيرة في المقطع الزجلي، التي تحمله إلى تأثير جنوبي هو موريسكي في بعض أجزائه وهو مسيحي في معظمها.

يوظف الفونسو العاشر في أعماله العلمية كثيرا من عناصر العلوم العربية المنتجة في قصور ملوك الطوائف في طليطلة وإشبيلية، أونبله، وشيء كهذا سيكون موجودا في أعماله الغنائية الموسيقية الكبيرة، وأقول هذا مستدلا بحكم علماء محدثين في الموسيقى يقولون إن مدائح العذراء Las cantigas هي بنات الفن الطقوسي دون أن يملكو شيئا له علاقة بالعربية.

### الغنائية القشتالية:

من الممكن أن يكون التحول في المقطع الزجلي في قشتالة راجعا إلى التأثير الشعبي الموريسكي الذي لم يترك إحساسا به في غاليسيا.

راهب إيتا Arcipreste de Hita<sup>(1)</sup> وهو المؤلف لعشرة قصائد زجلية ضمنت في كتابه «الحب الشريف» يقول إنه وضع مدائح في السيدة العذراء لتغنيها شاعرات شعبيات مسلمات، ومعلوم جدا أن العازفين والمغنين المسلمين كانوا يعملون في قصر الفونسو العاشر وفي قصر شانجه Sancho الخامس في قشتالة، والأمر نفسه كان موجودا في قصر بيدرو الرابع وخوان الثاني في أراجون.

راهب إيتا نفسه هو دليل التجذر التقليدي الذي كان موجودا في قشتالة، وليس فقط في الأشكال المقطعية، وإنما أيضا في موضوعات معينة للزجل العربي الأندلسي.

في كامل القرن الرابع عشر عندما لم يكن أحد يذكر شؤون الأزجال القديمة، يدهشنا راهب إيتا بقصيدة مكونة من دور وحيد الصوت، وكذلك في الشكل نفسه كان قد قرض ابن قرمان، وكذلك غيرمو الكيتاني، في بدايات القرن الثاني عشر، ساخرا من نفسه، عارضا علينا تلك السخرية في مغامرة غزلية، يغدر به في غزله أو حبه رسول خائن وخبّازة تدعى كروث.

أنقل هنا ثلاثة من خمس مقاطع مما تتضمن القصيدة، لأجل أن نصحبها طبقا للمخطوط الوحيد:

عيناى لن تريا ضوءا

لقد ضيعته عن صليب

صليب الصليبية، العلم، الراية.

(1) هو خوان رويث (القرن 14) شاعر إسباني من المحتمل أنه ولد في قلعة إنارس، حوالي غرناطة، بالكاد يعلم عنه تفصيلات أخرى في سيرة حياته مثل ما جعل منه مسجوناً لثلاثة عشر عاماً بأمر رئيس أساقفة طليطلة، وذلك السجن هو الذي مارس فيه وظيفته التي منها لقبه وهو راهب إيتا وإيتا هذه قرية في وادي الحجارة في إسبانيا وصفته هذه راهب إيتا كانت مقترنة دائما مع كتابه الحب الحسن الذي ترك به واحدا من أكبر الأعمال الشعرية القشتالية بل حتى الأوروبية في القرون الوسطى Gran diccionario enciclopédico  
durvan12 / 4600

لقد تناولتها عن فهم وإدراك  
لقد جعلتها سبيلا لي في الطريق  
مثل وجه الأندلس  
عيناى لا تبصران ضوءا  
حريص على أن أفتحهما  
قل هذا لفرناندو غرسية  
كانت ضفيرة حلفاء حلوة  
عيناى لا تريان ضوءا  
متعة من درجة كبيرة  
من صليب خاص  
منحني فكرا مخلصا  
لقد أكل الخبز حلوا أكثر  
لا ترى عيناى ضوءا

تغير الحزين مع دور أو قفل وحيد الصوت، وخرجة بين الموسيقيين في القصور في عهد خوان دي الإنثينا Juan del Enzina هو أكبر- إلى حد ما - مما يلاحظ في زهریات العظیم Florenza del Maginfico فلورنثا دماغنيفيكو، ولكن حالا توقفت في خطاب القرن السادس عشر موضحة هذا المنهج المقطعي، ولا يستمر فقط إلا في الشعر الأكثر شعبية، أي في مسرحنا القديم الغني بالقصائد الغنائية الشعبية والتراثية.

تؤخذ النماذج الأخيرة من المقاطع الزجاجية معزوفة دائما في حفلات متواضعة للعمال، وهكذا تتميز في وطنها الأصدقاء الأخيرة من القصيدة العربية الأندلسية التي كان لها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر اتجاهات مجيدة في المشرق والمغرب، لقد تميز صوتها

في القرن السابع عشر مستجدا غريقا في موضة شكل آخر جديد من الغناء أو الإنشاد: القوبلة والسيغيدية<sup>(1)</sup> اللتين ولدتا أيضا في الأندلس الخالد، عند الحفلات المائية حول الوادي الكبير، في بلاط الأبهة والعلم للمعتمد، أو في أيام ابن قزمان مغناة في مقاطع زجلية، وفي احتفالات تحدث في عهد فيلبي الرابع وعهد لوي دي بيغا، مغناة في قبلات جديدة، تلك الموضة تدور هكذا:

ما أجملك يا نهر إشبيلية!

مليئا بالأشعة البيضاء

والأغصان الخضراء!

\*\*\*

(1) القبلة COPLA تعني أغنية أو نوعا من الشعر، والسيغيدية seguidilla معناها نص صغير تابع [ المترجم ]

## المصادر والمراجع:

- 1 - الأدب المقارن أصوله ومناهجه، للطاهر مكي، دار المعارف مصر 1988.
- 2 - الأدب المقارن: محمد غنيمي هلال، دار العودة بيروت 1987 م
- 3 - الإسلام في المغرب والأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ومراجعة د. لطفي عبد البديع، منشورات شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990.
- 4 - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، شرح وهوامش عبد مهنا، ط2 دار الكتب العلمية بيروت 1412 / 1992.
- 5 - تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1992.
- 6 - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدي، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت 1417-1997.
- 7 - الحلة السيرة لابن الأبار تحقيق وتعليق حسين مؤنس ط2 دار المعارف مصر 1985.
- 8 - ديوان ابن قزمان نسا ولغة وعروضا، ف كرينتي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد 1980.
- 9 - الذخيرة لابن بسام، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1981.
- 10 - الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر 1974.

- 11 - طوق الحمامة تحقيق حسن كامل الصيرفي وتقديم إبراهيم الأبياري المكتبة التجارية القاهرة.
- 12 - قلائد العقيان لابن خاقان تحقيق محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية 1990.
- 13 - المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد، تحقيق سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1984.
- 14 - مقدمة ابن خلدون، ط4 دار القلم، بيروت 1981.
- 15 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1408 / 1988.
- 16 - ويكيبيديا
- 17 - Diccionario de autores judíos, Angel Saenz, ediciones del *Almendro*, Granada.
- 18 - *Gramaticos hebreos de al –Andalus*, Angel Saenz Badillos, ediciones del *Almendro*, Córdoba.
- 19 - Gran diccionario enciclopédico durvan, Didictor General Luis Rodrigo Martinez, 2ed, Bilbao, 1985.
- 20 - Maria Moliner , Diccionario de uso del Espaol, Gredos , Madrid 1991.
- 21 - Nuevo diccionarioEspaol – Arabe F. Corriente, Instituto hisanoárabe de cultura , Madrid 1988.

\*\*\*

# أعلام وتاريخ ثقافي



## الموريسكيون

أ. د. محمد فرج دغيم

(عضو المجمع)

(1)

### تحولات الوجود الإسلامي في الأندلس

مرّت الأندلس بأحداثٍ تاريخيةٍ كبرى سبقت وجود ما سُمّيت (بمملكة أو إمارة غرناطة) التي أسّسها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (536 هـ - 276 هـ) واستمرت هذه الدولة إلى سقوط الإمارة نهائياً على يدي فرناندو الخامس وإثزابيلا سنة 897 هـ (1492 م).

كانت هذه الأحداث الكبرى التي توالى على إمارة ثم خلافة الدولة العربية الإسلامية التي أسّسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بالداخل من بني أمية سنة 138 هـ (756 م)، واستمرت إلى أن سقطت سنة 422 هـ (1031 م).

ثم بدأت على إثر ذلك فترة ملوك الطوائف الأولى، وبدأ طمع الممالك المسيحية الإسبانية في الاستيلاء على مدن وقرى إسلامية في شبه جزيرة ايبيريا، وكانت هذه الأعمال العدوانية التوسعية المسيحية سُمّيت بعملية الاسترداد Reconquista، فاستنجد المعتمد بن عبّاد أمير دولة بني عباد في إشبيلية بأمير دولة المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين الذي لبّى النداء وجاز إلى الأندلس وانتصر مع ابن عباد في معركة كبرى ضد المعتدين سُمّيت بمعركة الزلاقة سنة 476 هـ، ثم عاد ابن تاشفين إلى المغرب ولكن جاز مرة ثانية إلى الأندلس لصد المعتدين، ولكن أيضاً بهدف ضم الأندلس إلى ملكه وكان ذلك في سنة 484 هـ، ووحد الإمارات الأندلسية المتعددة تحت

حكم دولة المرابطين، واستمر الأمر كذلك إلى أن دالت دولة المرابطين في المغرب سنة 540هـ (1146م).

وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا دولة الموحِّدين في المغرب على يدي داعيتها المهدي بن تومرت والخليفة عبد المؤمن بن علي، ثم ضُمَّتْ إلى ملكها الأندلس وإماراتها ومدنها الخاضعة لدولة المرابطين، وكان يحكمها أمراء مثل حكم أمراء فترة ملوك الطوائف الأولى، وأصبحت الدولة الموحدية تدافع عن الأندلس ضد طموح وغزوات الممالك المسيحية من شمال وغرب شبه جزيرة ايبيريا للاستيلاء على المدن والقرى والقلاع والحصون الإسلامية، ولكن بمرور الزمن اضمحلت دولة الموحدين وبدأت القرى والمدن الإسلامية تسقط الواحدة بعد الأخرى في يدي الممالك المسيحية، وقد سقطت طليطلة سابقاً سنة 478هـ، على يدي الفونسو السادس ملك قشتالة، وسقطت قرطبة أخيراً سنة 633هـ (1234م)، وسقطت بلنسية سنة 636هـ (1238م). وسقطت مرسية سنة 641هـ (1243م)، وسقطت شاطبة ودانية سنة 644هـ، ثم سقطت اشبيلية سنة 646هـ (1248م)، ودخلها فرناندو الثالث ملك قشتالة في احتفال كبير بعد أكثر من سنة من حصارها، وللأسف فقد ساعد ابن الأحمر أمير غرناطة في حصارها انتقاماً منها لمساندتها لابن هود في نزاعه ضد ابن الأحمر الذي كان قد صالح ملك قشتالة سنة 643هـ، وقد حوّل فرناندو بعد استيلائه على اشبيلية مسجدها الجامع إلى كنيسة كبرى عرفت منذ ذلك الوقت باسم الخيرالدا La Jeralda.

وكان ابن هود قد استطاع أن يؤسس إمارة قوية إذ تغلَّب على شرقي الأندلس وشملت إمارته بلنسية ومرسية ومالقة وألمرية وغرناطة بل وقرطبة واشبيلية، وأعلن ولاءه للدولة الحفصية بتونس، ثم بعد ذلك أعلن بيعته للدولة العباسية في بغداد، ولكنَّه توفي مقتولاً في سنة 635هـ، مخنوقاً في فراشه بمؤامرة من عامله ابن الرميبي، وكان ملوك الطوائف في الأندلس يستنجدون بملوك الدولة الموحدية، وأيضاً بالدولة

الحفصية بتونس بأمرها أبي زكريا الحفصي الذي تعاطف معهم ولكنه لم يتمكن من عمل شيء حاسم لنجدتهم واستقبل من يلجأ من الأندلسيين إلى تونس وأكرمهم وولى بعضهم مناصب في الدولة، واستعان ابن الأحمر (الذي تلقب بأمرير المسلمين) وأسس مملكة غرناطة كما ذكرنا سالفاً، بأبي يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين في المغرب سنة 670هـ، والذي تحمّس لإجابة ابن الأحمر ولكنه شغل بالحرب ضد الأمير يغمراسن صاحب تلمسان الذي رفض عقد سلم معه ودارت بينهما معركة في رجب سنة 670هـ. وقد انتصر فيها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، وبعد وفاة ابن الأحمر سنة 671هـ (1272م) وصل وفد آخر من محمد الفقيه الذي تولى الحكم في غرناطة، ولّى أبو يوسف يعقوب الاستنجد وعبر إلى الأندلس سنة 673هـ، وانتصر في معركة كبرى سنة 674هـ، ضد المعتدين النصارى، وعاد أبو يوسف إلى الأندلس أكثر من مرة، وكان أحياناً يرسل ابنه على رأس جيش إلى الأندلس، وكان آخر عبور له سنة 684هـ، وتوفي أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور سنة 685هـ (1285م). وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الذي غزا الأندلس سنة 690هـ، وعاد إلى المغرب في سنة 691هـ.

## (2)

### سقوط غرناطة

في هذه الفترة القلقة التي عاشها المسلمون في الأندلس وسقوط مدنهم الواحدة تلو الأخرى في أيدي الممالك النصرانية قشتالة وأرغون وليون وبقي فيها المسلمون تحت حكم هذه الدول النصرانية في مدنهم الإسلامية السابقة، وقد سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية والتمتع نسبياً بحياتهم الخاصة وإن كانوا يدفعون الجزية، وقد سُمّي هؤلاء المسلمون بالمدجنين *Los mudejares*، ولجأ كثير منهم للحياة في مملكة غرناطة التي يحكمها بنو الأحمر منذ سنة 635هـ (1237م)، إلى سقوط غرناطة نهائياً في سنة 897هـ (1492م)، على يدي الملكين الكاثوليكين فرناندو الخامس وإيزابيلا اللذين تزوّجا من قبل، تزوجت

إيزابيلا (ابنة يوحنا الثالث) الذي توفي سنة 858هـ (1454م) ابن عمها فرناندو الذي ورث عرش أرغون باسم فرناندو الخامس، وكانت إيزابيلا قد ورثت عرش قشتالة بعد وفاة أخيها هنري الرابع سنة 879هـ (1474م)، توفيت إيزابيلا سنة 910هـ (1504م)، وتوفي فرناندو الخامس سنة 921هـ (1516م).

وقد سقطت مالقة قبل ذلك سنة 1487م، بعد مقاومة من جانب سكانها، كما سقطت المرية وبسطة ووحد الملكان مملكتي قشتالة وأرغون قبل احتلالهما لغرناطة، وقد تسلّم مفتاح مدينة غرناطة رمزاً لسيادتهما عليها من آخر أمراء غرناطة من بني نصر أبي عبد الله محمد بن علي بن نصر الذي اضطر للاستسلام للملكي قشتالة وأرغون، وأن يوقع اتفاقية معهما بتسليم إمارة غرناطة لهما نهائياً في 2 يناير 1492م (14 من رمضان 898هـ)، وانزوى في قصر خارج مدينة غرناطة مع أسرته وخدمه وحراسه، ثم قرّر أن يذهب في أكتوبر 1493م إلى المغرب واستقرّ نهائياً بفاس في ظل حاكمها السلطان أبي عبد الله محمد زعيم بني وطاس الذين حكموا بعد بني مرين، وقد هاجر مع الأمير ابن الأحمر كثير من العلماء والأدباء، وقد دافع هذا الأمير المخلوع عن نفسه إزاء الأحداث التي وقعت في غرناطة وتسليمه لها للملكين المسيحيين في قطعة أدبية سياسية مؤثرة.

عندما تسلّم الملكان الكاثوليكيان مفتاح مدينة غرناطة رمزاً لسيادتهما عليها، ودخلا قصر الحمراء، عينّا الكونت انديغولوبث دي مندوثا Indigo Lopez de Mendoza، عمدة للمدينة وقائداً عاماً، واختار الملك الراهب فرناندو دي تالبيرا Fernando de Talvera، أسقفاً للمدينة، وقام الملكان بإرسال الراهب فرانيسكو خيمينث Francisco Jimenez، كاردينال مدينة طليطلة لإقناع المسلمين باعتناق المسيحية رغبة في أن تكون إسبانيا بأكملها مملكة مسيحية.

وكانت غرناطة ملجأً للمسلمين النازحين من المدن والقرى الإسلامية الأخرى التي سقطت من قبل، وقد بلغ عدد سكانها ما يقرب من ستة ملايين نسمة، ولكن بسقوط

غرناطة النهائي تغيّر الوضع وانتهت دولة الإسلام في الأندلس، وبدأ التغيير في صوره الدينية والاجتماعية واللغوية، فلم يعد المسلمون الباقون في غرناطة أو المدن الأخرى يمارسون نمط حياتهم التي تعودوا عليها وورثوها ومارسوها طيلة ثمانية قرون من عمر الدولة والإمارات الإسلامية منذ الفتح إلى سقوط غرناطة.

### (3)

#### ظهور مصطلح الموريسكيين واضطهادهم

وقد أُطلق على المسلمين من عرب وبربر الباقين في غرناطة وغيرها من المدن والقرى اسم الموريسكيين Los Moriscos، وهي تسمية فيها استصغار لشأنهم فهي تصغير لكلمة Moros، وهي تعني المسلمين المنتصرين الذين تمّ تنصيرهم سلماً أو إجباراً، وكلمة الموريسكيين غير تسمية المسلمين الذين خضعوا في السابق قبل سقوط غرناطة، وهي كلمة المدجنين الذين سمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم والحديث والكتابة بلغتهم العربية وارتداء ملابسهم العربية التقليدية واحتفالاتهم الدينية والاجتماعية.

فالموريسكيون أصبحوا طبقة ثانية برغم تنصيرهم، وتسميهم المصادر العربية والإسلامية الأندلسيين ولا تنعتهم بالموريسكيين، وقد مرّ عليهم إزاء هذا الوضع الجديد بعد سقوط غرناطة تغييرات أساسية، فرضت عليهم أحياناً بالتدريج وأحياناً بقراراتٍ وقوانين صارمة متعسفة لإخضاعهم وتغيير هويتهم وتنصيرهم، وأصبح وضعهم يختلف عما كان عليه وضع من عرفوا بالمدجنين في المدن والقرى الإسلامية التي سقطت في أيدي النصارى سلماً أو حرباً والذين سمح لهم أن يتمتعوا بكثير من حقوقهم، أمّا الموريسكيون فقد استهدفوا من قبل الكنيسة الكاثوليكية والسلطة السياسية معاً، وفرض عليهم التنصير وتعلم الديانة المسيحية وطقوسها والذهاب إلى الكنيسة أيام الأحد وتقديس الصليبان وتعميد أطفالهم ومنعهم من استعمال اللغة

العربية، وفرضوا عليهم التحدث والكتابة باللغة القشتالية وتغيير أسمائهم العربية رجالاً ونساءً وأطفالاً واستبدالها بأسماء إسبانية، ومنعهم من الصلاة والاستحمام أيام الجمعة، ومنعهم من الصيام في شهر رمضان وغيره من المناسبات، واختبارهم بطرق مزرية خبيثة مثل دعوة أحد الموريسكيين وأسرته لتناول الغذاء لدى إحدى الأسر المسيحية في أيام شهر رمضان، وتقديم وجبات فيها لحم الخنزير المحرم لدى المسلمين، وتقديم الخمر لهم لشربها، فإن لم يفعل الشخص الموريسكي ذلك يصبح مشكوكاً في مسيحيته وأنه لا يزال يدين سراً بالإسلام، وعليهم الانحناء أمام الصليبان.

وفرض على النساء الموريسكيات عدم التحجب وعليهن أن يخرجن سافرات الوجوه، وفرض عليهن عقد زواجهن في الكنائس وأمام الراهب أو القسيس وفق الطقوس المسيحية، مما اضطر الموريسكيين إلى الرضوخ، ولكنهم يعودون إلى بيوتهم ويعقدون زواجهن سراً وفق الطريقة الإسلامية، وفرض عليهم الزواج المختلط بين المسيحيين والمسلمين على أن يتم ذلك وفق التقاليد المسيحية، وكذلك فرض عليهم تعميدهم أطفالهم في الكنيسة ولكنهم لما يعودون بأطفالهم يغسلون رؤوسهم من أثر مياه التعميد، ويمنع عليهم ختان أطفالهم الذكور، أو تعليمهم الدين الإسلامي أو القرآن أو اللغة العربية، وإن كان الموريسكيون يمارسون ما يعتقدونه إسلامياً سراً، ولكن يراقبهم آخرون ويفرض عليهم أن تكون أبواب بيوتهم مفتوحة ليتمكن من مراقبتهم والتأكد من عدم ممارسة عادات أو عبادات إسلامية أو أفراح أو تغسيل موتاهم وطرق الدفن التي كانوا يمارسونها وتعودوا عليها وهم مسلمون، وأحياناً يُشتم أو يُسبُّ الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعرف ردُّ الفعل عند الموريسكيين، ويُفرض عليهم ذكر المسيح على أنه ابن الله وأنه من الثالوث المقدس. بل يُمنع عنهم حتى بعض الأكل الذي يعدُّونه مثل الكسكسي الذي يعدُّه ويقوم به العرب والبربر في كل البلدان التي عاشوا فيها، ولا تزال إلى الآن وجبة مفضلة في أقطار شمالي أفريقيا كلها.

## (4)

## مزيدٌ من الاضطهاد وثورات المضطَّهدين

توالت القرارات التي يصدرها ملوك قشتالة بعد سقوط غرناطة نهائياً سنة 1492م، على يدي الملك فرناندو الخامس والملكة ايزابيلا، وجاء بعده حفيده شارل الخامس (شرلكان) سنة 1516م، الذي حكم إلى سنة 1555م.

وكانت القرارات تجبر الموريسكيين على اعتناق المسيحية والتبعية للكنيسة الكاثوليكية، وأغلقت المساجد وفُرضت اللغة القشتالية محادثة وكتابة على الموريسكيين، وكانت القرارات تُنفذ بقسوة بأوامر البابا أو القساوسة الذين اشتهر من بينهم مطران طليطلة الكاردينال خمينيث Ximenez de Cisneros، ورأس الكنيسة الإسبانية الذي أبدى حماسه في مطاردة المسلمين وتنصيرهم، وقد جاء في عهد الملك شارل الخامس (شرلكان)، وأُحرقت كتب الموريسكيين العربية في الميادين العامة.

إزاء هذا العنف والتضييق على الموريسكيين وتنصيرهم، بدأت مجموعاتٌ منهم تتذمّر وتحاول أن تثور لاسترداد حقوقهم، فكانت ثورتهم الكبرى في إقليم البشارت وهو الاسم الذي يُطلق على كل الجبل المجاور لغرناطة ويمتد من الشرق إلى الغرب ويقع فيما بين مدينة غرناطة والبحر، وهي منطقة جبلية محصّنة، وقبل ثورة البشارت بفترة قاموا بثورة في حي البيازين في غرناطة ولكنها أُخمدت، أمّا ثورة البشارت فبدأت في سنة 1568م.

ونصبوا ملكاً عليهم باسم مولاي محمد بن أمية، وهو من سلالة الأمويين خلفاء قرطبة وكان اسمه Hernando de Valor، وقد أبدى قدراً من الشجاعة والحزم ولكنه قتل بعد سنة في فراشه في أكتوبر 1569م، وحلّ محله مولاي عبد الله بن عبو ومنح لقب ملك، وقد أبدى الموريسكيون من الشجاعة والعنف ما جعل الثورة تستمر لمدة سنتين، وفي النهاية انتهت هذه المقاومة إذ قتل بن عبو وقطع رأسه وعُلّق في مكان مجاور لغرناطة. واستسلم المقاتلون الموريسكيون وأُحرقت قراهم، ووصل الدخان إليهم في الكهوف التي لجأوا إليها،

وانتهت الثورة في 5 نوفمبر 1570م، في عهد الملك فيليب الثاني (ابن شارلكان) الذي حكم بين سنتي (1555م – 1598م).

وقد شارك مع الموريسكيين في القتال في هذه الانتفاضات متطوعون من المغرب ومن الأتراك [العثمانيين] في هذه الانتفاضات، وقبل سقوط غرناطة في سنة 1492م، حاول بعض الموريسكيين تسليم مملكة غرناطة لأمرأ المغرب أو إلى الأتراك، ولكن الصعوبة كانت في عدم تحقيق هذا الأمر ممثلة في قلّة الأسلحة والمؤن والسفن الحربية وعدم وجود المكان الحصين الذي يمكن أن يتخذه معقلاً يلجأون إليه. وهذا الإخفاق جعلهم يجزمون أمرهم ويعلنون ثورتهم بعد أن استعدوا لها أكثر من مرة، منها ما قام به ضدّهم القائد المشهور دون الونسودي أغيلار Don Alonso de Aguilar، على الموريسكيين في سيرا بيرميخا Sierra Bermeja، ولكنّه فشل في هجومه ضدّ الموريسكيين الذين استطاعوا أن يهزموه مستخدمين إلقاء الصخور ضد المهاجمين، وقتل القائد أغيلار على يدي قائد الموريسكيين، ولكنّ الاستفزازات والتضييق على الموريسكيين استمرّ بعنف وأخذ صوراً منها ما قام به كويت Sevin من عنف كان لاحتجازه أطفال ونساء لمحاكمتهم أمام محاكم التحقيق nóisiciuqni، وإصدار الأحكام على من يثبت عدم مسيحيته بالسجن أو الجلد أو الإعدام شنقاً أو حرقاً مع مصادرة أموالهم وممتلكاتهم أو السبي حيث يباعون رقيقاً هم وأطفالهم، وحجز أطفالهم لتنصيرهم أو إرسالهم وهم صغار إلى مملكة قشتالة لينشأوا نصارى وتنقطع كل صلواتهم بالإسلام وأسرهم، والحكم على بعض الموريسكيين بالعمل في المراكب الإسبانية (القشتالية) للتجديف طوال حياتهم دون السماح لهم بالنزول في الموانئ أو المدن التي يمرون بها خشية هروبهم إلى دول المغرب أو إيطاليا أو فرنسا أو القسطنطينية أو مصر.

حاول الموريسكيون إزاء إجبارهم على أن يكونوا نصارى أن يتعاونوا مع

البروتستانت المقيمين في ممالك قشتالة وأرغون وغيرها في شبه جزيرة ايبيريا، وأن يبحثوا عن الأسس المشتركة بين عقيدتهم الإسلامية ومذهب البروتستانت المناوئ للمذهب الكاثوليكي، كما حاول الموريسكيون أن يتعاونوا مع اللوثريين وذلك تعبيراً عن رفضهم للمذهب الكاثوليكي الذي يُجبرون على اعتناقه. وإزاء فرض اللغة القشتالية على الموريسكيين ومنعهم من استعمال اللغة العربية وعدم تمكنهم من لغتهم العربية بدأوا يكتبون اللغة القشتالية بأحرفٍ عربية في رسائلهم ووثائقهم التي لا تزال محفوظة إلى الآن في المتاحف والمكتبات في اسبانيا، وهي ما عرفت باللغة الأعجمية < Aljamiado.

(5)

### هجرات الموريسكيين ونفهم

كانت هجرات الموريسكيين طوعاً أو إجباراً إلى دول المغرب أو إلى فرنسا في عهد ملكها هنري الرابع التي كانت على خلافٍ ونزاعٍ مع مملكة قشتالة وأرغون، وقد حاول الملك أن يلحق الموريسكيين والبروتستانت المذهب الكاثوليكي ولكن دون عنف وياقناع، وحاول الموريسكيون الاستنجاد بأمراء وملوك دول المغرب والجزائر وتونس ومصر ثم بالسلطان العثماني، وقد كتب السلطان العثماني أحمد آل عثمان إلى مملكة فرنسا ليخرج من لجأ إليهم من المسلمين وترسلهم في مراكب إلى القسطنطينية، فلما وصلت الرسالة إلى مملكة فرنسا كان هناك أحد الجواسيس الأسبان فأخبر الملك فيليب الثالث بما سمعه، فأصدر الملك قراراً بنفي الموريسكيين وذلك في 22 سبتمبر 1609م، وطردهم نهائياً إلى المغرب والجزائر ومنها إلى تونس وبعضهم إلى طرابلس، وقد أوسع لهم حاكم تونس عثمان داي للإقامة في ربوع تونس وامتلاك الأراضي والبناء والزراعة، وقد شملت قرارات التنصير والطرده في اسبانيا اليهود أيضاً الذين سمّاهم الاسبان Conversos، فهاجر بعضهم إلى فرنسا وهولندا وإلى دول المغرب

وتونس وطرابلس، وشجع درغوث باشا الذي تولى بعد خير الدين بارباروسا استقبال الموريسكيين واليهود النازحين من الأندلس ومن ليفورنو من إيطاليا إلى تونس والجزائر، ثم بعد سنة 1610م، واستمرار طرد الموريسكيين واليهود صدر قرار آخر في سنة 1712م بنفي من بقي من الموريسكيين أو من يشك في مسيحية من تنصروا منهم. حدث أيضاً بعد سنة 1492م، واكتشاف أمريكا وبداية الهجرات إليها وإلى أمريكا الوسطى والجنوبية من اسبانيا ثم من دول أوروبية أخرى، أن تقرر تهجير موريسكيين إلى أمريكا ولكن بعد استقرارهم هناك، تقرر إرجاعهم إلى اسبانيا والبرتغال خوفاً من تكتلهم في أمريكا والعودة إلى دينهم الإسلامي الذي أجبروا على تركه، وخوفاً من نشاطهم في العالم الجديد، فطردوا إلى دول المغرب وغيرها، وحدث أن رجع بعضهم إلى البرتغال التي أسهمت في اضطهاد الموريسكيين الذين كانوا بها أو عادوا إليها، بل يُروى أنّ كنيسة من جماجم وهياكل القتلى الذين رفضوا التنصير في البرتغال قد بناها الراهب فرنسيكاني Franciscani، ولا تزال هذه الكنيسة، موجودة بين المعالم السياحية المفتوحة للزوار وهي كنيسة Capela dos Ossos، في مدينة ايغورا البرتغالية، وقد وجدت جثثهم في مقبرة جماعية بالقرب من مكان بناء الكنيسة، وتحتوي على ما يقرب من 5000 هيكل عظمي بشري من المسلمين الموريسكيين الذين رفضوا اعتناق المسيحية بعد سقوط الأندلس.

كما نفي بعض الموريسكيين إلى جزر الكانارياس وكانت لهم خصوصيات تميزهم، خاصة من حيث أصلهم إذ هم في الأغلب مجموعات من البربر اقتيدوا أسارى فارتدوا عن الإسلام بنية الحصول على ظروف عيش حسنة، وفي نفس السهولة يمكنهم اعتناق دينهم الأصلي الإسلام من جديد والعودة إلى موطنهم الأول، وقد بدأت محاولات طردهم سنة 1530م، عندما أعلن مجلس الجزيرة بأنّ وجود الموريسكيين يهدد أمنها، وفي ابريل 1514م، قام قائد تينيريفي ولاس بالماس بطرد جميع الموريسكيين منها، أمّا قرار الطرد

النهائي فقد شملهم كما شمل غيرهم في شبه الجزيرة بدعوى تطهير الجزر منهم وصدر هذا القرار متأخراً في سنة 1615م.

وأصدر الملك فيليب الثاني قبل ذلك في 28 أكتوبر 1570م، قراراً بنفي الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى مدن أخرى وقرى داخل البلاد ومصادرة أملاكهم العقارية، وترك لهم أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها وينص القرار بتوزيع الموريسكيين على الأقاليم المختلفة، واتخذ القرار بمنتهى الصرامة والقسوة، وسيقوا إلى الكنائس أكداً، وقد تعرضوا أثناء نزوحهم إلى النهب والسلب والفتك بالنساء والأطفال وسبي بعضهم، وقد استطاع بعض الموريسكيين اللائذين بالجزبال كردة فعل أن ينتقموا من الجند الذين تعرضوا للموريسكيين ويقتلوا هؤلاء الجند المعتدين، وقد لاقى هؤلاء الموريسكيون المصير نفسه في النهاية على أيدي قوات داهمتهم.

## (6)

### الموريسكيون وأثرهم الحضاري في المغرب العربي

وقد أوسع عثمان داي للموريسكيين الذين يسمونهم الأندلسيين بالإقامة في تونس بعد نفيهم في سنة 1610م، كما أوسع لهم الأخوان عروج وخير الدين بارباروسا - اللذان عينهما باشا- الذي عينه السلطان سليم على الجزائر وبعده درغوث باشا للإقامة في الجزائر والمغرب، وقد عمروا تونس واشتروا الهناشير وبنوا فيها واستوطنوا في عدة أماكن، وعمروا نحو عشرين بلداً، وصارت لهم مدن عظيمة، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين، وتعلم منهم أهل تونس حرفهم في الزراعة والري والصناعة، وقلدوا ترفهم في المعيشة، وجاءت هجرات موريسكية إلى طرابلس في عهد عثمان باشا الساقلي، ثم في عهد يوسف باشا القره مانلي، واستوطنوا في مدن طرابلس ومصراته ودرنة، ونقلوا عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية إلى هذه المدن وسكانها، ونقلوا مهاراتهم في الزراعة والري وصناعة الحرير والأقمشة، وكان الأندلسيون يتبعون المذهب المالكي

مما ساعدهم على التأقلم في دول المغرب العربي كله، وقد اتخذ الموريسكيون من مدينة الرباط مستقراً لهم فأصبحت كأنها مدينة أندلسية لقربها من بلادهم الأندلس، وأصبحت سلا ميناء ومنطلقاً ومأوى لسفنهم التي يعدها الموريسكيون للهجوم على الموانئ والمدن الإسبانية ومحاربة السفن الإسبانية ومطاردتها مستفيدين من خبرتهم البحرية، والعودة بالأسرى الذين يصبحون رقيقاً ومنهم من يباع في أسواق المغرب والجزائر وغيرها أو يجندون في الجيش والبحرية، ولما قويت الدولة العثمانية بعد فتح القسطنطينية سنة 1453م واتسعت رقعة الامبراطورية العثمانية وأصبح لها أسطول يجوب مياه البحر الأبيض المتوسط، نشط المغامرون والمجاهدون الموريسكيون في هجومهم على السفن والمدن والموانئ الإسبانية على اعتبار أنه جهاد بحري، بل امتد نشاطهم البحري ليهدد بقية الدول الأوروبية التي لا تتعاون معهم أو تعاديهم وتغزو المدن والسواحل المغربية والجزائرية والتونسية وطرابلس الغرب.

وقد كان تأثير الموريسكيين الحضاري والثقافي والعمراني واضحاً في أقطار المغرب العربي كله، ولا يزال الطراز الأندلسي في المساجد والقصور والمدن واضحاً، بخاصة في مدن المغرب في فاس ومراكش والرباط وشفشاون وتطوان، وفي الجزائر ووهران وبجاية وفي تونس، بل وفي ليبيا في طرابلس إذ يوجد أثر الطراز الأندلسي في بعض مساجدها وبيوتها، ويوجد بيت في مدينة طرابلس اسمه المنزل الموريسكي، وبنوا في برقة قرية سمّوها غرناطة قرب شحات في الجبل الأخضر، وهو اسم غرناطة باللغة الإسبانية Granada وبنوا فيها مبنى على الطراز الأندلسي، ولهم تأثير في تخطيط شوارع ومنازل مدينة درنة التي سكن فيها كثير من المهاجرين من الأندلس، وهم الموريسكيون الذين يسمون في كل بلاد المغرب باسم الأندلسيين. وقد استمرت قرارات النفي، وكان قد صدر قرار بنفي من بقي من الموريسكيين في سنة 1712م، كما ذكرنا سابقاً.

(7)

### الأثر السلبي لهجرات الموريسكيين على اسبانيا

ومن جانب آخر كان لطرده الموريسكيين ونفيهم وهجرتهم من إسبانيا أثرٌ سيء بالغ على الزراعة التي انهارت حاصلاتها في اسبانيا عامة، وبخاصة في مرسية وبلنسية واشبيلية ومالقة وغرناطة وأحوازها لخبرة الموريسكيين في الزراعة وأساليب الري، وحاول النبلاء وأصحاب الأراضي الزراعية التي أصابها القحط والجذب أن يقنعوا السلطة الحاكمة في كل مرة بأن يتركوا الموريسكيين يعملون في مزارعهم التي أصابها الجذب نظراً لعدم معرفة الاسبان بالزراعة والري واحتقارهم لمن يعمل فيها على اعتبار أنّها حرفة الطبقات الدنيا وهي لا تليق بهم، ومن ثم قلّ دخل النبلاء وأصحاب الأراضي، كما قلّ دخل الدولة ومكاتب التحقيق من المال الذي يجنونه من عمل الموريسكيين والزراعة والضرائب والحزبة والغرامات التي تفرضها محاكم التفتيش على الموريسكيين، ولكن هذه الجهود التي بذلها النبلاء لإقناع السلطة والكنيسة بترك الموريسكيين يعملون دون طردهم من اسبانيا باءت بالفشل.

وقد حاولت الدولة أن تعوّض النبلاء عن خسائرهم، وذلك ببيع ممتلكات الموريسكيين الذين أُجبروا على تركها عند طردهم ونفيهم من اسبانيا إلى دولٍ أخرى في شمالي أفريقيا أو غيرها، وقد تعرّض هؤلاء الموريسكيون الذين طُردوا من اسبانيا لمصادرة أموالهم، ورغم الكتابات المغرضة التي ظهرت في اسبانيا منذ أيام محاكم التفتيش وبعدها ضد الموريسكيين ومن قبلهم ضد الإسلام والمسلمين، إلا أنّ بعض المؤرخين ومنهم اسبان منصفون وموضوعيون ذكروا أنّ قرارات طرد الموريسكيين كانت خطأً فادحاً ذا نتائج سيئة، وبخاصّة ذلك القرار الذي أصدره الملك فيليب الثالث في 22 سبتمبر 1609م، بطرد الموريسكيين والذي نتج عنه انهيار الزراعة والفلاحة والري وصناعة الحرير وتأخر اسبانيا عن بقية دول أوروبا رغم أنّها كانت في مقدمة الدول الأوروبية حضارياً وعلمياً واقتصادياً،

وأصبحت متخلفة إلى عهد قريب عن بقية الدول في أوروبا وأمريكا.

ومن المؤسف أنّ بعض الموريسكيين النازحين في المغرب، وهم في طريقهم إلى الجزائر، قد تعرّضوا للنهب والسلب من قبل بعض الأعراب الذي سلبوا أموالهم ومجوهراتهم التي أتوا بها من الأندلس وكانوا يخفونها أثناء عبورهم إلى دول المغرب، واعتدى هؤلاء الأعراب على نساء الموريسكيين وأطفالهم وساقوا بعضهم أسرى أو سبايا، وإزاء ذلك قرّر هؤلاء الموريسكيون الذين تعرّضوا لهذه المعاملة السيئة العودة إلى الأندلس عازمين على التنصر أو العبودية واتخاذهم رقيقاً، وعبروا فعلاً إلى إسبانيا عن طريق البحر وجبل طارق وغيرها من الموانئ.

(8)

### بقايا دفينّة من التراث الأندلسي في إسبانيا

وقد بلغ النازحون من المسلمين أو من سُمّوا بالموريسكيين عدداً يذكر البعض أنّهم نصف مليون، وآخرون يجعلونهم مليوناً، وآخرون يرفعون رقم النازحين إلى ثلاثة ملايين، وهو رقم يشكك فيه معظم من أرّخ لهذه الفترة.

كانت هذه نهاية الدولة الإسلامية، ونهاية ما عُرف عن أهلها المسلمين من عربٍ وبربرٍ وغيرهم بالموريسكيين، ولكن اكتشف أخيراً أنّه لا تزال في إسبانيا وبخاصّة في المناطق والمدن في الأقاليم الجنوبية بقايا أسر من العرب والمسلمين الذين كانوا في الأندلس، وهم يحتفظون ببعض الوثائق والمخطوطات المكتوبة باللغة العربية أو بالأحرف العربية فيما عُرف باللغة الأعجمية (القشتالية Aljamiado): [الخاميا دو]، رغم مرور قرونٍ على نهاية الدولة الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا ومحاولة طمس معالمها وآثارها، وهي حضارة الإسلام في الأندلس التي كانت يوماً ما تشعّ على أوروبا علماً وفلسفةً وعلومًا وفنوناً معمارية، فإنّ آثارها باقية إلى الآن ولا يزال الإقليم الجنوبي من إسبانيا يُسمّى بالإسبانية Andalucía أندلثياً.

ولأهمية موضوع الموريسكيين كجزءٍ من تاريخ الأندلس واضطهاد الإسبان لهم فقد عُقدت ندواتٌ ومؤتمراتٌ في اسبانيا وفرنسا والمغرب وتونس، وقُدمت أطروحاتٌ جامعيةٌ للدكتوراه حول الموريسكيين تاريخاً ولغةً وأدباً وهجرات وتأثيرهم الثقافي والعمراني والاقتصادي في الدول التي نزحوا إليها، وكوّنوا فيها مجتمعات ذات خصائص وتقاليد اجتماعية أندلسية ونهوض بالزراعة وأساليب الري ونقل الفن المعماري الأندلسي في عمارة المساجد والبيوت والجسور، كما كان لانتقال علماء وأدباء ومفكرين في فتراتٍ سابقةٍ من النزوح بعد سقوط المدن والإمارات الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع الهجري وبعده إلى شمالي أفريقيا المغرب والجزائر وتونس أثرٌ في اثناء الحركة العلمية والثقافية والأدبية في هذه الأقطار التي ذهبوا إليها.

\*\*\*

## المراجع:

## أولاً: المراجع العربية:

- 1 - ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس (ط تونس 1350هـ).
- 2 - ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، الإجراء (4-1)، تحقيق محمد عبد الله عنان (ط القاهرة 1978 - 1973م).
- 3 - ابن الخطيب، لسان الدين، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب (ط القاهرة 1347هـ).
- 4 - ابن عذارى، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق هويسى مرانده (ط بيروت 2000 / ط تطوان 1960م).
- 5 - ارفنج، واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هاني يحيى نصري (ط بيروت 2000م).
- 6 - الحجى، عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (ط دمشق 1976م).
- 7 - حتاملة، محمد عبده، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاتوليكيين (ط عمان 1989م).
- 8 - حتاملة، محمد عبده، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها (ط عمان 1979م).
- 9 - حمود، أسعد، محنة العرب في الأندلس (ط بيروت 1988م).
- 10 - دوزى، رينهارت، المسلمون في الأندلس، (ج 3 ترجمة حسن حبشي القاهرة 1995م).
- 11 - رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، (ط الدار البيضاء 1991م).

- 12 - الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور (ط 2 تونس 1966م).
- 13 - سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة الأسطول الأندلسي، (ط بيروت 1969م).
- 14 - الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات (ج 3 باعتناء - س ديدرينغ - ط بيروت 1982م).
- 15 - عارف، رفاه تقي الدين، غرناطة في عصر بني الأحمر، الحياة العلمية والثقافية (ط 2016م).
- 16 - عنان، محمد عبد الله، أندلسيات، (سلسلة الكتاب العربي)، الكويت يوليو 1988م.
- 17 - عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (ط 3 - القاهرة 1966م).
- 18 - كاردياك، لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (1492-1640م)، ترجمة وتقديم عبد الجليل التميمي (ط تونس 1983م).
- 19 - الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، (ط بيروت 2005م).
- 20 - المراكشي، محمد بن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، جزءان تحقيق محمد بن شريفة (ط الرباط 1984م).
- 21 - المقري، أحمد بن محمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، (ج 1-3، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري (ط القاهرة 1959م).
- 22 - المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (ج 1-8 تحقيق إحسان عباس (ط بيروت 1968م).

23 - مندوتا اورتادو، حرب غرناطة، ترجمة إيمان عبد الحلیم وسلوی محمود (ط -1 القاهرة 1954م).

24 - الناصري، أحمد بن خالد السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، (ج 1-9، ط الدار البيضاء 1954م).

25 - الموريسكيون في المغرب، الندوة الثانية (سلسلة الندوات، ط الرباط 2001م).

### ثانياً: المراجع الأجنبية:

26 - Lane – Poole, Stanley, The Moors in Spain, 4th edition, New York, 1890.

27 - Lea, H. Ch, The History of The Inquisition in Spain, 2nd edition New York 1966.

28 - Lea, H. The Moriscos of Spain, their Conversion and Expulsion, London 1901, Reprint New York 1968.

29 - NYKI, A.R., Hispano-Arabic Poetry, Baltimore 1946.

30 - Scott, The Moorish Empire in Europe V.III.



## منهجية التأليف والتحقيق في آثار

الشيخ الطاهر الزاوي (1890 – 1989م) <sup>(1)</sup>

أ.د. محمد مصطفى بن الحاج

(نائب رئيس المجمع)

المرحوم الشيخ الطاهر أحمد الزاوي (1890 – 1986) هو أحد أعلامنا الليبيين البارزين الذين أنجبهم هذا الوطن فلمعوا فيه وأخلصوا له، وكان محظوظاً إذ ساقته الظروف ليتغرب عن موطنه ويقضي سنواتٍ طويلةً من حياته في أرض الكنانة (1924-1967)، ويعاصرَ فيها أخصب فتراتِها المزدهرة في القرن العشرين سياسياً وعلمياً وثقافياً بكل ما تتضمنه الثقافة من معان وأبعاد.

أقول إنَّه كان محظوظاً، لأنَّه لم يخضع – شأن سائر المتعلمين اللامعين لدينا – للتأثيرات السلبية للبيئة الليبية، بل استمتع بأجواء مصر وألوان الحياة الزاخرة فيها. فقد واكب تدافع الأحزاب السياسية فيها آنذاك، فحمله هذا على تبني قضية وطنه الرازح آنذاك تحت كلل الاستعمار الإيطالي البغيض، فجاهد بكل ما أوتي من أجلها، وظلَّ يتابعها ويخدمها بعرقه وقلمه، وكان حصيلة ذلك مجموعة الآثار القيِّمة التي صنَّفها عن تاريخ بلاده وجهادها ومدنها وآثارها وأعلامها.

وخلال تلك العهود في مصر غَثِّي الشيخ الزاوي المجالس العلمية والأدبية ودور الكتب والمخطوطات، وخالط العلماء والأدباء، وصادق المؤلفين والمحققين، وتعامل مع الناشرين، وكان من ثمار ذلك تلك الآثار التي عُني بتصحيحها أو بتحقيقها في مجال الأدب ورحاب اللغة.

(1) دراسة ألفت في مؤتمر عن الشيخ الطاهر الزاوي، عقد بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس (28-30 من يونيو 2004م) ولم يكتب لأعمال هذا المؤتمر النشر حتى الآن.

وأكرر إنّه كان محظوظاً في كل ذلك، لأنّه لو بقِيَ في قريته، ولم يرح منطقتَه، ولم ينتقل من بيئة الرتابة والركود والجمود والزهد في التأليف والمنافسة، إلى عوالم التفاعل الحضاري بألوانه وحوافزه ومنافساته، لما كان له هذا العطاء العلمي المشرف، ولما تمكن من ذلك الجهاد السياسي المتميز، ولا حقق تلك المواقف الوطنية الخالدة. ولئن بحثنا في أسباب غياب الإسهام العلمي المتميز في ليبيا على امتداد العصور، وازدهاره مشرقاً ومغرباً، لوجدنا أنّها أسباب تعود في مجملها إلى طبيعة البيئة والناس في ليبيا وما يحكمهم من أعراف وسلوك، وانعدام التنافس والمثاقفة، وما يتصف به أعلامهم من تواضع مبالغ فيه وبخس لإمكاناتهم العلمية.

ولقد اتسم الشيخ الزاوي في كل ما كتب وألّف بمسحةٍ أدبية مؤنقة وحيوية جمالية متميزة، لم يمتلكها معاصروه من أعلام ليبيا الذين لم يبرحوا موطنهم، ويبدو أنّ ذلك التميز الأسلوبي ما كان إلا منحة من منح النيل وطلاوة أجوائه وذوق أهاليه. وهذه حقيقة تشهد بها عشرات الأمثلة لشخصيات مغربية اكتسبت ذلك الأسلوب في الكتابة وأنس الملاحظة وخفة الروح من الشرق، بعد أن تخلصت من تجهم بيئتها وصرامة جديتها وأسلوب تعبيرها.

### آثاره العلمية:

كان للدراسة الأزهرية الموسوعية فضلها على الشيخ الزاوي بنيله شهادة العالمية سنة (1938)، وهو ما مكّنه من الإسهام العلمي في مجالات الفقه واللغة والأدب والتاريخ، تأليفاً وتحقيقاً.

ففي مجال الفقه صنّف مجموعة فتاوى (بيروت 1973)، و(حقّق) كتابين هما: مختصر خليل (القاهرة د.ت)، والضوء المنير المقتبس في مذهب الإمام مالك بن أنس، تأليف محمد الفطيسي، (القاهرة 1966).

أمّا في مجاليّ الأدب واللغة، فقد قام بترتيب القاموس المحيط، القاهرة (1959)، واختصر القاموس نفسه وأسماء مختار القاموس (القاهرة 1963)، وقام بتحقيق الكشكول للعاملي (القاهرة 1961)، وديوان البهلول (القاهرة 1966)، ومثلثات قطرب: نظم إبراهيم الأزهري (بيروت 1984)، ومنظومة الفروخي (بيروت 1984)، والدرر المبتثة في الغرر المثلثة للفيروزآبادي، (الدار العربية للكتاب 1987)، كلها بمفرده، كما حقق بمشاركة المرحوم الدكتور محمود الطناحي كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، (القاهرة 1963). وقد استثنيت من دراستي هذه كتابي ترتيب القاموس، ومختار القاموس، لكونهما في نطاق الترتيب والاختصار، وليس في إطار التحقيق والتأليف الذي هو موضوع هذه الدراسة.

وكان للظروف الوطنية التي عاصرها الشيخ من جهادٍ بالسلاح، ومن هجرةٍ ونضالٍ سياسي متواصل، الحافز الأكبر في الاتجاه نحو الاهتمام بتاريخ الوطن ومراحل نضاله والتعريف بأعلامه ومدنه ومعامله، وقد تمثل هذا الاهتمام المتميز في ثلاثة مسارات: التأليف والتحقيق والتحرير، ولم أتعرض هنا للثالث منها، لأنّه خارج إطار هذه الدراسة. في نطاق التأليف، هناك: عمر المختار (ألفه عام 1932)، (د. ت)، وجهاد الأبطال (القاهرة 1950)، وتاريخ الفتح العربي لليبيا (1954)، وأعلام ليبيا (طرابلس 1961)، ومعجم البلدان الليبية (طرابلس 1968)، وولاية طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد العثماني (بيروت 1970)، وجهاد الليبيين في ديار الهجرة (1924 – 1952)، (طرابلس 1976)، وتاريخ مدينة الزاوية (مخطوط)، وقد طالعتها جميعاً باستثناء الأخير الذي لم أتمكن من الحصول عليه، وقد علمت أنّه تحت الإعداد للنشر.

أمّا في جانب تحقيق النصوص التاريخية، فله: التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار، لابن غلبون، (القاهرة 1930)، ثم الجزء الثاني من: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب، (طرابلس 1961).

ويبقى جانب التحرير، وهي مجموعة وثائق سياسية عن أعمال ايطاليا في ليبيا، وتقرير عن القضية الطرابلسية وما يتصل بها من أعمال الإنجليز، والكتاب الأبيض في وحدة طرابلس وبرقة.

وانطلاقاً من تحديد موضوع هذه الدراسة في تلمس ملامح المنهجية التي سار عليه شيخنا الزاوي في تأليفه وتحقيقاته، نبدأ أولاً بمنهجية التأليف:

### أولاً: منهجيته في التأليف:

المتأمل فيما صنفه الشيخ الزاوي بصورة عامة يلاحظ بوضوح التزامه بأبرز ملامح التأليف العربي الحديث، وقد تفاوت هذا الالتزام من كتاب إلى آخر من كتبه، بحكم طبيعة مادة الموضوع ونوع مصادره ومراجعته. وسعيًا لاستخلاص أبرز تلك الملامح، علينا أن نستعرض هذه المصنفات، وهي الآتية:

#### 1 - معجم البلدان الليبية:

دعا المؤلف إلى تأليف هذا المصنف ملاحظته أن كثيراً من المؤرخين وأصحاب الرحلات والجغرافيين قديماً وحديثاً قد ذكروا بعض البلدان الليبية مفرقة في كتب عربية وإفريقية، يصعب على كثير من الناس معرفتها ومعرفة ما يتعلق بأسمائها وتاريخها.

وقد تمكّن المؤلف من خلال رحلاته في مناطق بلاده ما بين (1919 - 1923)، ثم ما بين (1964 - 1965)، أن يزور كثيراً من الأماكن، وأن يدوّن عنها ملاحظات مهمة، كانت هي المنطلق له لتصنيف هذا الكتاب، فلما استقر بالمؤلف المقام في مصر عام (1924)، أخذ يراجع ما جمعه في جولاته تلك، واستعان بعددٍ من المراجع التي عُنيَتْ بالبلدان الليبية مثل: معجم البلدان للحموي ورحلات العياشي والتجاني وابن رُشيد والرحلة الناصرية والتبيان لرأفت بك وغيرها، ليخرج كتابه هذا.

منهجه فيه: (ص 7-9).

جمع المؤلف في هذا الكتاب ما وصل إليه علمه ووقف عليه بنفسه من مدن أثرية وقصور جاهلية وقرى وجبال وأودية وعيون جارية وآبار لها شهرةً وأبراج وزوايا ومساجد وأماكن وقبائل عربية نسبها أحياناً إلى أصولها الأولى، ورتبها على حروف المعجم، وما كان من الأسماء مبدوعاً بلفظ (ابن) أو (أبو) أو (أم)، ذكره في حرف الهمزة، وما كان مبدوعاً بأداة التعريف (ال) ذكره في الحرف الذي يليها مباشرة.

وقد عرّف بجميع ما ذكر من المدن وبعض القرى تعريفاً مختصراً واضحاً، وأرّخ للمشهور منها، مشيراً إلى ما وقع فيها من وقائع الجهاد ضد الظليان، أو الصراع بين الأهالي.

وقد أشار المؤلف إلى هذا المنهج في مقدمته، كما أشار إلى أنّه نبّه على بعض الأماكن أنّها غير معروفة، وإلى أنّه «إذا كان للبلد اسمان - قديم وحديث - ذكرت كلاً منهما زيادة في التوضيح، وبحث عن كثير من الأسماء لأعرف هل لها أصل في العربية أو لا، كما أشرت إلى كثير من الأسماء ذات الأصول البربرية، وما يُطلق منها على المكان والسكان»، وذكر أنّه حاول «في بعض الأحيان إيجاد أصل لغوي لبعض الألفاظ المستعملة عندنا في طرابلس، وخصوصاً في الشعر البدوي، وبعض الألفاظ قد يكون رُبُّطُهُ بالأصل اللغوي غير واضح، ولكنّه يُستأنس به»، حيث إنّ مثل هذه المحاولات قد يفتح باباً - كما يقول - للبحث لمن يرغب في ذلك، وربما هداه بحثه إلى أوضح مما اهتدى إليه المؤلف هنا.

ولا يفوت المؤلف أن ينبهنا هنا - كما اعتاد أن ينبه في كل مصنفاته - إلى أمر مهم يجسّد تواضعه ويمثّل وعيّه بنسيّة الجهد البشري مهما بلغ به صاحبه، فيقول: «ولا أدعي أنّي استوعبت كلّ ما اشتملت عليه ليبيا من قرى وأمكنة... واعتقد أنّه ما فاتني إلا القليل».

وقد استوفى الكتابُ منهجيته بما وضعه المؤلفُ من ثبت بالمصادر والمراجع وبفهرس للأماكن والأشخاص، وبما ذُيِّلتْ به صفحاته من إحالات وملاحظات وتعليقات.

## 2 - ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي:

يقع الكتاب في (300) صفحة من الحجم الصغير، ويشتمل على إهداء ومقدمة، ثم يستعرض الولاية الذين حكموا البلاد من عهد الخلفاء الراشدين حتى آخرِ وإلِ قَبْلَ بداية الاحتلال الإيطالي عام (1911)، وعددهم (148) والياً.

**منهجه:** لم يضع المؤلف لكتابه ثبنا بالمصادر والمراجع التي استقى منها مادته العلمية، ولم يشر إلا إلى قليل منها في هوامش الكتاب، كما اكتفى بذكر بعضها في ثنايا الكتاب نفسه مثل كتابات ابن خلدون والنائب وابن غلبون والجبرتي ورودلف ميكاكي وجوزيف كاكيا، والمرجع الوحيد الذي لفتَ المؤلفَ له نظرَ القراء هو كتاب النائب الذي خصه بالملاحظة الآتية: «تاريخ النائب... طبع الأول مرة في الأستانة سنة 1317هـ، وبترخيص من نظارة المعارف التركية رقم 738، وأشرف على طبعه صاحبُ مطبعة تركية، وفي بلاد تركية، وعلى مرأى ومسمع من الترك. ولو كان ما فيه من الأخبار عن الترك التي نقلنا بعضُها غيرَ صحيحة، أو في محل الشك، لما كانت نظارة المعارف التركية ترخص في طبعه... وما نكُرُهُ أن كان فيه من الأخبار عن الترك على غير هذا الوجه... والعامل من اتعظ بغيره» (ص 236).

وقد جعل المؤلف الهوامش للتعريف ببعض الأعلام والمواضع وضبط نطقها، وكذلك للإشارة إلى اختلاف في بعض التواريخ أو الروايات، دون ذكرٍ في الغالب الأعم للمصدر أو المرجع الذي اعتمد عليه، كما تكررت لديه الإحالة في الهوامش وأحياناً في المتن إلى كتابه (تاريخ الفتح العربي في ليبيا) الذي لخص منه معظم المادة العلمية التي بنى بها هذا الكتاب، وكذلك إلى كتبه: أعلام ليبيا، ومعجم البلدان الليبية، وجهاد الأبطال.

ويتسم عرض المؤلف لمادته التاريخية بالتركيز والاختصار والاكتفاء بسرد الأحداث دون تحليلها بما نجده في كثير من كتب التاريخ الأخرى من طرف أو نصوص أدبية، عدا موضعين أو ثلاثة لا أكثر. غير أنه استشهد في مواضع قليلة ببعض الآيات القرآنية للعظة والاعتبار، وذلك على طريقة النائب في كتابه المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، كقوله الذي ساقه المؤلف هنا: «... وانقرض بيت آل القره مانلي وتفرقوا أيدي سبأ، وحصل المنى، والله يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، وهذه ثمرة التصرف بالشهوات، وغض الطرف عن الغوائل والآفات...» (ص 235).

ومن خصائص هذا التأليف تتبعه الدقيق للأحداث ومقارنته بين الروايات والتواريخ ثم ترجيحه ما يراه الأصح منها، ومن ذلك أيضاً تعليقاته على بعض المواقف التي يرويها، كقوله في شأن صاحب المنهل العذب: «وأهل الفساد عند النائب هم العرب الثائرون على ظلم الترك واستبدادهم، وكثيراً ما وصفهم بذلك، وهذا منه ليس من الإنصاف في شيء» (189)، وكقوله عن ابن غلبون: «وذكر ابن غلبون شروطاً أخرى غير الغرامة الحربية، لا تتفق - في نظري - مع تصريح النائب بأخذهم الغرامة الحربية ورحيلهم عن البلد» (202)، وكذلك تعليقه على ولاية العهد العثماني في ليبيا، بقوله: «وهذا العهد المظلم الذي يتولى فيه الخياط وبائع القهوة منصب الولاية، والذي عاشت فيه طرابلس نحو (360) سنة - هذا العهد المظلم هو الذي أثر على طرابلس ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، وهو الذي قَعَدَ بها عن اللحاق بجارتها مصر وتونس...» (209)، وانظر كذلك ما جاء في ص (233).

أمّا عن أسلوب المؤلف في الصياغة فهو امتداد لأسلوبه في سائر مصنفاته من حيث طول العبارة ووضوحها وفصاحتها وإحكامها.

### 3 - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب:

يضم الكتاب (544) صفحة من الحجم المتوسط، ويحتوي على مقدمتين وإهداء وتمهيد، وترجمتين الأولى في بداية الكتاب عن السيد عبد الرحمن عزام ودوره في الحركة الوطنية

اللبيية خلال فترة الاحتلال الإيطالي للبلاد، والثانية عن المؤلف نفسه، ثم موضوعات الكتاب التي تناولها بحسب تسلسل الأحداث، فجاءت في أربع مراحل. وقد صدر هذه المراحل بوصف ما كانت عليه الأوضاع السياسية الدولية والمحلية والحالة الاقتصادية، وسيرة ولاية طرابلس من الأتراك، وما عاملوا به الناس، وكذلك الترتيبات والتطورات التي مهدت للاحتلال الإيطالي، ثم أنهى هذا التصدير بتعريف لأنواع البطولة، فقدم ثلاثة تعريفات، وأعقبها بتلخيص ما كتبه العلامة الأمير أمين أرسلان عن الطريق المحرمة في الحرب في كتابه: حقوق الملك ومعاهدات الدول.

يقول الشيخ الزاوي في (ص 529) عن كتابه هذا جهاد الأبطال: «وهو وثيقة من أصح الوثائق التي كتبت في الجهاد الطرابلسي، وفيه من الحقائق ما لا يرقى إليه الشك؛ لأنه يستند إلى المشاهدة والرواية عن الزعماء الذين تولوا رئاسة حكومات المجاهدين، وتولوا ما كان بينهم وبين الطليان من مفاوضات ومعاهدات، ومكاتبات في صميم القضية، وعن الذين باشروا الحرب رؤساء وجنوداً، وقد شرعت في تأليفه منذ أن استقر في المقام في مصر سنة 1925»، وهذا يعني أن تأليفه استغرق زهاء العشرين سنة، كما يشير في مقدمة الطبعة الأولى (ص 16).

وبعد أن يبين المؤلف سبب تسمية الكتاب بهذا العنوان، ولم يُسمه جهاد الأبطال في ليبيا أو في طرابلس وبرقة، يشير إلى أنه أحصى فيه ما لم يكتب لغيره أن أحصاه في هذا الموضوع، ثم ينبهنا إلى أمر مهم هنا، وهو أنه لا يدعي الإحاطة بكل شاردة وواردة في هذا الشأن، يقول: «ومن اليسير على الباحثين في الجهاد الليبي العثور على حقائق كثيرة لم أذكرها، لأني لم أعرفها، وأني لمثلني أن يحيط بحقائق جهاد مقدس استمر نحو 22 سنة؟» ص (530).

وتمشياً مع طبيعة المادة العلمية التي بني عليها الكتاب، وهي المستقاة من صميم الوقائع والروايات والمقابلات، ومن واقع بعض الصحف الأجنبية والمراسلات والمفاوضات

ومحاضر المعاهدات والقوانين، لم يضع المؤلف ثبنا بالمصادر والمراجع، مع أنه كان في إمكانه ذكر قائمة بعناوينها ورواياتها وأصحابها وأماكن وقوعها وتاريخها كما تقتضيه المنهجية الحديثة، وذلك تسهيلاً لمراجعتها والانتفاع بها.

أمّا الهوامش فهي قليلة، قد اقتصرت على ملاحظات توضيحية، وليس بها إحالات إلى المصادر والمراجع، بحكم أنّ الكتاب لم يُبَيَّنَ عليها، إلا في مواضع قليلة، وإنّما على المشاهدات والروايات كما ذكرنا.

ومن مزايا هذا الكتاب أنّ مؤلفه لم يكتفِ بسرد الأحداث، بل حرص على تحليلها وإبداء رأيه فيها، وقد مكّنه من هذا ما تحصّل عليه من معلومات من طريق الآخرين، وما كان لديه من خبرة شخصية بأبعاد الأحداث وأسبابها، وما تمخّض عنها من نتائج. يقول الدكتور محمد مسعود جبران: «فهذا الكتاب جهد مبكر يقوم على اعتماد الرواية الشفاهية المحدودة وغير المتبَعّة للأساليب الدقيقة، إلى جانب المعلومات المدونة، كما أنّ صاحبه حاول فيه الجمع بين المقابلة والتوثيق في الأحداث والمواقف التي اختلفت فيها الكلمة، واختيار الأصحّ الراجح ليعطي للكتاب أهمية خاصة» (ص 20-21، ط3، المدار الإسلامي).

كذلك فقد محّص المؤلف أدوار عددٍ من الشخصيات التي شاركت في الجهاد، أو في العمل السياسي الوطني، أو في الصراع القبلي سلباً أو إيجابياً، وكان حولها لغط ما، فأعطى فيها رأيه من خلال ما توفر له من معلومات. وقد فضّل عدم ذكر أسماء بعض الذين تعاونوا مع المستعمرين، يقول: «وذكرتُ بعض الحقائق التي تحطُّ من أقدار بعض المواطنين الذين ما زالوا أحياء، ولم أذكر أسماءهم سترًا عليهم، وتجنباً للتشهير بهم...» (ص 530). ويرى الدكتور جبران أنّ الكتاب لم يسلم - بعد ذلك كله - من انطباعية وتأثرية في بعض المواقع، يدركها من يعرف سير الأحداث في الحرب الليبية ومواقف الشخصيات الفاعلة فيها». (ص 21، ط3، المدار الإسلامي).

وقد اتصف أسلوبُ الكتابِ ببيان شائق وصياغة محكمة صافية، عكست ثقافة المؤلف العربية المتمكنة من التراث، ومن هنا جاء عرضه المادة العلمية عرضاً ممتعاً جذاباً، وهذه نماذج منه:

«وشمّرت الحربُ عن ساقِها، وشمل البلادَ دويُّ المدافع، وهبُ البارودُ كان يأخذ بمعاطيس الرجال» (ص 15) وقوله: «وقد سلختُ في جمعه من عمري زهاءَ عشرين سنة» (ص 16)، وقوله: «إنَّ هؤلاءَ نفرَ لم يكن لهم من دينهم رادع، ولا من أخلاقهم وازع ..» (ص 34)، وقوله: «ظن الطليان أنَّ طرابلسَ لقمة سائغة، وأكلة ناضجة لا تلبث أن تُبتلع فتَهضمّ.... وقدّروا للانتهاء من فتحها 15 يوماً.. وكان هذا التقديرُ وذاك على حد قول الشاعر:

\*وتقدرون فتضحك الأقدارُ\* (76)

ويصف معركةً شارك فيها بقوله: «وعند انبثاقِ الفجر، وفي لحظةٍ لا تزيد على بضع ثوان خشعت الأصواتُ وحُبستِ الأنفاسُ، وإذا بلغة الحديد والنار تملأ ضوضاؤها ما بين السماء والأرض، وإذا بالمجاهدين يندفعون كالسيل المنهيرِ إلى الأمام، يخاطب بعضهم بعضاً..» ص (102).

وتحت كلمةً بعنوان «إيطاليا في طرابلس» يقول «صفحة من التاريخ ضاقت بما اشتملت عليه من حوادثٍ وعبر، فانتهدت إلى غاية جرت إليها، ثم ختمت على ما حوت من خيرٍ وشر، وأودعت في خزائن التاريخ حيث تُحفظ سجلاتُ الأمم وتوارىخها... وللتاريخ في هذه الصفحات نظراتٌ عادلة يُقيم من أجلها موازينَ القسط، لتجد كل دولة ما عملت من خيرٍ مُحضراً، وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً، وسيجدُ التاريخُ في صفحاتِ دولة الروم .. ما تَسوّدُ الوجوه لفضاعته وبشاعته، وما تتبرأ منه الإنسانية، بل الوحوشُ في آجامها» (ص 522). وقد أملت عليه حافظته من ذخائر الشعرِ أن يستشهد بشطرةٍ أو بيتٍ من الأبيات المتداولة في كتب الأدب، كلما رأى مناسبةً لذلك.

#### 4 - جهاد الليبيين في ديار الهجرة:

يحتوي الكتاب على إهداء ومقدمة وتصدير، ثم يمضي في عرض موضوعاته دون تقسيمها إلى أبواب أو فصول أو مباحث محددة. وقد اعتمد المؤلف كلياً على معلوماته الشخصية وتجاربه المباشرة وعلاقاته بالليبيين المهاجرين وبالموجودين في داخل البلاد، وبما عاصره من أحداث تتعلق بالقضية الوطنية الليبية، فسجّل كل ذلك مستشهداً بكثير من الوثائق من رسائل واتفاقات ومذكرات وبرقيات وتقارير خاصة بتطور تلك القضية من سنة 1924 حتى 1952.

أمّا هوامش الكتاب فهي مختصرة وقليلة جداً، ويلاحظ أنّ الكتاب يشتمل على معلومات دقيقة ومفصلة عن الأشخاص والأحداث والأمكنة، دون استناد إلى المصادر والمراجع المكتوبة.

وأسلوب المؤلف سلس ومحكم واضح، ذو جمل قصيرة ومتوسطة، مضبوطة في ترقيمها، وهو يُعد امتداداً لأساليب أعلام البيان المشاركة من أمثال طه حسين والزيات وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وأضرابهم، ومع أنّ موضوع الكتاب سياسي تقريري لا صلة له بالأدب، فقد جاء أسلوبه مشرقاً وشائقاً، كقوله:

«وفي ضوء تلك البروق الخلابية التي برقت من ميثاق عُصبة الأمم، ومن قراراتها ومنشوراتها كان الليبيون يطالبون بكفّ إيطاليا عن ظلمها، ووقّف عدوانها عند حد. ولكن هيهات أن تُسمع صيحات الحق في ضوضاء دوي المدافع، وأزيز طائراتها كان يحول دون تنفيذ قرارات عصبة الأمم...وها هو التاريخ يعيد نفسه، فإنّ قوّى الحلفاء الظافرة، ونشوة النصر التي لعبت بعقولهم ما زالت تحول دون تنفيذ قرارات هيئة الأمم، بل دون سماعها» (ص 33).

#### 5 - أعلام ليبيا:

يقع الكتاب في (463) صفحة من الحجم المتوسط، مشتملاً على خمس مئة ترجمة،

مرتبة هجائياً، ومرفق بعضها بصورة شخصية نادرة، ويتقدم هذه التراجم إهداء ومقدمتان، ويعقبها في نهاية الكتاب ثبتٌ بأربعة وأربعين من المصادر والمراجع، إضافة إلى معلومات المؤلف الخاصة.

ويحدد د. محمد مسعود جبران مكانة هذا المصنّف في المكتبة الليبية بقوله: «وللإنصاف نقول إنّ عمله ليس أول محاولة منشورة في التعريف ببعض هؤلاء الأعلام، إذ كان السابق في عمل ذلك الأستاذ عليّ الفقيه حسن، وآخرون أودعوا مقالاتهم في صفحات المجلات والجرائد التي كانت تصدر قبل نشر هذا الكتاب» (ص 22 ط 3)، وقد لاحظ د. جبران أنّ «هذا الكتاب - حتى إن سلمنا بجدوى المختصر في التعريف بأولئك الأعلام - لم يشتمل على تراجم كثيرة أغفلها المؤلف، وهي لا تقل مجال من العلم والفضل عن ترجم لهم»، وهو يتفق في هذا مع د. محمود مكي في تسميته هذا الكتاب مُنتخباً من الأعلام الذين أنجبتهم ليبيا في تاريخها الطويل. (انظر ص 22 ط 3).

وتحتوي بعض صفحات الكتاب على هوامش مهمة من تعليقات وتصويبات وشروح مختصرة وضبط للأعلام، وقد أضفى وجود المصادر والمراجع من جانب، ووجود الهوامش من جانب آخر، طابع المنهجية الذي أعطى هذا المصنّف المهم قيمته العلمية.

وتتفاوت التراجم في هذا الكتاب طولاً وقصراً، وذلك بحكم ما كانت تُسَعَّف به المصادر والمراجع من مادة علمية وما لدى المؤلف نفسه من معلومات شخصية، لذلك فمن هذه الترجمات ما لا تتجاوز سطرين أو سطرًا، أو ربما نصف سطر، ومنها ما تمتد إلى صفحة، بل أحياناً إلى صفحات ضافية عديدة.

#### 6 - عمر المختار:

هذا الكتاب هو - كما كُتب تحت عنوانه - الحلقة الأخيرة من سلسلة الجهاد الليبي، ويشتمل على تقديم بقلم المرحوم الأستاذ عبد الرحمن عزام، ثم تعريف بهذا الأستاذ، ثم مقدمتي الطبعين الأولى والثانية، ثم ترجمة للشهيد عمر المختار، ثم سرد مراحل جهاده

من مفاوضات الزويتينة حتى أسره واستشهاده، واختتم الكتاب بعددٍ من المراثي النثرية والشعرية، تليها الخاتمة، وكل ذلك في (236) صفحة من الحجم المتوسط.

ويحدثنا المؤلف عن ظروف تأليفه هذا الكتاب فيقول: «ولقد كنتُ وقتَ تأليفه بمصر سنة 1353هـ الموافق 1932م أرقب أحداث بلادنا على كثر، وأسجّل ما يصل إليّ من صحيح الأخبار، ووقائع الحرب في الجبل الأخضر، تارة بواسطة بعض المجاهدين الذين كانوا يقدون على مصر، وتارةً بواسطة الأخبار التي كانت تنقلها الجرائد عن مراسليها، أو عن مَنْ يتصل بها من المجاهدين، أو ما يأتي إليها من الجهات الحكومية الرسمية» (ص30).

ومن خلال هذا النص ندرك أنّ مصادر المؤلف ومراجعته الأساسية إنما كانت الروايات الصحيحة المستقاة مشافهةً من القادّمين من داخل الوطن، أو من طريق مراسلي الأخبار العرب والأجانب، وقد ساق نصوص عددٍ من المعاهدات، مثل معاهدة طرابلس - برقة سنة 1340هـ / 1923م، ونص المبايعة الطرابلسية سنة 1341هـ، ثم نص الرد عليها، ونص واقعة «كريسه» سنة 1349هـ، وغيرها، ولم يقتبس شيئاً من الكتب المنشورة سوى اقتباس واحد من كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان (ص40)، كما أنّ الشيخ الزاوي لم يشر إلى أي من كتبه الأخرى، وهو ما يدل على أنه صنّفها بعد هذا الكتاب. أمّا الهوامش فهي قليلة نسبياً ومختصرة جداً، وقد اهتمت بضبط أسماء بعض الأماكن، والتعليق على بعض الأحداث، ولا ذكّر في نهاية الكتاب لما اعتمد عليه من المصادر والمراجع.

7 - مجموعة فتاوى:

هذا الكتاب هو في (286) صفحة من القَطْع المتوسط، تبدأ بإهداء ومقدمة، وتنتهي بفهرس المحتويات، وهي مجموعة فتاوى شرعية انتقاها المؤلف من بين الفتاوى التي كان يردُّ بها على أسئلة الناس عندما كان يشغل منصب مفتي الديار الليبية في دار الإفتاء في طرابلس. وقد قدّم لها بمقدمة موجزة جاء فيها: «فقد بذلتُ جهدي فيما كتبتُ للوصول

إلى الحق وتحري الأفتوال المعتمدة على الدليل من كتاب الله أو سنة رسول الله والموافقة لما درج عليه أصحاب رسول الله وأئمة المسلمين، لتوضيح ما خفي على المواطنين من أحكام شرعية هم في حاجة إليها» (ص 8).

تناولت تلك الفتاوى أهم المشكلات التي كانت تشغل بال المواطنين في ليبيا في تلك المرحلة، مثل قضايا الطلاق بالثلاث في كلمة واحدة، وحرمان البنات من الميراث، وسفور المرأة، والحضانة، ومنع الزوجة من العمل، وأحكام الربا، واللحوم المستورة والتصوير والرؤية واللهو وزيارة القبور، والحكر والحيازة، وبعض أحكام في الصوم والحج والعمرة .... وغيرها.

ويلاحظ المطالع في هذه الفتاوى - على افتراض أنها من جهده شخصياً وليست من إعداد بعض العاملين معه، وهم متخصصون في هذا المجال - يلاحظ فيها جهداً صادقاً واطلاعاً واسعاً في استقراء المعلومات وتتبعها بكل صبر وأناة، ثم يأتي عرضها وتحليلها ومناقشتها والترجيح بينها بكثير من العناية والتدقيق، في صياغة لغوية دقيقة ومتينة، واضحة وجذابة، ولا شك في أن مرد هذا كله إلى ما يتمتع به المؤلف من ذوق أدبي عال، ولغة جميلة صافية.

وقد اتضحت جديّة المؤلف في حرصه الشديد على تتبع المسائل وما يتعلق بها من جزئيات وخلافات، داخل إطار الفقه المالكي في غالب الأحيان، ولكن بينما نجده ملتزماً في كثير من الاقتباسات بذكر مصادرها الأولية أو الثانوية، وقلما يحدّد مواضع النقل منها بتعيين الجزء والصفحة، إذا به في مواضع أخرى يهمل هذه الإحالة وهذا التحديد، ولا يثبت من الهوامش إلا القليل الموجز، كما يهمل الإحالة إلى مصادر الأحاديث النبوية التي يستدل بها، أمّا المصادر والمراجع التي استعان بها وجعلها في قائمة آخر الكتاب، فهي خالية من ذكر طبعاتها وناشرها وأماكن نشرها وتاريخ النشر، وكل مظاهر التقصير المنهجي هذه إنَّما احتذى فيها المؤلف

سنن كثير من المؤلفين المتحررين من الالتزامات المنهجية الأكاديمية، هذا ويشعر قارئ هذا الأسلوب في التأليف بأنه كأنما يخاطب فئة المتخصصين وحدهم في هذا المجال، وليس عامة القراء من المثقفين وغيرهم ممن قد يحتاجون إلى مراجعة هذه الاقتباسات في مظانها والتوسع في بحثها.

إن ما قدمته دار الإفتاء في طرابلس من خدمات علمية للناس على عهد المرحوم الشيخ الزاوي تراث جدير بأن ينشر ونشرًا علمياً، ويصل إلى الأيدي، ويسهم في توعية المواطنين بدينهم، وحل مشكلاتهم الفقهية المعاصرة، وأنه لمن المؤسف أن يهمل هذا التراث، وتجهل الأجيال الجديدة حتى هذه المجموعة من تلك الفتاوى التي جاهد المؤلف ومساعدوه في سبيل وصولها إلى الناس، وهي عريضة الوجود الآن، ولا يعرفها إلا أقل القليل.

### ملامح المنهجية في تلك المصنفات:

1- بنية الهيكل الدراسي: وهي متفاوتة بين مؤلفاته هذه، فعلى حين اعتمد الشيخ في تقسيم الكتاب على المراحل الزمنية، ثم استعرض أحداث كل مرحلة، وهو ما اختاره في كتابيه «عمر المختار» و«جهاد الأبطال»، قسّم كتابه «ولاية طرابلس» عهداً متتالية، وتناول في كل عهد منها من كان فيها من الولاية، أمّا كتابه «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» فهو يتابع أحداث الفتوح عبر عهود متواصلة أيضاً، لكنّه تتبّع سكاني جغرافي تاريخي مترابط، وهو تتبّع يختلف تماماً عما هو موجود في كتابيه «أعلام ليبيا» و«معجم البلدان الليبية» اللذين نهج فيهما التتابع الهجائي المعروف، ويتفرد كتابه «مجموعة فتاوى» بهيكل خاص يقوم على تتابع موضوعات الفتاوى نفسها دون مراعاة لأي شيء آخر، وقد وُفق الشيخ فيما اختار من تقسيمات، تمشياً مع طبيعة المادة العلمية موضوع الكتاب.

ويلاحظ أنّ الإهداء والمقدمة - وقد تتعدد - والخاتمة، عادة هي عناصر أساسية في تلك المصنفات، وقد يضيف المؤلف أحياناً عناصر أخرى، كتعريفه في «جهاد الأبطال»

بسيرته الذاتية، وبالكتاب الذي يقدمه، وبشخصية عبد الرحمن عزّام الذي كانت له إيادة  
بيضاء على القضية الوطنية الليبية في تلك العهود.

2- إثبات قائمة المصادر والمراجع والهوامش: وهو أبرز ملامح الالتزام بالمنهجية  
العلمية، هنا نجد المؤلف يحرص على إثبات مصادره ومراجعته في كل من: معجم البلدان  
الليبية، وأعلام ليبيا، وتاريخ الفتح العربي، ومجموعة الفتاوي، وإن كان إثباتاً مبتوراً لا  
تتوفر فيه شروط المنهجية الحديثة من حيث تقديم كل المعلومات التوثيقية المتعارف عليها  
للنشر، ونجده يُهمل ذكر المصادر والمراجع في «عمر المختار، وولاية طرابلس، وجهاد الأبطال،  
ولئن كانت له مندوحةٌ إلى حدٍّ ما في فعل ذلك في كل من جهاد الأبطال وعمر المختار، لأنَّ  
معظم مادتهما العلمية مستقاة من خضم الأحداث والمعاناة الشخصية، فليس له عذر في  
كتابه وولاية طرابلس.

أما الهوامش فهي تتخلل كل مؤلفاته في اقتصاد وتركيز وحيثما وُجدت حاجةٌ ماسة  
لذلك، على تفاوت بين تلك المؤلفات وبين مباحثها، ومع ذلك، فقد يَعْمَدُ المؤلفُ أحياناً في  
بعض المواضع إلى استخدام ما يسمى بالتهميش الداخلي أو المضمن داخل متن الكتاب،  
وتهتم تلك الهوامش بصورة عامة بالملاحظات والتصويبات العلمية واللغوية، أكثر من  
اهتمامها بالإحالة إلى المواضع المحددة في المصادر والمراجع.

3 - منهجية الدراسة والتحليل: وقد تمثلت بحكم طبيعة المادة العلمية على  
منهج النقد التاريخي القائم على الأخبار المدونة وعلى الروايات الشفوية والمشاركة  
الشخصية في بعض الأحداث، وكذلك على منهج تحليل المضمون الذي يستمد مادته  
البحثية من وسائل الإعلام من طريق مراسليها العرب والأجانب، ومن التقارير  
 والمرسلات الشخصية والرسمية ومحاضر الاجتماعات. ومن الملاحظ بوضوح هنا أنَّ  
المرحومَ الشيخ الزاوي لم يتأتَّ له تطبيق تلك المنهجية بمتطلباتها المعاصرة، بحكم  
تكوينه العلمي الديني من جانب، وبحكم أساليب الكتابة والتأليف التي كانت

سائدة في النصف الأول من القرن الماضي من جانب آخر، فالشيخ لم ينطلق في كتاباته من فروض علمية، أخضعها للتحقيق الدقيق، ولم يمتحن ما اعتمده من روايات وأخبار بالشك المنهجي، ولم يستبعد وجهات نظره الخاصة فيما أثبت، بل كان يسترسل على سجيته، مستنداً إلى كل ما توافر لديه من معلومات. ولم يأل جهداً - بحكم أصالة طبعه ونقاء ضميره ووازع ثقافته الشرعية وصدق التزامه الديني - في صوغ أفكاره، وتقرير أحكامه على الأحداث والمواقف والشخصيات.

ولا بد لنا من التسليم بحقيقة معروفة وهي أنّ المؤرخ في الأساس بشر، لا يتأتى له أن يتجرد نهائياً في أحكامه واجتهاداته من ميوله الشخصية ونوازعه الذاتية، ولا سيما عند تناوله أحداثاً ومواقف ذات أبعادٍ متداخلة وظروف معقدة ووجهات نظر نسبية متفاوتة، والناقد المعاصر لا يمكنه أن يسلم بتلك الأحكام والاجتهادات إلا بعد القيام بمسح في ذاكرة من بقي من الناس الذين شاركوا في أحداث الجهاد الوطني الميداني منه والسياسي، وجمع كل الوثائق العربية والأجنبية ومراجعة الحركة الإعلامية التي واكبّت مراحل الجهاد داخل الوطن وفي ديار الغربية، ثم مقارنة ما جاء في مؤلفات شيخنا الزاوي، وهذه هي مهمة البحث الأكاديمي الرصين.

4- لغة العرض والتحليل: وهي كما تعرفنا على نماذج منها في عرضنا هذا لغةً منتقاةً وجميلة، لكنّها لا تتناسب ومقام الدراسة والتحليل العلمي الذي يتجنب الصياغة الأدبية الموشاة بالصور البيانية والمحسنات البديعية والكنائيات والتمثل بالآيات والأشعار والحكم والأمثال، والموسومة أحياناً بالمبالغات والجزم في الأحكام والتعميم.

ولكننا إذا قارنا أسلوب الشيخ في كتاباته بما كان شائعاً في تلك الحقبة من أساليب من هذه الزاوية، تغاضينا عن هذا المأخذ، لأنّه كان آنذاك أمراً طبيعياً مستساغاً، ومن الإنصاف أن نعترف بأنّه ما يزال مسيطراً على كثير من الكتابات الأكاديمية حتى الآن، وهو من أبرز عيوب كتابتنا العلمية التي يصعب التخلص منها.

وعلى كل حال، فإنّ مؤلفات الشيخ الزاوي هذه بما عليها من مآخذ يسيرة هي إسهام عظيم، أغنى به المكتبة الوطنية، غير أنّها من على وطنه، ومحاولَةٌ جادة منه لبناء كيان لشعبه، يحدد ملامح هُويّته، ويبرز ألوانَ عطائه، ومن ثمّ فهي مشاركة جلييلة في ترميم ذاكرة هذا الوطن المضيّعة.

### ثانياً: منهجيّته في التحقيق:

كان من بركات البيئة المصرية على الشيخ الزاوي تعرّفه على أوساطها العلمية وصداقته لعدد من العلماء والمثقفين والمحققين والناشرين، وقد دفعه هذا إلى مشاركتهم في بعض نشاطهم العلمي، فجاءت مجموعةٌ تحقيقاته المعروفة، دليل حيويةٍ فعّالة، وجدّية وطموح، ويبدو أنّ الشيخ لم يكن لديه برنامجٌ محدّد أو خطةٌ مرسومةٌ في هذا المجال، مقارنةً بما قدمه في المجال التاريخي، وإنما كانت تحقيقاته اختياراتٍ طارئةً، أو مقترحاتٍ ملتزمةٍ من قبل الآخرين.

وهذا عرض تحليلي لتلك التحقيقات، يُمكننا من خلاله رصدُ أبرز ملامح تلك المنهجية:

#### 1 - النهاية في غريب الحدث والأثر: لابن الأثير (606هـ):

هذا هو الأثر المحقّق الوحيد الذي جمع بين المرحوم الشيخ الطاهر الزاوي، والمرحوم المحقق الدكتور محمود محمد الطناحي الذي عرفته وزميله المرحوم الدكتور عبد الفتاح الحلو المحقّق المعروف موظفين ومحقّقين نشطين في معهد المخطوطات العربية بمبنى جامعة الدول العربية في ميدان التحرير بالقاهرة في مُستهل السبعينيات من القرن الماضي. ويبدو أنّ هناك صلةً علميةً ووشيجةً روحيةً وأدبيةً كانت تجمع بين الشيخ الزاوي ود. الطناحي، وقد تجسّدت في هذا الإنجاز العلمي المبارك الذي حفظ مودتَهُما وسيخلد اسميهما معاً أبد الدهر.

## موضوع الكتاب:

وبعد أن قدّم المحققان تعريفاً بموضوع الكتاب وبمن ألف فيه قبل ابن الأثير وبعده من القدامى، أعطيا ترجمةً جيدة للمؤلف وأسرته وعلومه وثقافته وشيوخه والراوين عنه، ثم تحدثا عن أهم مُصنّفاتِه، ثم ختما ذلك بالحديث عن طبعات كتاب النهاية السابقة على هذا التحقيق، وهي الطبعة الأولى بطهران في 1269هـ، والثانية بالمطبعة العثمانية في 1311هـ، والثالثة بالمطبعة الخيرية في مصر 1318هـ.

## منهجية التحقيق:

يرى المحققان أنّ «أدق هذه الطبعات طبعةُ العثمانية، وهي على ما بُدّل فيها من جهد طيب مشكور، لم تسلم من التصحيف والتحريف، وجاء معظمُ ضبطها بحسب الشائع الدائر على الألسنة»، ومع ذلك فقد جعلها أصلاً في عملهما، وأفادا مما فيها من تقييدات وفروق بين النسخ الواردة بهامشها، ذكراها معزوةً إليها (ص 18-19).

أمّا عن النسخ المخطوطة، فيقول المحققان ص (19): «ونسخ النهاية المخطوطة موفورة بدار الكتب المصرية وبغيرها من المكتبات»، وكان الواجب أن يذكرنا لنا هذه النسخ، وأن يقدموا تقريراً واضحاً عنها حتى يكون القراء على بينة من ذلك، ثم بعد ذلك كان عليهما أن يقدموا الأسباب العلمية المقنعة التي استندا إليها فيما اختاراه من نسخ مخطوطة دون غيرها للتحقيق، لكن ما حدث أنّ المحققين فضلاً أن يعتمدوا على الطبعة العثمانية كما قدمنا، دون ذكر لتاريخ كتابتها ومدى قربها أو بعدها عن المؤلف، واختاروا - للمقارنة والاستئناس - نسخة دار الكتب المصرية رقم (516)، لأنّها ضبطت بالشكل الكامل، وبها تفسيرات لغوية وإضافات معظمها من كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشري، ولو أنّ المحققين التزاماً منهجية العمل بدقة، واختاروا الأصل من بين النسخ المخطوطة الكثيرة كما أشارا، مستأنسين بالطبعة العثمانية، لكان تحقيقُهُما أكثر دقةً واتصافاً بالمنهجية.

وحيث إنَّ ابن الأثير اعتمد كثيراً على كتاب الغريبين للهروي - الذي قام بتحقيقه المرحوم د. الطناحي - فقد اعتمد المحققان عليه أيضاً عند المقابلة، من خلال نسخته الموجودة بدار الكتب المصرية برقم (55 لغة تيمور)، كما استعانا في ذلك بكتاب الفائق للزمخشري، كما أشرنا، ولما كان ابن منظور قد أفرغ محتوى كتاب النهاية في «لسان العرب»، فقد عدَّ المحققان ما جاء من «النهاية» في «اللسان» نسخة منه، فأثبتا ما بين الكتابين من فروق، وكذلك نظرا في كتاب «تاج العروس» للمرتضى الزبيدي، وأثبتا رواياته، بسبب ورود معظم أحاديث «النهاية» فيه، كما نظرا في كتاب «الدر النثير» للسيوطي، وسجلا تعقيباته وزياداته، وحيث أشكل متن الحديث، رجعا في ضبطه إلى كتب السنة، واستعانا بكتاب «جامع الأصول من أحاديث الرسول» لابن الأثير نفسه، لاهتمامه فيه بغريب الحديث كما هو معروف.

ومع أنَّ ابن الأثير صرَّح في مقدمة «النهاية» بأنَّه جمع في مصنفه هذا بين كتابين أساسيين هما كتاب الهروي المذكور وكتاب مهم آخر هو «المغيث في غريب القرآن والحديث» لأبي موسى محمد بن أبي بكر المديني الأصفهاني (ت 581 هـ)، وقد وصفه بأنَّه في غاية من الحسن والكمال (10 - 11)، فإنَّ المحققين لم يلتفتا إلى ذلك، ولم يشيرا إلى أيِّ نوع من البحث عن هذا الكتاب، لنعرف هل هو ضائع أو ما يزال مخطوطاً موجوداً، وكان حرياً بهما أن يتناولا ذلك، ويجاولا تجلية الأمر لنا قدر الإمكان.

والمطالع في هذا التحقيق يلفت انتباهه ضالَّة الهوامش في صفحاته، وخلوها، إلا فيما ندر، من تخريج الأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، وترجمة الأعلام من غير المشهورين، ويبدو أنَّ المحققين قصدا إلى هذا قصداً، فلم يجشما نفسيهما عناء القيام بهذه المهمة الشاقة على الرغم من أهميتها العلمية، ولئن كان هذا الصنيع سنةً ألزمتها كثير من محققي الكتب الأدبية واللغوية ممن لا يتقيدون بالقواعد المنهجية الأساسية، فإنِّي أراها منقصة، وتقصيراً في خدمة النص وإضاءته للقارئ.

أمّا ضبط المادة اللغوية، فقد احتكم فيه المحققان إلى المعاجم اللغوية في كل صغيرة وكبيرة، شأن كل تحقيق.

وعلى كل حال، ففي نهاية هذا العمل المشكور الذي يَسَّرَ به المحققان هذا الأثر التراثي الفذ للباحثين والمطالعين، ونشرته المكتبة العلمية ببيروت في طبعته عام 1963م، حرص المحققان - أجزل الله ثوابهما - على استكمال متطلبات المنهجية فيه، فوضعاً له فهارس تفصيلية وقائمة لما اعتمدا عليه في تحقيقه من مصادر ومراجع.

## 2 - الدرر المبتثة في الغرر المثلثة: للفيروزآبادي صاحب القاموس:

هذا الكتاب هو واحد من كتب كثيرة تناولت ظاهرة المثلثات اللغوية في اللسان العربي الفصيح، ويمكن تعريف المثلث اللغوي بأنه «اللفظ الذي تختلف حركة بنائه فتحاً وكسراً وضمّاً، أو اللفظ الذي تختلف حركة بنائه على ثلاث صور، مع الاتفاق أو الاختلاف في المعنى» (ص31)، فإذا كان الاختلاف في الضبط مع الاتفاق في المعنى، فهي المثلثات المتفقة المعاني، وإذا كان الاختلاف في الضبط مع الاختلاف في المعنى، فهي المثلثات المختلفة المعاني.

وأول من ابتدع التأليف في هذا المجال محمد بن المستنير البصري المعروف بقطرب (ت 206هـ)، فقد ألف قصيدة من اثنين وثلاثين بيتاً، لفتت أنظار اللغويين، فتداولوها بالشرح والزيادة والتعقيب نظماً ونثراً، ثم توالى المصنفات في هذا المجال على امتداد العصور، وهو ما كوّن ثروة زاخرة في اللغة والأدب.

من بين تلك الجهود كان إسهام مجد الدين الفيروز آبادي (ت 817هـ) متمثلاً في كتاب ذي قسمين: القسم الأول وهو المثلثات المتفقة المعنى، وهو بعنوان «الدرر المبتثة في الغرر المثلثة» الذي حققه الشيخ الطاهر الزاوي - وهو موضوع حديثنا هنا - وقد حققه قبله السيد محمد علي الرديني في رسالته للماجستير بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر عام 1380هـ / 1978م، والقسم الثاني وهو المثلث المختلف المعنى، وقد

حققه ودرسه د. عبد الجليل مغتاز التميمي، وصدر ضمن منشورات جامعة سبها في ليبيا عام 1988.

وعلى حين اعتمد محقق القسم الثاني على نسخة فريدة مصورة عن نسخة الخزانة العامة بالرباط (برقم 163 - المغرب الأولى)، نجد أنّ الشيخ الزاوي اعتمد في تحقيقه على نسختين في دار الكتب المصرية إحداهما في مجموع برقم (480)، والثانية في مجموع (تفسير - ش)، ولعلهما النسختان اللتان أشار إليهما د. التميمي برقم (166) مجاميع في دار الكتب المصرية، كما أشار إلى نسخة أخرى بعنوان «مجموع ما ألف في المثلث للفيروزآبادي» في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم (1/12275).

أمّا النسخ التي اعتمد عليها المحقق محمد علي الرديني في جامعة الأزهر، فلا سبيل إلى معرفتها في دراستنا هذه، ويبدو أنّها أطروحة لم تزال مرقونة دون نشر، وبهذا ندرك أنّ عمل الشيخ الزاوي لم يتجاوز الاعتماد على نسختي دار الكتب المصرية المذكورتين، وهذا معناه أنّه عمل يدعو إلى المراجعة والتفتيش عن كل النسخ المتوفرة في مكتبات العالم، ثم الجزم بضرورة إعادة تحقيق «الدرر المبتثة» وهو المحتمل جداً، أو الاكتفاء بهذا التحقيق الذي قام به الشيخ الزاوي وهو ما نعرّف به هنا.

ويشتمل تحقيق الشيخ الزاوي على إهداء ومقدمة ثم على شرح لعنوان الكتاب ثم النص المحقق نفسه، وفي نهاية الكتاب فهرس للكلمات المثلثة، ثم فهرس محتويات الكتاب، وكل ذلك في (146) صفحة من الحجم المتوسط. وأول ما يلاحظ في هذا المقام تقصير المحقق في إفراغ المواد العلمية التي حواها النص المحقق، من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وآثار وأبيات شعرية وأعلام وغيرها، وترتيبها في فهارس تفيد الباحثين؛ إذ إنّ هذا من صميم عمل المحقق، ومن مقتضيات المنهجية الحديثة في هذا الفن، وفات المحقق أيضاً ذكر قائمة بالمصادر والمراجع التي استند إليها في عمله، أمّا جانب ضبط المفردات في شكلها وشرحها وتوضيح مواقعها بعلامات الترقيم، فقد وُفق فيه المحقق، وجاء على درجة عالية من الإتقان

بفضل دقته وسعة اطلاعه وإخلاصه في العمل.

### 3 - مثلثات قطرب: نظم إبراهيم الأزهري:

وهو كتيب في (48) صفحة من القطع الصغير، افتتح بمقدمة قصيرة، وتعريف موجز بمؤلف المثلثات، واختتم بفهرس الكلمات المثلثة وقائمة المراجع.

في المقدمة أشار المحقق إلى أنه لم يتمكن من معرفة أية معلومات عن صاحب هذا النظم، وأنه نظم في غاية السهولة، ويمتاز بشرح كثير من غوامض المثلثات، وبزيادة فيها على ما ذكره قطرب، «وقد بلغ ما ثلثه الأزهري من الكلمات إحدى وستين كلمة، أمّا ما ثلثه قطرب من الكلمات فلم يتجاوز فيما نظمه الأزهري تسعاً وعشرين كلمة» (ص7)، وبما أنّ قطرب لم يرتب مثلثاته على حروف المعجم، بل بدأها بحرف الغين، وذكر بقية الحروف كيفما اتفق، ثم سار الناظم على هديه، فإنّ المحقق قد خالفهما في ذلك، وجعل الترتيب هجائياً، تسهياً على الباحثين.

وقد لاحظ المحقق أنّ الكلمة المثلثة قد تقرأ بأكثر من وجه، لكنّ الأزهري اقتصر في شرحه المنظوم على وجه واحد.

أمّا منهج الشيخ في التحقيق، فقد قام على عدم الالتفات إلى ما بين نسخ مثلثات قطرب نفسها من اختلافات كثيرة، والاقتصار على النسخة التي نظمها الناظم، لأنّها - كما يرى - أجمع النسخ التي اطلع عليها.

### 4 - منظومة الفروخي في الكلمات التي تنطق بالطاء والضاد:

وهي في (29) صفحة من الحجم الصغير، وتحوي مقدمة وتعريفاً بالناظم موجزين، ثم نص الأرجوزة وهي ست وثلاثون كلمة، وفي النهاية فهرس بما ورد فيها من مفردات الضاد والطاء، ولم يشر المحقق إلا إلى أبي البركات الأنباري في رسالته «زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والطاء» من بين الذين سبقوا الفروخي في هذا المجال، وكان حرياً بالمحقق الإشارة إلى

هؤلاء المؤلفين السابقين.

والفروخي - كما عرّف به المحقق - هو أبو نصر محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود الأواني (ت 557هـ)، له رسائل حسنة مدوّنة، وشعر جيد، و«له هذه المنظومة الجميلة في الظاء والضاد، جعل الشطر الأول من كل بيت فيها لما ورد بالظاء، وجعل الشطر الثاني لما ورد بالضاد، وما وجد في بعض الأبيات مما يخالف نهج الأرجوزة قد يكون من تحريف الناسخ» (ص 12).

أمّا طريقة الشيخ في التحقيق، فلم يتحدث عنها بشيء، واكتفى بقوله في هامش (ص 12) عن المنظومة: «نقلتها من مجلة الرسالة الإسلامية التي تصدر في بغداد، من عددها (المحرم وصفر سنة 1399هـ)» وهذا معناه أنّه لم يفتش في فهرس المخطوطات العربية الموجودة في بعض بلدان العالم عن أصول هذه الأرجوزة وما نسخ عنها من نسخ، بل لم يعنّ نفسه بالبحث عن الأصل الذي نقل عنه النص المنشور بالمجلة الإسلامية المذكورة، وهو أهون الأمور، وإذن فعله هنا وفي منظومة الثلثات السابقة الذكر، لا يتجاوز الشرح اللغوي، ولا وجود فيه للتحقيق.

هذا وقد لاحظ الشيخ الزاوي في شرحه هذه المنظومة أنّ الناظم كثيراً ما يختل لديه الوزن أو المعنى، فيقوم بتعديله، كما لاحظ أنّه يأتي أحياناً بمعانٍ لا توجد حتى فيما توسع المحقق في استشارته من المراجع اللغوية الكثيرة.

#### 5 - ديوان البهلول - شرح وتحقيق:

وهو أحد آثار الأديب اللغوي: أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمد الطرابلسي المشهور بالبهلول (ت 1113هـ) والمدفون في مقبرة منيذر في طرابلس الغرب، واستناداً إلى ما ذكره الأستاذ علي مصطفى المصري في مقدمته التي أعاد بها نشر هذا الديوان في طبعين الأولى عام 1967م والثانية عام 1999م، وهو أنّ لبهلول شعراً غزلياً غير هذا الديوان، قام بجمعه أديب مصري مجهول، وطبعته مطبعة المعارف العلمية في مصر دون ذكر لسنة النشر (ط2 / ص

31 و50)، فإنه كان على المحققين ألا يسميا هذا التخميس ديواناً، بل كان عليهما أن يسمياه تخميس القصيدة العياضية لكونه هو كذلك، أو أن يسمياه: «سر باب الوصول لسيدي أحمد البهلول، المسمّى: الدر الأصفى والزبرجد المصفى في مدح سيدنا محمد المصطفى»، مثلما ورد في نسخة مخطوطة لدى الأستاذ المصراقي (انظر ط 2 / ص 67).

ويبدو أنّ إطلاق لفظ ديوان مرجعه إلى ما شاع في أوساط الليبيين قديماً، يقول الشيخ الزاوي: «وقد أغرم الشعب الليبي بتخميس البهلول للقصيدة العياضية فسماه ديواناً، ولا غرو في هذه التسمية؛ فإنّ مجموع أبيات التخميس والقصيدة لا يقل عن 1450 بيتاً» (ص11).

### منهجه في التحقيق:

لم يشر الشيخ الزاوي في تقديمه للديوان إلى أيّ أصلٍ مخطوط اعتمد عليه، بل اكتفى بقوله (ص21): «وقد طبع ديوان البهلول ثلاث طبعات فيما أعلم: الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة 1311هـ، والطبعة الثانية في بومبي الهند سنة 1313هـ، والطبعة الثالثة في مصر (بمطبعة صبيح) سنة 1349هـ، ويظهر لي أنّ طبعة بومبي اعتمدت على نسخة المطبعة الخيرية؛ لأنّ ما يوجد في إحدهما من الأغلاط يوجد في الأخرى، أمّا طبعة صبيح فهي كثيرة الأغلاط والتحريف».

ويشير الأستاذ المصراقي (ص60 / 61) إلى الطبعة الأولى بأنّها كانت مشكولة مصححة بعناية أديب ليبي كان يدرس في الأزهر يدعى سالم مبروك الورشفاني، وهو ما لم يشر إليه الشيخ الزاوي.

إذن فالتحقيق الذي أمامنا لم يستند إلى أصول مخطوطة، وإنما هو إعادة نشر لما ورد في الطبعات السابقة عليه زمنياً، مع العناية بدقة مراجعتها وتصحيحها وضبطها بالشكل الكامل للأبيات وشرح ما غمض من مفرداتها، وهو ما أشار إليه الشيخ في (ص 11 و14 - 15)، وهذا المنهج هو ما سار عليه أيضاً في تصحيح كتاب «الضوء المنير المقتبس في مذهب

الإمام مالك بن أنس» للشيخ محمد الفطيسي (ت 1310 هـ) المنشور سنة (1388هـ)، (انظر ص 3-4) من هذا الكتاب.

ومن هنا فقد امتازت نشرة الأستاذ المصراقي للديوان باعتمادها على نسخ مخطوطة، على حد قوله، وإن كنا لا نجد لديه أي وصف لهذه النسخ، ولا للمنهج الذي اتبع في تحقيقها، ولا نجد أيضاً في الهوامش شيئاً مما يحتمل أن يكون بينها من فروق، وهو إخلال فادح بالشروط المنهجية المتعارف عليها في فن التحقيق.

وقد فات المحققين كليهما الإشارة إلى الوزن العروضي لأبيات التخميس، وهو من متمات التحقيق المنهجي، وعلى حين لم يرد في تقديم الشيخ الزاوي أي خلل عروضي فيما أورد من أبيات، نفاجاً لدى الأستاذ المصراقي بعدد من الأبيات المضطربة في وزنها، بسبب عدم تحديد وزنها، وهو السبيل عادة لاكتشاف ذلك الاضطراب، ومن ثم إعادة النظر في البيت وضبطه بما يقيم وزنه ويحدد بدقة معناه (انظر مثلاً البيتين الثالث والسابع ص 43، والبيت الثاني ص 41، والرابع والخامس والسابع ص 42، والثالث والخامس ص 44، والثاني ص 45، والأول ص 49، والثالث ص 53، والخامس ص 54، والثالث والخامس ص 56، والأول ص 57، والسادس ص 59، والسادس ص 62).

ويحسب منهجياً للشيخ الزاوي، وإن لم يستعن بأصل مخطوط كما قدمنا، على عكس الأستاذ المصراقي، أنه قد اهتم اهتماماً ملحوظاً بما بين الطبقات القديمة التي توافرت لديه من فروق، وبما اتفقت عليه من مواضع غامضة أحياناً، كان يشير إليها بمثل قوله في هامش (ص 34): «هكذا في الأصول التي بين أيدينا، وهي غير واضحة المعنى».

كذلك فقد عُني محققنا هنا بما ساقه من هوامش توضيحية وتعليقات تتصل بما اضطر إليه البهلول أحياناً من ضرورات شعرية، أو تتعلق بأحداث السيرة النبوية الشريفة وبعض ما تخللها من روايات، كقوله في (هامش ص 104): «يروى بعض الناس أنّ الذئب والغزالة والجمل والضب كلمت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الروايات لم تثبت أمام النقد

العلمي الذي قام به ابن تيمية وغيره من نقاد الحديث، وهي من الأحاديث الضعيفة التي لا يوثق بها، بل عدّها بعض العلماء من الموضوعات»، كما حرص الشيخ الزاوي أحياناً على الاستشهاد ببيت أو أبيات رائعة من الشعر القديم، استجابة لأريحيته الفنية وما تفيض به ذاكرته من نصوص التراث الرفيع.

### رأي المحققين في فنية التخميس:

يصف الشيخ الزاوي القصيدة العياضية الخمسة قائلًا (ص10): «إنّ هذه القصيدة في القمة من الشعر العربي: لغة فصيحة، ومفردات مختارة، وألفاظاً تساوي ما يحتاج إليه أداء المعنى، وتناسقاً يشد معاني الأبيات بعضها ببعض، وهي... تدل على قوة شاعرية منشؤها وتضلعه في اللغة العربية»، ثم يصف تخميس البهلول إياها بالعجب العجاب «تعمقاً في اللغة، وقوة في التعبير، واختياراً للألفاظ التي تتسق مع بيت القصيدة وتمتزج بمعناه امتزاجاً يجعل من الصعب على كثير من الناس أن يفرقوا بين القصيدة وتخميسها لقوة المناسبة التي يأتي بها البهلول للربط بين معنى التخميس وبيت القصيدة» (ص10).

أمّا الأستاذ المصراقي فيقول عن الناظم الخمس: «إنّه في الحقيقة من الشعراء الذين لا تبهت صورهم.. ولا تتلاشى قيمهم الفنية بتقدم الزمن أو بعوامل التطور الثقافي (ص15)، فقد صنع ديواناً اعتُبر (ولا ندري من اعتبره) في ميزان الشعر الصوفي من أرقى ومن أرق التصويرات الأدبية (ص18)، فشعره في ديوانه هذا دلّ على سعة ثقافة، ونمّ عن ذوق فنان أديب» (ص19) .. إلى غير ذلك من الأوصاف التي كالمها له أستاذنا المصراقي، والتي يصعب أن تصمد أمام التحليل النقدي المنهجي المعاصر.

إنّ ما يقف عليه الدارس المدقق والناقد المحايد لتخميس البهلول هذا هو أنّه نظم مصطنع لمحفوظ واسع من المفردات والتراكيب البلاغية المتوارثة والصور البيانية المعادة والمعاني المجتررة والشائعة بين أدباء عهود الركود الفكري والأدبي، عكف الناظم عليه فوظفه في غرض تقليدي متوارث هو مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهذا المضمون، على

نبله وسموه، يمهده له الناظم بعدد كبير من أبيات كل حرف من أحرف الهجاء التي بني عليه التخميس، مخصّصة لمخاطبة معشوق وهمي وتكديس أكبر عدد من الأوصاف عليه، وتدبيح كل معاني التدله والتوسل إليه، فإذا بحثنا في هذا الجهد المضني من هذه الصناعة المفتعلة عن منطقية الأفكار وترابطها ووحدة بنائها والجديد المبتكر من معانيها، لم نكد نخرج منها بطائل.

#### 6 - الكشكول لبهاء الدين العاملي (953-1031هـ):

يتألف الكتاب من مجلدين يحويان ما يقرب من ألف وثلاثين صفحة من الحجم المتوسط، وهو كتاب يرى المحقق أنّه من أحسن الكتب المؤلفة في الأدب، وهو نسيج وحده، وفريد نوعه، فيه من مختلف الفنون، وأغرب المسائل والعلوم.

ويبدو أنّ الشيخ الزاوي لم يختار العناية بتحقيق هذا الكتاب من تلقاء نفسه، وإنما طُلبَ منه أو اقترح عليه ذلك، يقول موضحاً هذا: «ونظراً لما لكتاب الكشكول من المكانة الأدبية بين قراء الأدب، فقد رأت دار إحياء الكتب العربية نشره كعادتها في نشر الكتب القيمة من تراثنا العربي وغيره، وأسندت إليّ مقابلته ببعض النسخ المخطوطة وتصحيحه وترقيمه».

#### منهجه في التحقيق:

اعتمد الشيخ في تحقيقه على النسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية سنة (1288هـ)، يقول عنها: «وهي نسخة جيدة التحرير والتصحيح، وحينما كنت أقابلها بالنسخ المخطوطة، كان الصواب في جانبها في أغلب المسائل التي تختلف فيها النسخ، وقد استفدنا من معارضتها بالمخطوطة بعض الاصطلاحات وكثيراً من الزيادات».

وبعد الإشارة إلى أنّ المقابلة تمّت بالنسخ المخطوطة (هكذا بالجمع)، عاد الشيخ فحددها في مخطوطتين اثنتين موجودتين في دار الكتب المصرية: الأولى برقم (143م أدب)،

وهي التي أخذ عنها الزيادات، والأخرى برقم (2843)، وهي كثيرة الأخطاء- كما يقول -  
ولذلك لم يعول عليها كثيراً، والدقة العلمية تقتضي الإشارة منذ المرة الأولى إلى أنّهما اثنتان  
وليس أكثر.

ويشير الشيخ بعد هذا إلى أنّ الكتاب كان في طبعاته الأولى مندماً بعضه في بعض، فوضع  
من الترتيم والحركات ما يزيل الإبهام ويسهل القراءة. ونتوقف عند قوله «طبعاته الأولى»،  
فنسأل: ما عدد هذه الطبعات؟ وما توار يخها وأوصافها؟ ولماذا لم يشر إليها في هذه المقدمة؟  
ونترك الطبعات المنشورة إلى الأصول المخطوطة المبعثرة في مختلف خزائن المخطوطات في  
العالم، فنسأل: ماذا عن نسخ الكشكول الذي كان كتاباً متداولاً بين القدماء وذائلاً في  
مختلف الأمصار الإسلامية؟ إنّ المنطق يفترض أنّ هناك نسخاً منه في عدد من المكتبات  
العربية والإسلامية والأجنبية، لكن الشيخ شأن كثير ممن مارس التحقيق أمثاله في تلك  
المرحلة لم يعتد هذا المنهج، وهو قصور في المنهج والتطبيق لا يُقبل، وكل ذلك يفتح الباب  
على مصراعيه أمام من يرغب في إعادة تحقيق هذا النص بحسب الشروط المنهجية المعاصرة  
المعروفة.

ونتفقد جانباً مهماً آخر، وهو تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسائر  
الآثار والحكم والأمثال والنصوص المقتبسة حرفياً من كتب التراث، وكذلك  
التعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات غير المشهورة... الخ، فنجد أنّ المحقق  
لم يفعل من ذلك شيئاً، وإنّما اكتفى بشرح بعض الكلمات لغوياً، ووضع بعض  
التعليقات الضرورية أحياناً، وقد استتبع هذا الصنيع أنّ الكتاب حُرِّمَ مجموعةً من  
الفهارس الضرورية التي تفهرس كل تلك المواد، وتيسر للباحثين فيها الاستفادة  
السريعة والمريحة، ونتج عن ذلك أيضاً غياب قائمة المراجع التي يفترض أن يستند  
إليها ذلك التخريج، ولاشك في أنّ غياب هذا الجانب التخريجي والخدمي مدعاة أيضاً  
لإعادة التحقيق.

والجدير بلفت النظر إليه في هذا المقام أنّ مثل هذا الأثر التراثي المعروف، هو في أمس الحاجة إلى غربلته مما فيه من أخبار ماجنة وألفاظ بذئية ومعلومات عقيمة، ثم تخريج نصوصه ونشره في طبعات أنيقة مغرية، ليفيد منه الشباب ويستمتعوا بما فيه من خير مباح وسحر حلال.

7 - التذكار فيمن ملك طرابلس [ومَن] كان بها من الأخيار، لابن غلبون الطرابلسي (ق12هـ):

هذا الأثر القيم هو شرح لقصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري التي مدح بها طرابلس رداً على أحد الرّحّالين المغاربة<sup>(1)</sup> الذي لم ينصفها في رحلته المعروفة، وقد مر على كتاب التذكار ما يقارب مئتي سنة قبل أن يهتم به شيخنا الزاوي ويعتزم إخراجه للناس.

وكان منطلق هذا الاهتمام فرصة مباركة تعرّف خلالها شيخنا بالعلامة الكبير المرحوم أحمد تيمور باشا في مصر سنة 1348هـ، وسأله عما لديه من كتب عن تاريخ طرابلس الغرب، فأجابته بأنّ لديه تاريخ ابن غلبون، فاستعاره الشيخ واطلع عليه، ثم استنسخه بعد إذن مالكة. ويصف لنا الشيخ هذه النسخة بقوله: «وكانت نسخته مأخوذة بالتصوير الشمسي (الفوتوغرافي) عن نسخة في خزانة باريز سنة 1344هـ، وهي مكتوبة بخط مغربي جميل، ومجهول التاريخ، ولكنها كثيرة التحريف... ولم نجد نسخة أخرى غير نسخة تيمور باشا

(1) أفادني الباحث المدقق المعروف الأستاذ عمار محمد جحيدر بالتوضيح الآتي: «شاع سابقاً أنّ هذا الردّ كان على رَحّالٍ مغربيٍّ قديم، عُرف بدمّه لطرابلس، وهو الرّحّالُ العبدري (القرن السابع الهجري)، وهو ما التزم به الشيخ الزاوي في نشرته للتذكار، غير أنّ الأبحاث اللاحقة أثبتت أنّ تلك القصيدة لم تكن رداً على العبدري المتقدّم على العهد القرماني بقرون، وإنّما كانت رداً على رَحّالٍ مغربيٍّ آخر معاصر لصاحب القصيدة، وهو الرّحّالُ الوزير الشرقي الإسحاق الذي كان مدوّناً لرحلةٍ حاجيّةٍ رسميّةٍ للسيدة خنانة وحفيدها الأمير محمد الذي عُرف فيما بعد بالسلطان محمد الثالث في المغرب. وقد بادر إلى هذا التصحيح المهم الأستاذ محمد الفاسي والدكتور عبد الهادي التازي من علماء المغرب، ثم زيد الأمر إيضاحاً وتوثيقاً في: مؤتمر المؤرخ ابن غلبون (مارس 1981) في مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، بطرابلس. وينظر كتاب: آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث: بحث ابن غلبون».

نستعين بها على تصحيح كتابنا هذا، فاستعنت بتاريخ ابن خلدون وغيره في تصحيح بعض كلمات وتواريخ» (ص 6 - ط المدار). وليس واضحاً هنا المقصود بعدم الوجود، هل هو في كل مظان المخطوطات العربية في العالم، أو هو في حدود المكتبات المصرية، أو في نطاق الخزائن القاهرية فقط؟

ثم يذكر الشيخ في هامش هذه الصفحة أنه حينما كان في طرابلس سنة 1965م، تمكن من مقابلة تلك النسخة بنسخة مكتبة الأوقاف المخطوطة في طرابلس، ووجد فيها بعض الفروق التي أضافها فيما بعد، وبدلاً من أن يعرّفنا الشيخ على هذه النسخة في مقدمة الكتاب، وهو المكان الأنسب منهجياً، جعل هذا التعريف في نهاية الكتاب (ص 321) قبيل فهرس المحتويات، حيث ذكر أن نسخة الأوقاف كتبت في (1309هـ) بخط مغربي، وتقع في (176) صفحة، وأن بها نقصاً كثيراً في مواضع عدة، وأن بعضاً من هذا النقص أُحِقَّ في هوامش الصفحات من ص (39) إلى ص (50) بقلم (كوبية)، ولم يُعرَف كاتبه.

وبناء على ذلك كله أضاف الشيخ في طبعة الكتاب الثانية ما وجده من زيادات إلى النسخة الأولى. ولكن يبقى سؤال مهم وهو: هل حاول المحقق أن يبحث عن نسخ أخرى في المكتبات العربية والأجنبية؟ والظاهر أن ذلك لم يقع، وما كان منتظراً في تلك الفترة أن يفكر فيه المشتغلون في هذا المجال.

ومن خلال الاطلاع الواسع عما كتب حول تاريخنا، ظهر للشيخ الزاوي أن هناك نقصاً في تاريخ ابن غلبون، فرأى أن يضيف إليه في الطبعة الثانية وصفاً لمدينة طرابلس يوضح ما كانت عليه في عهدها القديمة، ثم عرضاً لاحتلالها من قبل الإسبان وفرسان القديس يوحنا (ص 133 - 157)، وهو ما أهمل ذكره ابن غلبون، ثم خاتمة مختصرة في آخر الكتاب (ص 241-244) عن حكام الأسرة القرمانلية التي عاصرها المؤلف، وذلك اعتماداً على كتاب (رودلف ميكاكي)، تعريب طه فوزي، كذلك أضاف لمحة عن تاريخ أسرة الجبالي

الطرابلسية التي عاصر المؤلف بعض أفرادها، مع هوامش كثيرة في مواضع شتى (انظر ص 32-33).

ويتصدر الكتاب في طبعته هذه (دار المدار - بيروت 2004) ترجمة لابن غلبون، وترجمة لابن عبد الدائم الأنصاري، ثم مقدمة الطبعة الأولى، فملخص لتاريخ الحكم في طرابلس، فمقدمة الطبعة الثانية، ويُختَم بقصيدة لابن عبد الدائم الأنصاري، ثم خاتمة عن ولاية طرابلس من الأسرة القرمانلية، ثم مسرد بالمعاهدات التي عقدت بينهم وبين الدول الأوربية، وفي النهاية تعريف بنسخة الأوقاف المشار إليها وفهرس بمحتويات الكتاب.

ولقد عُنيَ الشيخ بتوضيح غوامض النصوص وتوثيقها والتعليق عليها في هوامش الكتاب، لكنّه لم يحدد مواضع إحالاته واقتباساته تحديداً دقيقاً، وإنما كان يكتفي بذكر المصدر أو المرجع مختصراً فقط، وهو ما يجعل مراجعتها مستحيلة أمام الباحثين، وكان المنتظر والضروري منهجياً أن يضع المحقق ثبناً بما اعتمد عليه في عمله من مصادر ومراجع، لكنّه لم يفعل.

### ملامح منهجية التحقيق:

1 - اتباعاً لما كان شائعاً في أوساط التحقيق غير الأكاديمي، لم يهتم محققنا - رحمه الله - فيما قام بتحقيقه بإجراء مسح استقرائي للمعروف - على الأقل - من المخطوطات المحفوظة في مكتبات العالم. وقد فوّت هذا عليه إمكان العثور على النسخة الأم أو الأصول الأقدم لبعض ما حقق، وهو السبيل الأقوام للقيام بتحقيق علمي دقيق. ولعل من أسباب ذلك غياب عددٍ من المراجع المهمة في هذا المجال، مثل كتابي تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وتاريخ التراث العربي لسزكين، وغياب فهرس المخطوطات التي تعرّف بوجودها في العالم، ومن بينها فهرس معهد المخطوطات العربية في القاهرة، وسائر المؤسسات الأخرى المختصة بهذا الأمر.

- 2 - لم يعن المحقق بتخريج النصوص المختلفة الماثورة في تلك المتون، ولم يرتبها في فهرس مفصلة تكون عوناً للباحثين.
- 3 - لم يلتزم المحقق في كل ما حقق بترجمة الأعلام، بل كان يفعل أحياناً، وأحياناً كثيرة لا يفعل.
- 4 - لم يثبت في نهاية أعماله المحققة قائمة لما اعتمد عليه من مراجع ومصادر.
- 5 - اهتم بترتيب النصوص في فقراتها وفصولها وأبوابها، وجعل لها مقدمات وخواتم وفهارس للمحتويات.
- 6 - ضبط بعناية كبيرة النصوص المحققة، وشرح في الهوامش ما غمض منها.
- 7 - والخلاصة أن شيخنا الزاوي - رحمه الله ومتعته بالجنة - استطاع بهذه المشاركات الجادة، تأليفاً وتحقيقاً، على ما تخللها من هنات منهجية كانت أمراً شائعاً بين أمثاله من المؤلفين والمحققين، أن يتبوأ مكانة بارزة بين علماء بلاده، وأن يسد فراغاً كبيراً في جانب تاريخنا الوطني، وأن يكون مرجعاً أساسياً فيه، وفي جانب إحياء التراث الذي كان أحد رواده البارزين في بلادنا.

\*\*\*

## مصادر الدراسة ومراجعها:

- 1 - أعلام ليبيا، تأليف الطاهر الزاوي، ط 2، دار الفرجاني، طرابلس 1971، وط 3، دار المدار الإسلامي، بيروت 2004.
- 2 - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، تأليف الطاهر الزاوي، ط / 3، دار الفتح ودار التراث العربي، ليبيا (د.ت)، وطبعة دار المدار الإسلامي، بيروت 2004.
- 3 - التذكار فيمن ملك طرابلس [ومن] كان بها من الأخيار، صححه وعلق عليه الطاهر الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت 2004.
- 4 - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، تأليف الطاهر الزاوي، ط / 3، دار الفتح ودار التراث العربي، ليبيا 1973.
- 5 - جهاد الليبيين في ديار الهجرة: من (1343 / 1924) إلى (1372 / 1952)، تأليف الطاهر الزاوي، دار الفرجاني، طرابلس 1076.
- 6 - الدرر المبتثة في الغرر المثلثة، تأليف الفيروزآبادي، الدار العربية للكتاب، طرابلس 1987.
- 7 - ديوان البهلول، شرح وتحقيق الطاهر الزاوي، مكتبة القاهرة 1966.
- 8 - ديوان البهلول، تحقيق وتقديم علي مصطفى المصراطي، ط 2، الدار الجماهيرية، مصراته 1999.
- 9 - عمر المختار، ط 2، مؤسسة الفرجاني، طرابلس 1970.
- 10 - الكشكول، تأليف بهاء الدين العاملي، تحقيق الطاهر الزاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1961.

- 11 - مجموعة فتاوي، تأليف الطاهر الزاوي، دار الفتح، ليبيا 1973.
- 12 - معجم البلدان الليبية، تأليف الطاهر الزاوي، دار مكتبة النور، طرابلس 1968.
- 13 - النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف ابن الأثير، تحقيق الطاهر الزاوي، ومحمود الطناجي، القاهرة 1963.
- 14 - مثلثات قطرب، نظم إبراهيم الأزهري، تحقيق الطاهر الزاوي، بيروت 1984.
- 15 - منظومة الفروخي في الكلمات التي تنطق بالظاء والضاد، تحقيق الطاهر الزاوي، بيروت 1984.
- 16 - ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، تأليف الطاهر الزاوي، بيروت/ ليبيا 1970.

\*\*\*



## آفاق في خدمة النصّ / والمخطوط التكويني

(مصطلحات جديدة وأمثلة تطبيقية من المكتبة الليبية)<sup>(1)</sup>

أ. عمار محمد جحيدر

(مجمع اللغة العربية)

الحمد لله حق حمده. والصلاة والسلام على خير خلقه.

ترد الإشارة إلى أنّ العالم الجليل أحمد زكي باشا (1867 - 1934) قد قدّم لنا باكورة المنهج الحديث في تحقيق النصوص، وحاز قصب السبق في وضع هذا المصطلح المعاصر (تحقيق) على كتابي (أنساب الخيل، والأصنام لابن الكلبي) اللذين قام بتحقيقهما ونشرهما سنة (1914)<sup>(2)</sup>. ومن هنا شاع لفظ التحقيق مصطلحاً في هذا الحقل البحثي الدراسي الذي ازداد انتشاراً، وغداً من أبرز تيارات الحياة الثقافية وحراكها في اللغة العربية خلال القرن العشرين، وغدت عبارة (تحقيق النصوص ونشرها) عنواناً دالاً عليه، ووُضعت له العديد من الدراسات والرؤى المتفاوتة في حجمها لضبط (قواعده المنهجية / الإجرائية) التي تستهدف دعوة الباحثين المحققين إلى الإفادة منها، والالتزام بها فيما يعالجونه من النصوص المخطوطة. ومن أوائل هذه المبادرات المبكرة: محاضرات المستشرق الألماني برجستراسر بالجامعة المصرية

(1) أُلقيت هذه المقاربة الدراسية (محاضرة عامة) في الموسم الثقافي لمجمع اللغة العربية، (صباح الخميس 24 يونيو 2021)؛ لذلك غلب عليها العرض المكثف/ واللوحات المصوّرة، وتقلّصت الحواشي البحثية المعتادة، وقد أضفت بعضها بإيجاز إلى هذه النشرة المحرّرة.

(2) عبد السلام محمد هارون، قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي (حول تحقيق التراث)، القاهرة: مكتبة السنة، 1409هـ / 1988م، ص 4.

(1931 - 1932)<sup>(1)</sup>، وكتاب الأستاذ عبد السلام هارون (1954)<sup>(2)</sup>، وكتاب الدكتور صلاح الدين المنجد (1955)<sup>(3)</sup>... الخ. وقد توالى صدور غيرها من الأعمال في العقود اللاحقة في المشرق والمغرب.

### خدمة النص:

غير أنني أودُّ أن أشير في هذه المحاولة المتواضعة إلى ضرورة اقتراح مصطلح آخر أكثر سعة واستيعاباً لضروب العناية بالتراث المخطوط في مختلف بيئاته وعصوره، وهو يتمثل في: (خدمة النص). وقد جرى هذا المركّب الإضافي الذي يصحُّ أن يكون مصطلحاً جامعاً، موسّعاً شاملاً، بشكلٍ عفويٍّ في مقدمة التحقيق بالجزء الأول من (اليوميّات اللببية)، قبل أربعين عاماً (يوليو 1981): إذ كتبت آنذاك: «وكان هدفنا مقصوراً على (خدمة النصّ) بإخلاص، بتقديم خلفياتٍ وشروحٍ كافيةٍ تضيءُ وتيسّرُ ما استغلق منه، دون أن تصدر حكماً له أو عليه».

ومن الجليّ أنني لم أكن أعني بهذا اللفظ المركّب آنذاك إلا دلالاته الأولى المباشرة البادية بين سطوره، (التي كانت تنصرف غالباً إلى إضاءة النصّ بالحواشي والتعليق عليه)، دون أن يكون في خَلدي آنذاك، ما أردتُ اليوم الإفصاح عنه، من ضروب العناية بخدمة النصّ من خلال تجربةٍ بحثيّةٍ مديدةٍ/ حميمةٍ/ متواضعة. وسأحرصُ على ربط كل ضربٍ منها بمثالٍ تطبيقيٍّ منجزٍ مباشرٍ مما أتيح لي الخوض فيه - بفضل الله تعالى. وفيما يلي خلاصاتٌ موجزةٌ عن كلّ بُعدٍ من أبعاد خدمة النصّ

(1) جوتهلّف برجستراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب (محاضرات المستشرق الألماني برجستراسر بكلية الآداب سنة 1932 / 31م)، إعداد وتقديم الدكتور محمد حمدي البكري، القاهرة: مركز تحقيق التراث، 1969.

(2) عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط 2، القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، 1965م. (عدت إلى هذه الطبعة في مقدمة الجزء الأول من اليوميّات اللببية، 1981).

(3) الدكتور صلاح الدين المنجد، قواعد تحقيق المخطوطات، الطبعة العربية الخامسة، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1976م. (أيضاً...).

(مخطوطاً/ أو منشوراً)، قرين أمثلتها التطبيقية من المكتبة الليبية، ويليها عرضٌ موسعٌ نسبياً عن البعد الأول المتمثل في المخطوط التكويني.

وقد وقفت خلال هذه السنة (2021) بمعونة كريمة من أخي الفاضل الباحث المحقق الدكتور عبد السلام الهمامي سعود، وله جزيل الشكر والتقدير، على بعض ما قدمه الدكتور محمود مصري الباحث المعنيّ (بالضبط المصطلحي في هذا الحقل)، وأعني دراسته المنشورة بعنوان: «تحرير مصطلح تحرير النص»<sup>(1)</sup>، ومع تقديري العميق لجهود هذا الباحث التي لم أتمكّن من متابعتها كاملةً مع الأسف، فقد وجدتُ أنّه يعني بهذا المصطلح، وما صاحبه من مصطلحاتٍ أخرى عديدة، ما ينحصر في السياق المألوف (لتحقيق المخطوطات ونشرها)، وهي كما قدّمت في ملخص الدراسة: «تثبيت النص، ومعالجة النص، وإصلاح النص، وإقامة النص، وإثبات النص، وترميم النص، وتقويم النص، وضبط النص...».

كما تأتي في هذا السياق نفسه أيضاً دراسة قريبة أخرى للدكتور حمزة البكري بعنوان: «إصلاح النَّص»<sup>(2)</sup>، وقد عالج فيها المسائل التالية: «الزيادة، النقص، قرائن معالجة الزيادة والنقص، محاذير معالجة الزيادة والنقص، التكرار، خاتمة». ويبدو لي جلياً أنّ هذه الأنماط كلّها يمكن أن تندرج فيما سمّيته أدناه (بناء النص) عند تحقيقه ونشره، وهو البعد الثاني من أبعاد خدمة النص.

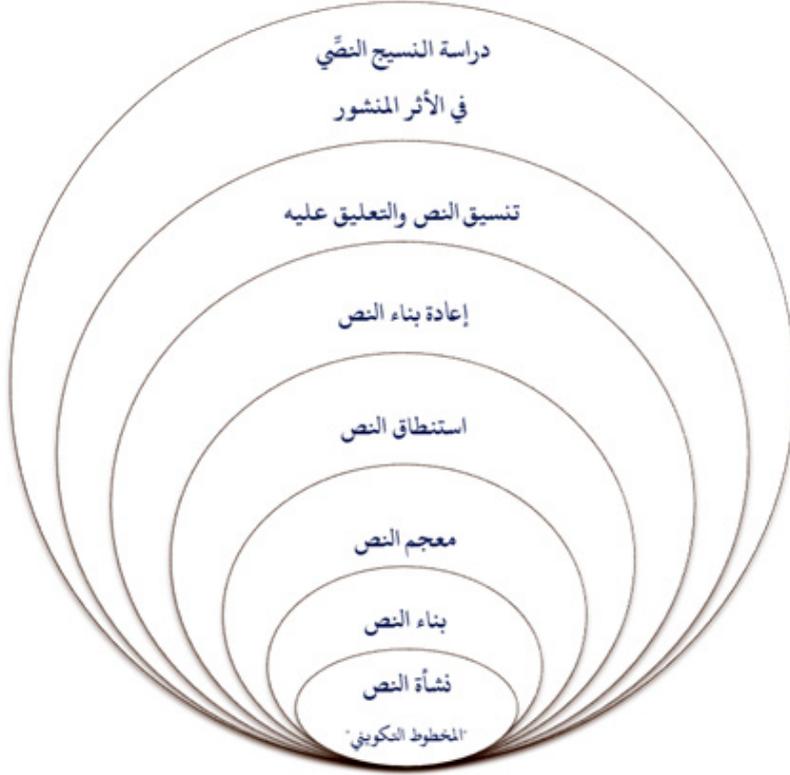
وفي هذا الشكل البياني التالي أردت أن تكون (خدمة النصّ: مصطلحاً أموميّاً) شاملاً لكلّ ما يتفرّع عنه من ضروب العناية بالنصّ؛ (مخطوطاً تكوينياً/ ومخطوطاً

(1) في: مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد 61 (شعبان 1438هـ/ مايو 2017م).

وانظر بحثه القيم، في سياقٍ تراثيٍّ آخر، أيضاً: د. محمود مصري، «تأصيل قواعد تحقيق النصوص عند العلماء العرب المسلمين: جهود المحدّثين في أصول تدوين النصوص»، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 49 - الجزء 1، 2 (ربيع الآخر - شوال 1426هـ/ مايو - نوفمبر 2005م)، ص 35 - 66.

(2) في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 63 / الجزء الأول (رمضان 1440هـ/ مايو 2019م)، ص 158 - 183.

مكتملاً/ ومطبوعاً منشوراً) بين القراء والدارسين. وقد تنامت هذه الضروب البحثية تدريجياً في ذهن إلى سبع حالاتٍ اصطلاحية على النحو التالي:



أبعاد خدمة النص (20 - 06 - 2021)

وقد بُنيت هذه المقاربة على عدّة أمثلةٍ تطبيقيةٍ من (المكتبة الليبية)، استغرق العمل عليها، والإفادة من تجاربها البحثية سنين عديدة، وتوزّعت نصوصها بين عدّة قرونٍ من أواخر العصر الوسيط، والعصر الحديث، وتاريخنا المعاصر، كما تبدو في الجدول الموجز التالي:

### نصوص الأمثلة التطبيقية في المقاربة الدراسية

القرن	الأثر	المؤلف	ر.م
7-8 هـ / 13-14 م.	الرحلة: القسم الخاص بطرابلس (محقّق منشور).	عبد الله بن محمد التّجّاني.	1
11-12 هـ / 17-18 م.	فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم (مخطوط).	عبد السلام العالم التاجوري.	2
12 هـ / 18 م.	الرحلة: القسم الخاص بليبيا (مخطوط).	محمد بن الطيّب الفاسي.	3
13 هـ / 19 م.	اليوميات الليبية (ثلاثة أجزاء).	حسن الفقيه حسن.	4
13-14 هـ / 19-20 م.	(أ) - نفحات النسرين فيمن كان بطرابلس من الأعيان (منشور). (ب) - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب / جزآن. (منشور).	أحمد النائب الأنصاري.	5
14 هـ / 20 م.	محلة كوشة الصقار بين ذاكرتين في أواسط القرن العشرين: سردٌ طبوغرافي، مهني، سكّاني (منشور).	علي الصادق الحُسنين.	6

#### مصادر المقاربة التطبيقية

(نصفها منشور: 1، 5، 6 / ونصفها مخطوط: 2، 3، 4)

## (1)

### نشأة النص وتطوره في ذهن المؤلف عند تأليفه (من خلال المخطوط التكويني)

ومثل هذه الدراسة لا تتحقق، بالضرورة، إلا في (حالاتٍ استثنائيةٍ) تتوفر فيها الوثائق الأولية اللازمة لإجراءات الفحص والمتابعة.

#### مثال تطبيقي:

المؤرخ أحمد النائب الأنصاري: رؤية نقدية في آثاره (1999 / 2008 / 2015). وهذا ما عُنيت به منذ سنواتٍ عديدة في قراءةٍ فاحصةٍ مطوّلةٍ لآثاره، خرجت منها برؤيةٍ نقديةٍ جديدةٍ حول أعماله الثلاثة المنشورة في حياته/ وبعد وفاته، وهي على التوالي: المنهل العذب (1899)، والجزء الثاني منه (1961)، ونفحات النسرین (1963). وسأعود أدناه إلى هذا الشقّ الأساسي من المقاربة النقدية.

## (2)

### بناء النصّ عند تحقيقه ونشره (من خلال المخطوط التحقيقي)

فالمحقّق الحقّ شريكٌ للمؤلّف في بناء النصّ، ومسؤولٌ عن روايته وتبليغه إلى كلّ القراء والدارسين - على تعدّدهم - من بعده. ومن هنا يمكن القول بموضوعيةٍ إنّ (تحقيق النصوص ونشرها) صورةٌ [حدائثيةٌ] غالبيةً اليوم من (الوجادة)؛ وهي إحدى الصور المعروفة [القديمة] لتحتمُّل العلم وروايته ونقله في تراثنا العربي الإسلامي، وقد جاء هذا المصطلح من النقل أو الأخذ (عمّا وُجِدَ مكتوباً)، كما يقول العلامة ابن الصلاح الشهرزوري في (علوم الحديث)<sup>(1)</sup>. ونحن اليوم، في واقع الأمر، لا نقرأ

(1) ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، علوم الحديث، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه نور الدين عتر، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، 1972، ص 157 - 159.

مئات النصوص المحقّقة المنشورة (بأقلام مؤلّفيها)، وإنّما نقرأ هذه الآثار من خلال (بصائر محقّقيها)!

وأودُّ التفريق في هذا المقام بين عبارتي: (وضع النصّ / وبناء النصّ)؛ فوضع النصّ صياغةٌ محرّرةٌ لنشأة النصّ، وهو «للمؤلف منفرداً»، في عهده السابق غالباً، قبل عقودٍ أو قرون. أمّا بناء النصّ فهو: «جهد المحقق شريك المؤلف» عند تحقيقه ونشره؛ ومن هنا ظهر في الأدبيات المعاصرة ما يشبهه، أو يمكن أن يُعدَّ (حقوق التحقيق) التي نطالعها، إزاء اسم المؤلف على غلاف كل أثرٍ علميٍّ محقق.

### مثال تطبيقي:

اليوميّات الليبية، بأجزائها الثلاثة (1984 / 2001 / 2018).

مع ملاحظة أنّها «النسخة الفريدة بخط المؤلف» التي كان يضيف إليها بعض الزيادات الموجزة جداً، أسفل اليوميّات في مواضع محدودة، (أي أنّها مسوّدة المؤلف العفوية)، المدوّنة في حينها) (1).

[وقد سبق التنبيه في مقدمة الجزء الأول (1981) إلى خصوصية هذا الأثر بالسطور التالية: «ونؤكد على أنّ هذه الأوراق التي بين أيدينا هي الأصل الأول والأصيل

(1) عن نشر المسوّدات من تراثنا العربي الإسلامي انظر - على سبيل المثال - العمل القيم التالي: مسوّدة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ (766 - 845 هـ / 1365 - 1441م)، حَقَّقها وكتب مقدمتها ووضع فهرسها الدكتور أيمن فؤاد سيّد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 1416 / 1995. (534 ص):

«وهذه المسوّدة من النصوص القليلة التي وصلت إلينا، وتفيدنا في التعرّف على أسلوب القدماء في التأليف، فنحن نملك عدداً من المؤلفات بمخطوط مؤلّفيها ولكن نادراً ما وصلت إلينا مسوّدات المؤلفين. وتوضّح لنا هذه المسوّدة منهج واحدٍ من كبار علماء المسلمين ومؤرخيهم في التصنيف. ففي المخطوطة حذفٌ وكشطٌ وشطبٌ كثيرٌ وإضافاتٌ عديدةٌ ومطوّلةٌ على هوامش الصفحات وفي طيّارات بين أوراق الكتاب، وتعديلاً لبعض النصوص وإشارةً بنقلها عند التبويض إلى مكان آخر أليق بها، والتنبيه إلى استكمال النقل أو الرجوع إلى مصادر أخرى تعرّف عليها المقرئ بعد كتابته للمسوّدة». ص 5 - 6 من المقدمة الدراسية المطوّلة.

(المسوّدة) لليوميّات، وأنّ المؤلف لم يقم بتبويضها - باستثناء بضع ورقات من (حملة نابولي على طرابلس 1244هـ / 1828م)، ولا تقوم إضافة بعض الزيادات أو التمتّات إلى أواخر بعض اليوميّات دليلاً على أنّ المؤلف قد أعاد نسخ يوميّاته؛ إذ الملاحظ على تلك الزيادات أنّها تكون بخطّ أدقّ، وبمدايدٍ مغايرٍ في بعض الأحيان، وغالباً ما تكون في الآجال؛ وهو ما يؤكّد أنّ المؤلف كان يعود إلى (مسوّدة) يوميّاته ليلحق بها تلك الزيادات الموجزة. وهي من وجهةٍ أخرى دليلٌ على عفوية تسجيله للأحداث. ولقد كفانا علو النسخة التي بين أيدينا إلى درجتي (الأصالة) و(التفرد) مشقّة اختلاف النسخ، ومغبّة أخطاء النسخ، وهو ما سيمكّننا من الحصول على نصّ سليم لهذه اليوميّات، وقصر جهدنا على خدمة النصّ ذاته [1]. وقد اكتفى المؤرخ بحراكه العفويّ/ الحفيّ على نصّه، مؤثراً «ملاحقة ما يستجدّ من الوقائع/ على تحسين ما مضى من يوميّاته».



## 1.2 - الجزء الأول: (بناء النصّ على البطاقات التراتبيّة):

وأكتفي في هذا السياق الموجز بالإشارة إلى تلك الخطوة الإجرائية الجديدة في (بناء النصّ) للجزء الأول؛ لما كُنّا نجده في (أوراق المؤرخ/ ودفاتره) من التقديم، والتأخير، والتداخل بين اليوميّات؛ كشأن كل البدايات، وهو ما أجملته في مقدمة التحقيق (1981) بالسطور، التالية:

«ولا نخلنا بحاجةٍ إلى الإعراب عن مدى القلق والحيرة اللذين عايناهما من جرّاء هذا الاضطراب، فكُنّا نحار ماذا نقدّم وماذا نوخّر من بين كل ذلك عند النسخ؟ وعلى أيّ نسقٍ يمكننا إخراج هذه اليوميّات إخراجاً علمياً يرضي (المنهج) حقاً؟

(1) اليوميّات اللببية، ج 1 ص 27 - 28.

لقد انبثقت في لحظة (المعاناة) الصادقة فكرةً جديدة موفّقة كان فيها شفاء النفس مما تجد؛ فبعدها ما يزيد على السنة [1978 - 1979] في معالجة المخطوط ونسخه أعدنا، من جديد، نسخ اليوميات بطريقةً جديدة؛ حيث استقلت كلُّ يوميةً على (بطاقة مفردة)، أبعادها (16 × 12 سم) تقريباً [من ورقٍ سميك]، يعلوها تاريخها باطراد، وهو ما مكّنا في يسرٍ من ترتيب اليوميات [بأرقام التحقيق الجديدة]، حسب التسلسل الزمني يوماً بيوم. ليصدق الاسم على المسمّى... الخ<sup>(1)</sup>. وقد انبثقت هذه الفكرة عن (المعاناة الذاتية) حقاً، ولم تُقتَبَس من أيِّ عملٍ من تلك الأعمال المنهجية المعنية بتحقيق النصوص ونشرها المشار إليها أعلاه: المستشرق برجستراسر، والأستاذ هارون، والدكتور المنجد.

وتمثل هذه الخطوة الإجرائية (المرحلة الثانية) من مراحل العمل في تحقيق الجزء الأول على النحو التالي:

المرحلة الأولى: ثلاث بداياتٍ مبتورة... (أ/ ب/ ج).

المرحلة الثانية: نسخ اليوميات على البطاقات (مجرّدة غالباً دون حواشٍ).

المرحلة الثالثة: تحويل البطاقات إلى الصفحات المعتادة، وتحرير الحواشي.

المرحلة الرابعة: مزيدٌ من التنقيح والتتمّات على التجربة الأولى للطبع.

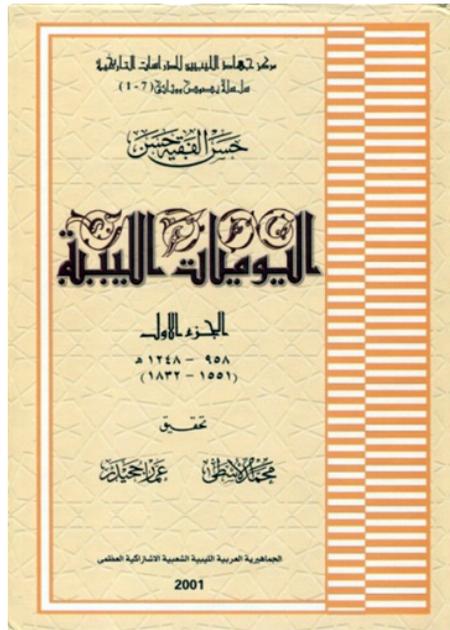
المرحلة الخامسة: إعداد المعجم/ والفهارس على التجربة الطباعية اللاحقة.

(1) وقد تباينت (أرقام اليوميات) في هذه الأجزاء على النحو التالي:

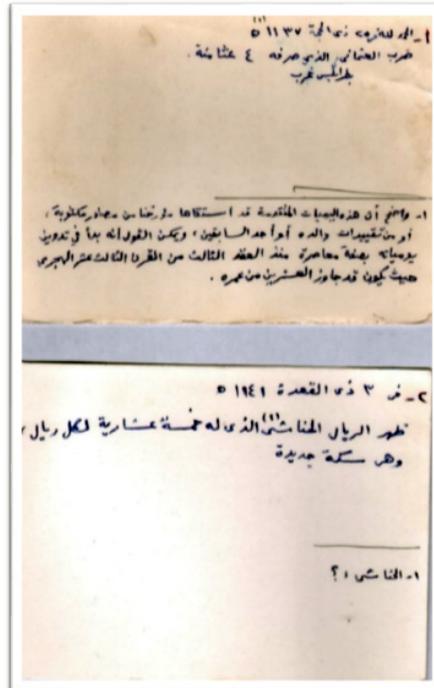
- إذ غابت (أرقام المؤلف) في الجزء الأول لنقصها وقصورها، وحلّت محلّها (أرقام التحقيق).

- واعتمدت (أرقام المؤلف) لنسخها في الجزء الثاني، وغابت (أرقام التحقيق).

- وتمّ الجمع للضرورة بين (أرقام التحقيق) المصوّبة، و(أرقام المؤلف) المضطربة إزاءها، في الجزء الثالث.



الطبعة الأولى 1984/ الطبعة الثانية - مصورة 2001/ 977 ص.



المرحلة الثانية من تحقيق الجزء الأول

نسخ اليوميات على البطاقات (اليوميتان 1 - 2)

## 2.2 - الجزء الثاني: (إضاءة النصّ بالرسوم البيانية):

ومن الجليّ هنا أنّ هذه (الأرقام المسلسلة)، للأوراق / واليوميات، مع ما تحفل به أيضاً من المعطيات الكميّة، تُعدُّ أبرز «السمات المميّزة» لهذا المخطوط الثريّ الطريف، من منظور (بنية النصّ). وهو ما أتاح في الجزء الثاني منه - على وجه الخصوص - إعداد تلك (الرسوم البيانية) الدالّة، ولعله أوّل مخطوطٍ عربيّ - فيما أعلم - تُلحَقُ بتحقيقه مثل هذه الرسوم البيانية الجديدة التي لا نقف على ما يتيح إنجازها في معطيات الآثار التاريخية الأخرى المدوّنة في المشرق والمغرب آنذاك؛ لذا يمكن القول بشفافيّة منضبطة، دون ادّعاء، إنّ المؤرخ الليبي الحضيف حسن الفقيه حسن، يُعدُّ رائداً للعناية بأوليات (التاريخ الكيّ) في اللغة العربية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو ما أصبح اليوم أحد الاتجاهات البارزة في المناهج التاريخية المعاصرة<sup>(1)</sup>.

### تطور الحسّ الإحصائي لدى المؤرخ:

«... ويكفي أن أشير في هذا السياق إلى مختلف الأرقام التي أثبتتها في هذا الجزء وحده، لترتيب النصّ أولاً، وإحصاء ما رأى إحصاءه من عطائه. وقد استخدم في إحصائه للتمييز الأرقام المغربية/ والمشرقية وفق اختياره، وهو ما يمكن أن نجمله في القائمة التالية:

- أرقام مغربية لورقات الجزء الثاني ابتداءً.
- أرقام مشرقية لليوميات.
- أرقام مشرقية لإحصاء المعارك.
- أرقام مغربية لإحصاء الهاربين من المدينة.
- أرقام مشرقية لإحصاء القادمين إليها.

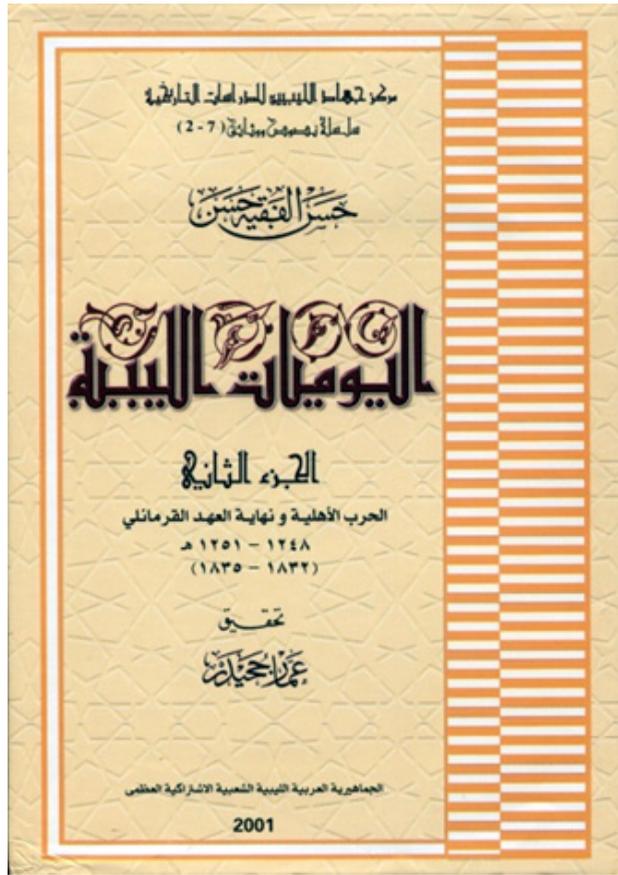
(1) عن التاريخ الكيّ انظر: جون توش، المنهج في دراسة التاريخ: اتجاهات ومنهجيات وأهداف جديدة في دراسة التاريخ الحديث، ترجمة د. ميلاد المقرحي، بنغازي: جامعة قاريونس، 1994، ص 265 - 293.

- أرقام مشرقية لإحصاء القذائف.
- أرقام مشرقية لمرات نزول المبعوث التونسي من مركبه.
- أرقام مشرقية لإحصاء الوفيات.
- أرقام مشرقية لإحصاء القتلى.
- أرقام مشرقية لإحصاء السفن الواردة في كل (لزمة) على حدة.
- أرقام مغربية لإحصاء السفن القادمة من (بنغازي) خاصة.

وقد التزمت عند تحقيق النصّ بإثبات جميع الأرقام (سوى أرقام الورقات) في سياقها المشار إليه كما جاءت في الأصل. غير أنّها هناك مبهمّة لا تميّزها سوى المعالجة، فأضفت إلى كل نوعٍ إحصائيٍّ منها لفظاً موجزاً مناسباً إزاء الرقم للتمييز، وجعلتهما معاً، بحرفٍ دقيقٍ، بين حاصرتين: [معركة 1]، [قدوم 1]، [هروب 1] الخ.

غير أنّ هذا كلّهُ لا يمنع على أيّة حالٍ من وقوعه في بعض الهنات والهنوات التي لا يسلم منها الجهد الإنساني مهما كان نصيبه من الإخلاص والدقّة. وقد رأيتُ أن أخصّ هذا الجهد المتميّز لدى المؤرخ في الجزء الثاني من يومياته (بجدولٍ إحصائيٍّ لمعطيات النصّ - شهرياً)؛ استخلاصاً لكلّ المعطيات الكميّة في عمله، وتصويماً ضمناً لتلك الهنات والهنوات. كما حرصتُ على إرفاق كلّ مُعطىٍ كميٍّ برسمٍ بيانيٍّ على حدةٍ، إبرازاً لهذا الجانب المنهجي من عمل المؤرخ»<sup>(1)</sup>.

(1) عمار محمد جحيدر، «المؤرخ حسن الفقيه حسن واليوميات الليبية»، من نصّ المحاضرة التي قُدّمت في افتتاح الموسم الثقافي لمشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة، بدار حسن الفقيه حسن للفنون (مقر القنصلية الفرنسية التاريخي بمدينة طرابلس القديمة)، مساء الثلاثاء 15 - 1 - 2002. وهي عرض لليوميات الليبية التي صدر منها الجزآن الأول والثاني.



الطبعة الأولى 2001 / 1212 ص

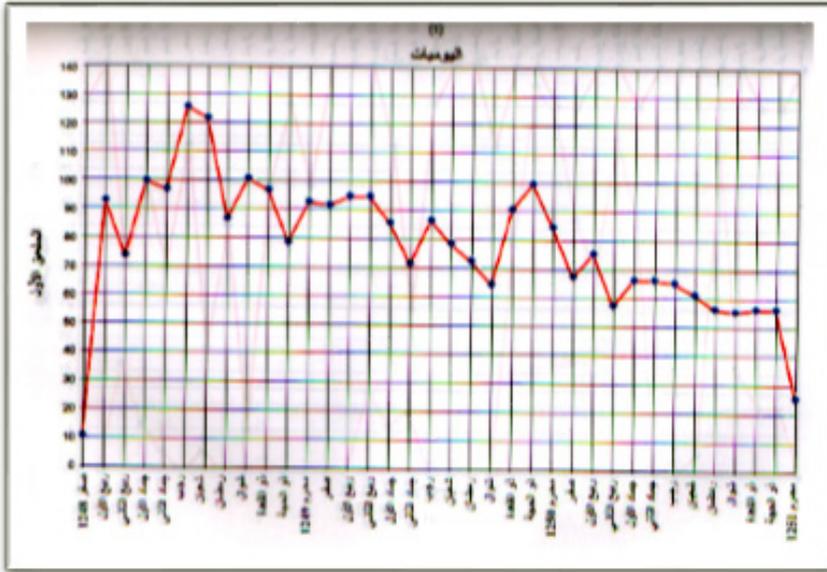
**الملحق الأول**  
**جدول إحصائي لمعطيات النصّ ( شهرياً )**

ر.م	الشهر	اليوميات	المعارك	القتال (اليومية)	القتلى	الوفيات	القادمون	الهاربون	حركة الميناء	السفن القادمة من بنغازي
1	صفر 1248	11	1	-	1	-	-	-	-	-
2	ربيع الأول	93	-	-	1	3	14	8	13	6
3	ربيع الثاني	74	5	16	16	1	27	1	6	2
4	جماد الأول	100	3	7	11	4	27	21	4	1
5	جماد الثاني	97	5	3	17	6	36	7	4	1
6	رجسب	126	2	-	1	-	146	5	4	-
7	شعبان	122	7	38	3	5	87	1	5	1
8	رمضان	87	4	-	17	1	21	5	3	-
9	شعبان	101	9	-	17	9	55	3	5	1
10	أوّل الفعدة	97	3	-	17	11	33	17	6	4
11	أوّل الفعدة	79	1	-	14	14	19	8	3	1
12	محرم 1249	93	3	-	13	27	36	-	7	3
13	صفر	92	-	-	7	47	19	-	15	4
14	ربيع الأول	95	-	-	2	49	24	14	8	5
15	ربيع الثاني	95	-	12	1	21	11	1	7	6
16	جماد الأول	86	3	7	3	41	12	1	12	7
17	جماد الثاني	72	6	9	8	29	20	4	8	2
18	رجسب	87	1	-	3	41	40	4	9	3
19	شعبان	79	-	-	1	43	24	8	3	-
20	رمضان	73	-	-	1	32	9	8	4	1
21	شعبان	65	2	-	12	30	11	3	4	-
22	أوّل الفعدة	91	-	34	1	33	11	11	12	3
23	أوّل الفعدة	100	-	58	2	30	7	7	14	3
24	محرم 1250	85	1	53	4	18	10	2	20	11
25	صفر	48	1	38	5	34	17	4	9	3
26	ربيع الأول	76	-	30	-	22	12	4	8	7
27	ربيع الثاني	58	-	50	7	24	14	-	10	4
28	جماد الأول	67	1	37	4	37	7	3	4	3
29	جماد الثاني	67	-	-	3	15	14	3	3	1
30	رجسب	66	-	-	1	12	119	3	8	3
31	شعبان	62	-	3	3	18	18	6	5	1
32	رمضان	57	-	47	5	16	17	7	5	5
33	شعبان	56	-	13	8	19	27	3	1	1
34	أوّل الفعدة	57	1	10	5	19	8	2	7	4
35	أوّل الفعدة	57	1	10	8	30	33	5	4	3
36	محرم 1251	34	-	-	1	16	4	12	12	5
<b>المجموع</b>		<b>2817</b>	<b>39</b>	<b>442</b>	<b>243</b>	<b>748</b>	<b>1000</b>	<b>192</b>	<b>284</b>	<b>100</b>

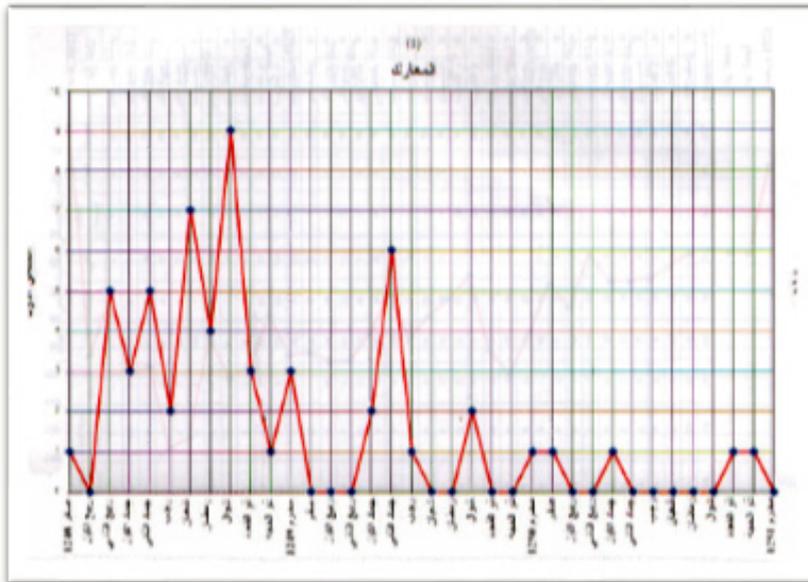
جدول إحصائي لمعطيات النصّ ( شهرياً ) - ( صفر 1248 / محرم 1251 هـ )

[ر.م / الشهر / اليوميات / المعارك / القذائف؛ «البونبة» / القتلى / الوفيات / القادمون / الهاربون / حركة

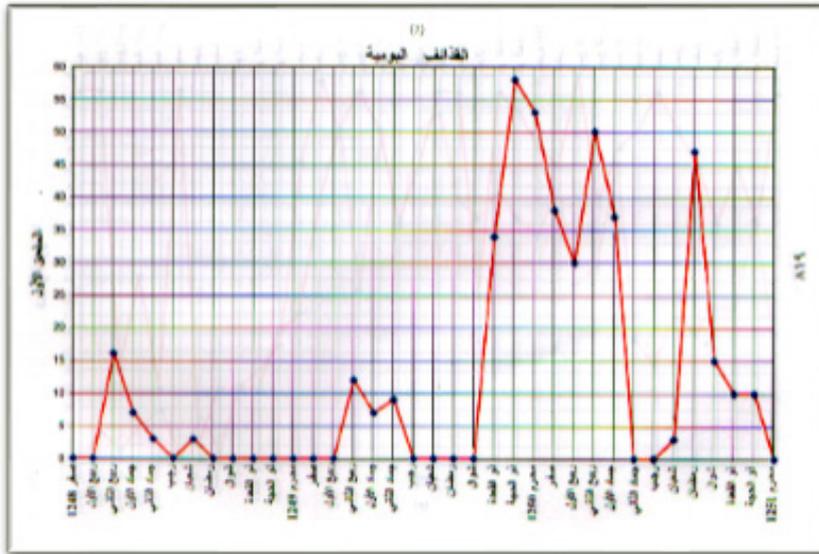
الميناء؛ السفن القادمة / السفن القادمة من بنغازي].



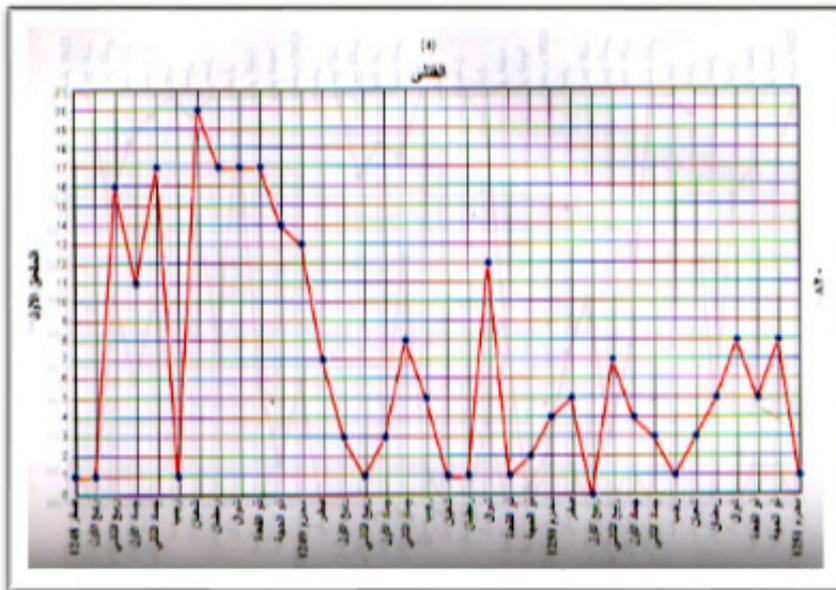
1- اليوميّات (العامة): من صفر 1248 / إلى محرم 1251 هـ



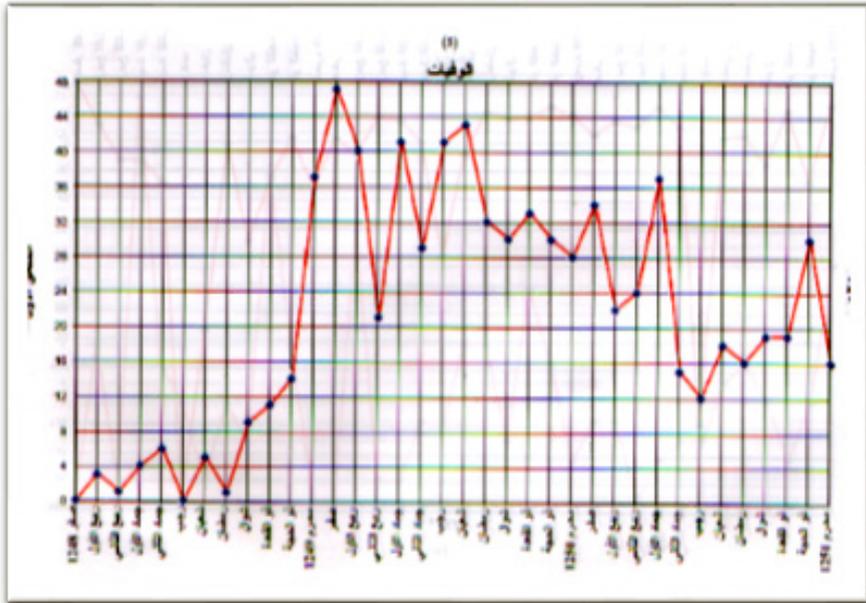
2- المعارك (على المنشئة)



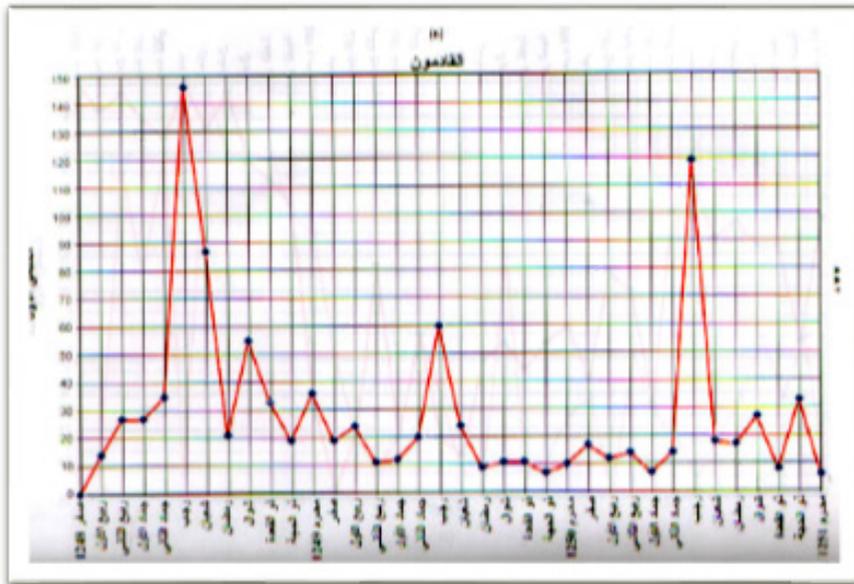
3- القذائف/ البومية (الساقطة على المدينة)



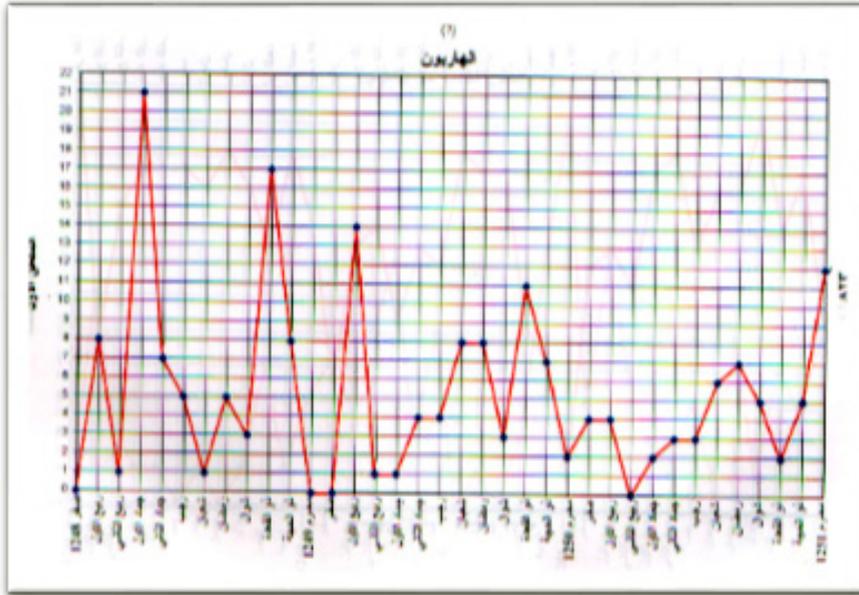
4- القتلى (من سكان المدينة)



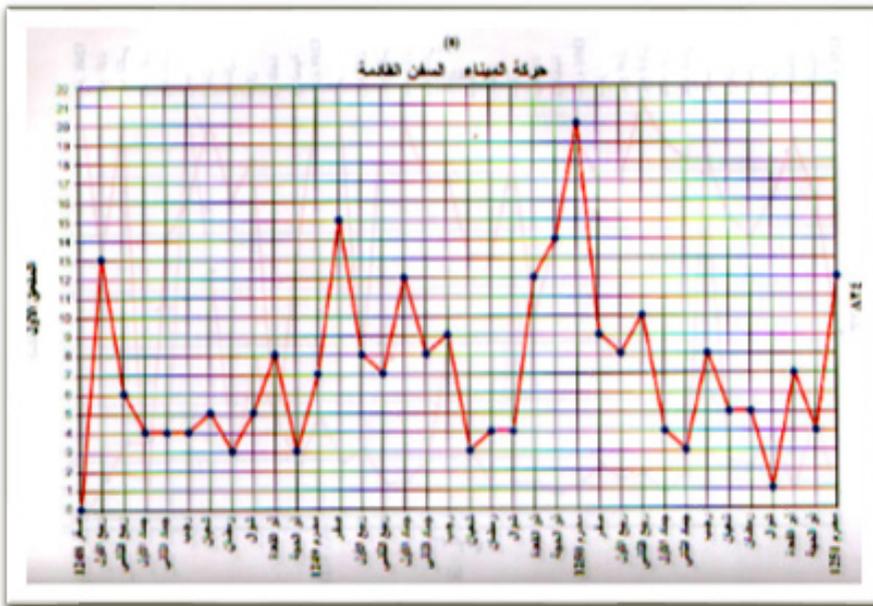
5- الوفيات (في المدينة)



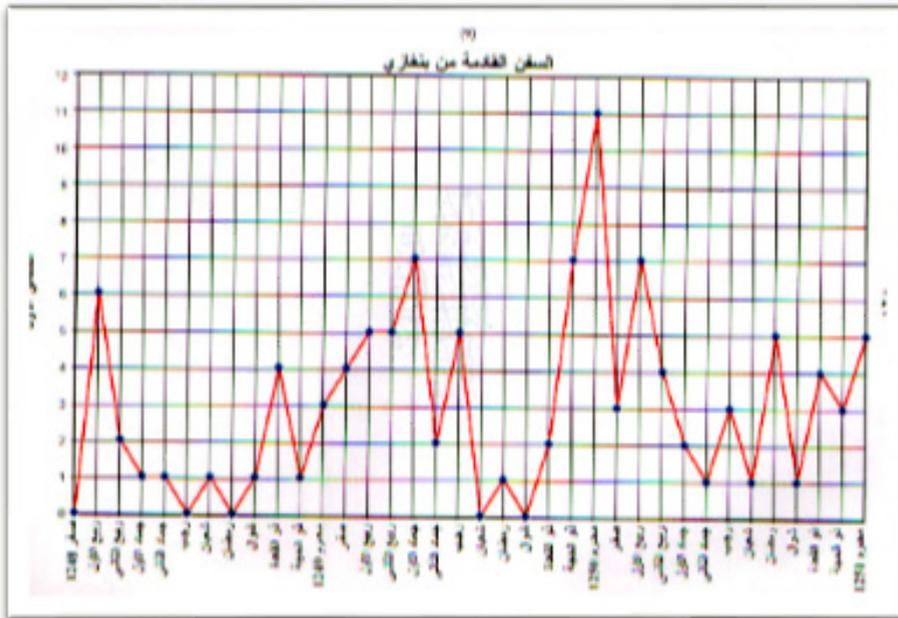
6- القادمون (إلى المدينة)



7- الهاريون (من المدينة)



8- حركة الميناء/ السفن القادمة (على المدينة)



9- السفن القادمة من بنغازي

\*\*\*

## 3.2 - الجزء الثالث: توظيف البُعد الكميّ في توزيع اليوميّات:

انطلاقاً من هذا البُعد الجدير بالعناية في اليوميّات اللبنيّة آثرتُ في هذا الجزء أيضاً [تحت الطبع - بإذن الله تعالى]، أن أُتيح للقارئ الكريم النظر الكميّ إلى: (توزيع اليوميّات على السنوات/ ثم على عهود الولاية)، استناداً إلى أرقامها الجديدة التي حرصت على إضافتها تصويباً لما طرأ على أرقام المؤرخ الأصليّة من الاضطراب، والسهو، والانقطاع في الورقات الأخيرة.

## أ - توزيع اليوميّات على السنوات:

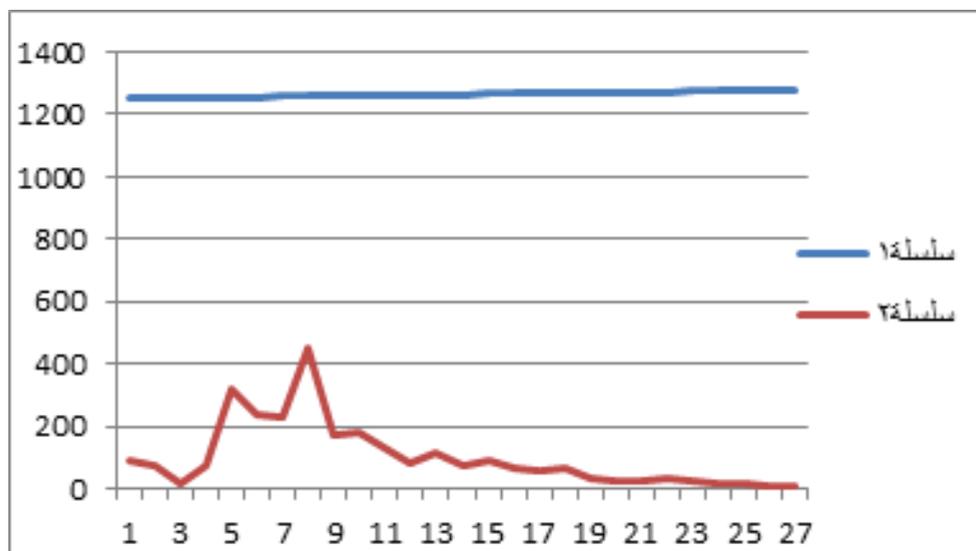
المجموع	إلى	من	السنوات
88	88	1	1251
74	162	89	1252
18	180	163	1253
76	256	181	1254
318	574	257	1255
242	816	575	1256
228	1044	817	1257
449	1493	1045	1258
172	(...) <sup>(1)</sup>	1494	1259
181	1846	(...)	1260
130	1976	1847	1261
80	2056	1977	1262
119	2175	2057	1263
77	2252	2176	1264
92	2344	2253	1265
66	2410	2345	1266

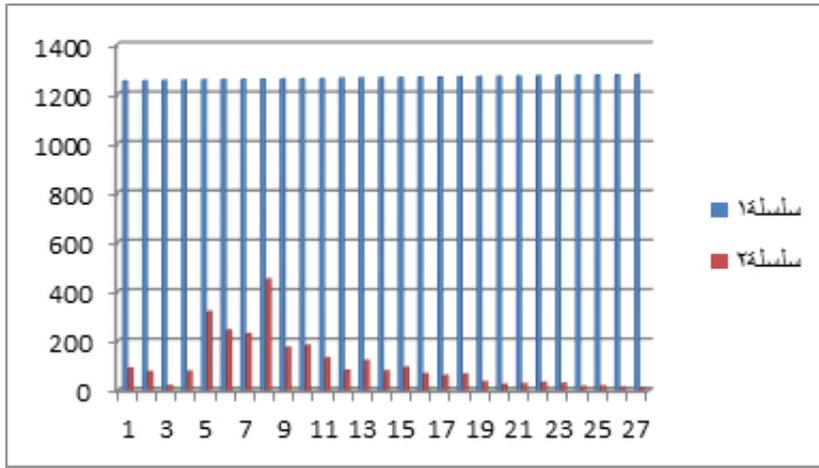
(1) وقع تداخل في يوميات سنتي (1260 / 1259)، بين الورقة الأخيرة من الترقيم القديم / والورقة الأولى في الترقيم الجديد.

آفاق في خدمة النصّ / والمخطوط التكويني

المجموع	إلى	من	السنوات
59	2469	2411	1267
65	2534	2470	1268
33	2567	2535	1269
23	2590	2568	1270
25	2615	2591	1271
31	2646	2616	1272
27	2673	2647	1273
15	2688	2674	1274
16	2704	2689	1275
13	2717	2705	1276
9	2726	2718	1277

توزيع اليوميات على السنوات





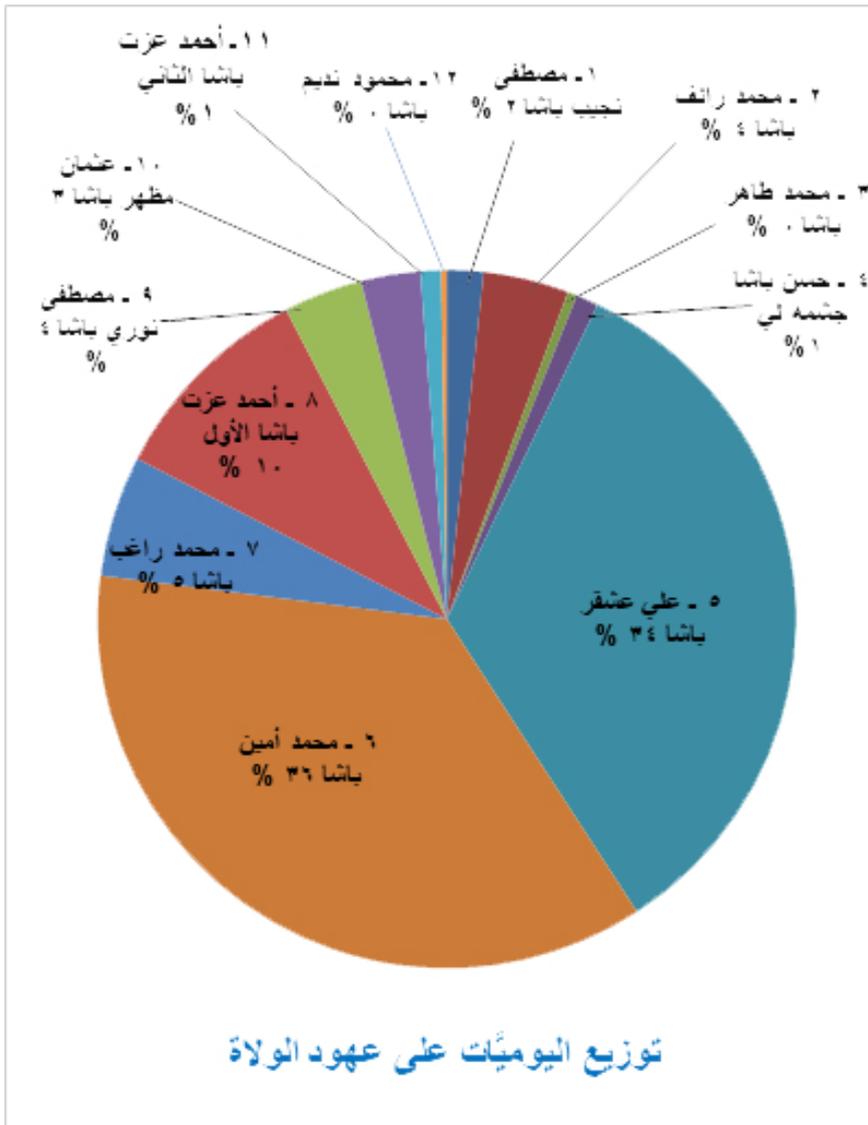
### (ب). توزيع اليوميّات على عهود الولاية:

والمحتوى (هنا) متفاوتٌ كميّاً بشكلٍ جليٍّ أيضاً بين عهود الولاية، لذا يمكن القول بأنّ جلّ (اليوميّات العامّة) المدوّنة في هذا الجزء تعود إلى عهدي: الوالي عليّ أشقر باشا بنسبة (34 ٪)، وخلفه محمد أمين باشا بنسبة (36 ٪)، ومجموعهما (70 ٪)، في حين تقلّصت بقيّة النسب بين سائر الولاية بشكلٍ ملحوظٍ، ولم يتجاوز نصيب بعضهم (الصفير) في لغة الإحصاء الكميّ الصارمة.

### توزيع اليوميّات على عهود الولاية

ر. م	الولاية	اليوميّات	مج	ن - م	البدايات/ القدوم
1	مصطفى نجيب باشا.	46 - 1	46	2 ٪	26 محرم 1251.
2	محمد رائف باشا.	154 - 47	108	4 ٪	14 جمادى أولى 1251.
3	محمد طاهر باشا.	166 - 155	12	0 ٪	19 شوال 1252.
4	حسن باشا جشمه لي.	194 - 167	28	1 ٪	19 صفر 1253.
5	عليّ عشقر باشا.	1113 - 195	919	34 ٪	9 جمادى الثانية 1254.
6	محمد أمين باشا.	2099 - 1114	986	36 ٪	6 جمادى الثانية 1258.
7	محمد راغب باشا.	2252 - 2100	153	5 ٪	6 جمادى الأولى 1263.

15 محرم 1265.	10 %	266	2518 - 2253	أحمد عزت باشا (الأول).	8
1 ذي الحجة 1268.	4 %	100	2618 - 2519	مصطفى نوري باشا.	9
10 صفر 1272.	3 %	75	2693 - 2619	عثمان مظهر باشا.	10
5 ربيع الثاني 1275.	1 %	26	2719 - 2694	أحمد عزت باشا (الثاني).	11
21 محرم 1277.	0 %	7	2726 - 2720	محمود نديم باشا.	12
	100 %	2726	المجموع		



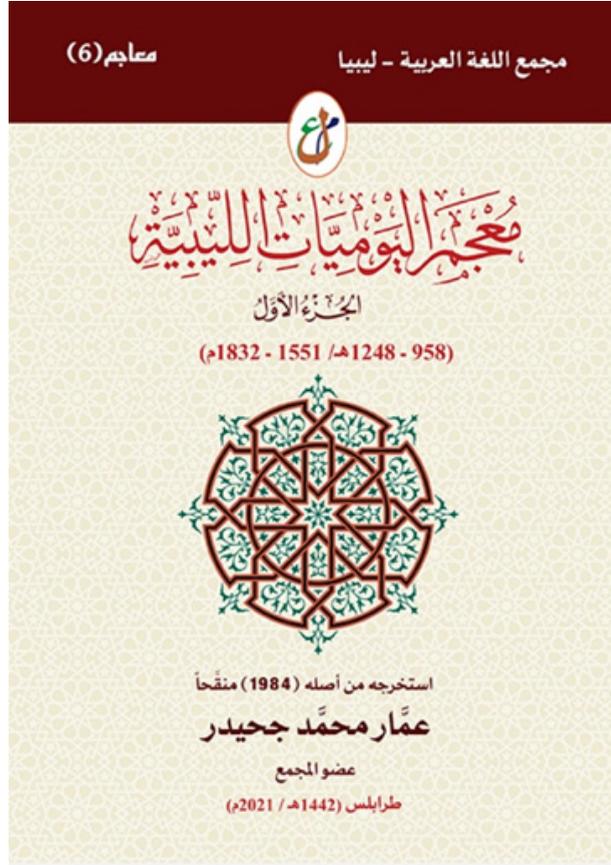
## (3)

## معجم النصّ عند تحقيقه/ أو بعد نشره

يضطر المحققون في العديد من النصوص المخطوطة التي يعالجون تحقيقها ونشرها، على اختلاف موضوعاتها، إلى وضع الحواشي اللغوية لشرح ما غمض أو دقّ أو احتاج إلى إيضاح وبيان من مفرداتها، ومن الجليّ في هذا المقام أنّ النصّ - أيّ نصّ - هو نصّ لغويّ، قبل أيّ اختصاصٍ موضوعيٍّ آخر. وتتفاوت هذه الحاجة إلى الشروح اللغوية، والاصطلاحية، والإضاءات الجانبية من نصّ إلى آخر. وقد يكون النصّ التاريخيّ - على سبيل المثال - (مستغلقاً) في أسلوبه ومعانيه السردية على عامّة القراء في بعض الأحيان. وقد تزداد هذه الحواشي حتى يضطر الباحث إلى إعداد (معجم) أو جامع للمفردات)، [أو فهرس للألفاظ] المشروحة؛ ينبغي أن يسبق الفهارس المعتادة في آخر الكتاب. وقد تستحقّ هذه الحواشي الكثيرة أن يُعاد نشرها (على نسقٍ معجميٍّ) في كتابٍ مستقل، فيغدو (حاشية حدائبة معاصرة/ على ذلك النص القديم المحقق)، كما يلي في هذا المثال.

مثال تطبيقي:

معجم اليوميّات الليبية (الجزء الأول 1442هـ / 2021م).



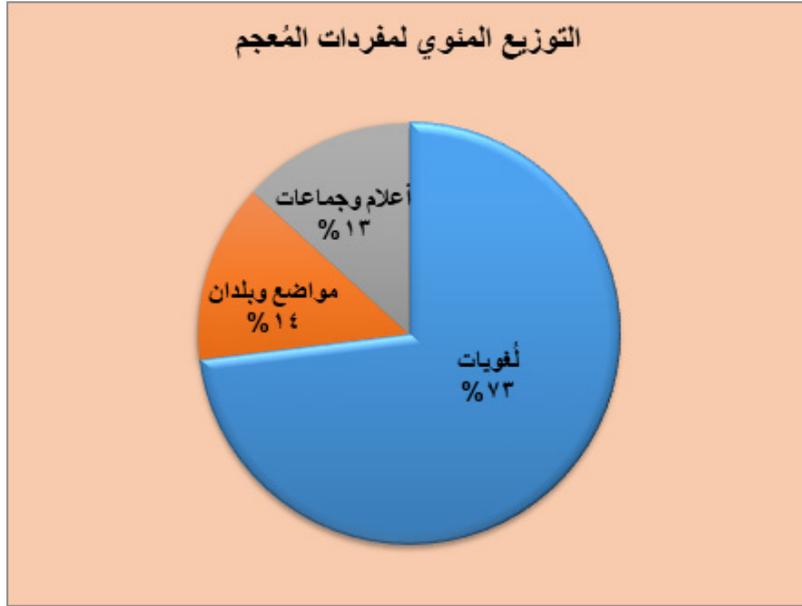
وقد عُنيّت بالتركيز على هذا الجانب اللغوي منذ بداية التحقيق في الجزء الأول، صحبة أستاذي المؤرخ محمد الأسطى - رحمه الله تعالى، انطلاقاً من خصوصية هذا الأثر المدوّن باللغة المحكية غالباً (أو اللهجة الطرابلسية) في النصف الأول من القرن (13هـ/ 19م). وخصصته أولاً بإطالةٍ عامّة بعنوان: (أشّاتٌ لغويّة في اليوميّات الليبيّة)<sup>(1)</sup>، ثم طوّرتُ هذا (الحلم البحثي) إلى العنوان المذكور، وزدّتُ إليه بعض المعطيات القليلة عن

(1) قُدّمت إلى ندوة: اللهجة الليبية في فضاءها العربي الأوسط بين المشرق والمغرب / الحلقة الأولى؛ الفصحح المتداول في اللهجة الليبية: دراسات تأصيلية مقارنة بين المدن والأرياف والبوادي، طرابلس: مجمع اللغة العربية، 2007.

المواضع والبلدان، والأعلام والجماعات، وجعلتُ الفصل الثالث من الكتاب في جدولٍ مطوّلٍ بعنوان: (تصنيفٌ ثلاثيٌّ لمفردات المعجم)، وقد غلب الجانب اللغوي عليها، كما يُستَشَفُّ من بُعده الإحصائي في الجدول الصغير التالي:

### خلاصة كميّة لمفردات المعجم

النسبة المئوية	العدد	الصنف
73 %	1112	لغويات <sup>(2)</sup>
14 %	208	مواضع وبلدان
13 %	201	أعلام وجماعات
100	1521	المجموع



(1) لغويات: أفعال، صفات، معانٍ، أشياء ... الخ.

(أ)

**أب: يو اثنا عشر:**

قطعة صرفها ألف ومائتان. (178).

**أبو جمره:**

[وحأفهم على كتاب الشيخ سيدي بوجمره]: أبو عبد الله سعد بن سعيد بن أبي جمره الأزدي الأندلسي (ت 695هـ/ 1296م)، من العلماء بالحديث؛ له مختصر على صحيح البخاري عُرف باسمه (مختصر ابن أبي جمره)، وهو المقصود في اليومية، ومنه نسخ بمكتبة الأوقاف بطرابلس. انظر: خير الدين الزركي، الأعلام، ط 3، مج 4، ص 221. (372).

**بو جنب [مرض]:**

نزلة رئوية (حسب إفادة صديقنا الدكتور عبد الكريم أبوشويرب). وبو جنب هو الاستعمال الشعبي لاسم المرض (ذات الجنب) المعروف في الطب العربي، فهو (أبو) في اللهجة بمعنى: ذو. انظر عن (ذات الجنب) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (إدارة الثقافة)، طب الرازي دراسة وتحليل لكتاب الحاوي، شرح وتعليق الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الحليم العلي، ص 151 وما بعدها. (550).

**البودورو:**

أبو في اللهجة بمعنى (ذو)، قطعة من فئة دورو. (انظر أيضاً: الدورو). (178).

**بو طاقة:**

وصف شكلي للقطعة، وهو أحد أنواع الريالات. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، مادة (ريال)، وكذلك نفس المادة لدى: الكرمني، النفود العربية وعلم النميات، ص 174 - 175 (178).

**بو عجيلة:** (انظر: العجيلات).

**بو عجيلة / علي:**

من كتّاب الديوان؛ سلكه أحمد القليبي - ضمن آخرين - في نظمه لهم. انظر: علي مصطفى الممراتي، رسائل أحمد القليبي، ص 175. (366).

**البلاعة [نحت لغوي من: أبو العز]:**

عشيرة عربية بالزاوية الغربية<sup>(1)</sup>. وحسن

(1) وردت الإشارة إليهم بهذه الصيغة لدى العلامة الزبيدي في (تاج العروس)، ومنهم أحد تلاميذه الليبيين أيضاً، سالم بن راشد البلعزي الذي أثبت ترجمته في (المعجم الكبير)، وقد استقر بمصر. عمار جعيد، «اتصال السند العلي في ليبيا: تلاميذ العلامة مرنطى الزبيدي (ت 1205هـ/ 1791م)»، ضمن أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا، وأفاق العمل حولها (زليطن 1988)، من منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية - وكلية الآداب بزيطن، 1992، ج 2 ص 1411 - 1442.

## (4)

## استنطاق النص عند تحقيقه ونشره

والقصد هنا إلى معالجة النصّ المنشور بعددٍ من (الجداول التحليلية المركّبة)، وهي كما يبدو جلياً تتجاوز (الفهارس التقليدية البسيطة) في الكشف عن ثراء النصّ ومجمل معطياته إلى غاياتها القصوى.

## مثال تطبيقي:

عبد السلام العالم التاجوري (1058.1139هـ / 1648.1727م): الفقيه الصوفيّ المؤرخ وتراجم شيوخه: سيرة علميّة / نصّ ودراسة وملاحق (2006 / 2021)<sup>(1)</sup>.

وفي هذه المساهمة المحدودة المركّزة على نشر نصّ قصيرٍ (في التراجم / والتاريخ الثقافي) محاولةً تطبيقيةً أوليّةً لاستنطاق النصّ بخمسة جداول:

- 1 - جدول تراتبي لمجمل (التراجم) وفقاً لسياق النص: [ر.م / الاسم / النسبة الجهوية / تاريخ اللقاء / مكان اللقاء / تاريخ الوفاة].
- 2 - لوحة جامعة لأسماء (التلاميذ) مرتبةً على حروف المعجم: [ر.م / اسم التلميذ / أسماء شيوخه / المقروآت / الموضوع].
- 3 - لوحة جامعة لأسماء (الشيخ) مرتبةً على حروف المعجم: [ر.م / اسم الشيخ / أسماء تلاميذه / آثاره الواردة في النص / وظائفه - ملاحظات / الموضوع].
- 4 - لوحة جامعة لمجمل (العلوم والآثار) الواردة في النصّ مرتبةً على حروف المعجم: [ر.م / العنوان / المؤلف / الموضوع / الشيخ المفيد / التلميذ المستفيد / الموضوع].

(1) نُشرت المساهمة الأساسية (الدراسة / ونصوص التراجم / والجداول التحليلية)، بعنوان: «الحياة الثقافية في ليبيا - في العهد العثماني الأول: عبد السلام بن عثمان التاجوري (1058 - 1139هـ / 1648 - 1727م) وتراجم شيوخه نموذجاً»، حولية المجمع (مجلة مجمع اللغة العربية)، العدد الرابع (2006)، ص 183 - 298. ثم طوّرتها بعددٍ من الملاحق المزيّدة، وصدرت في كتاب مستقلٍ بالعنوان المذكور أعلاه، ضمن منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، في مطلع هذه السنة 2021.

5 - جدول تصنيفي تراتبي (لما أخذه المؤلف عن شيوخه ولقاءاته بهم) حتى تدوين النصّ (1100هـ): [ر.م / اسم الشيخ / تاريخ اللقاء / مكان اللقاء / الأثر المقروء / الموضوع / ملاحظات].

والقصد هنا بالجدول التحليلي المركّب: إلى أنّه - خلافاً للفهرس التقليديّ المفرد - جدولٌ جامعٌ بين عددٍ من المعطيات المترابطة في سياقٍ واحد (من خلال النسيج المتواشج المؤلف، بين الأعمدة / والصفوف)؛ وخالصة القول إنّ الفهارس أداة (الكشف العابر)، والجدول أداة (التحليل العميق).

ويبدو لي أنّ إنجاز مثل هذه (الجدول التحليليّة المركّبة) على مجمل كتب التراجم العربيّة العديدة الثريّة، وإدراج الحصيلة في وسائط الكترونيّة محوسّبة، متضمنةً كلّ هذه التفاصيل وغيرها من المعطيات في النصّ، وفقاً لتعدّد عطائه، سيتيح لنا الوقوف على: (شبكة ثرية جدّاً من نسيج الذهنيات خلال قرونٍ عديدة).

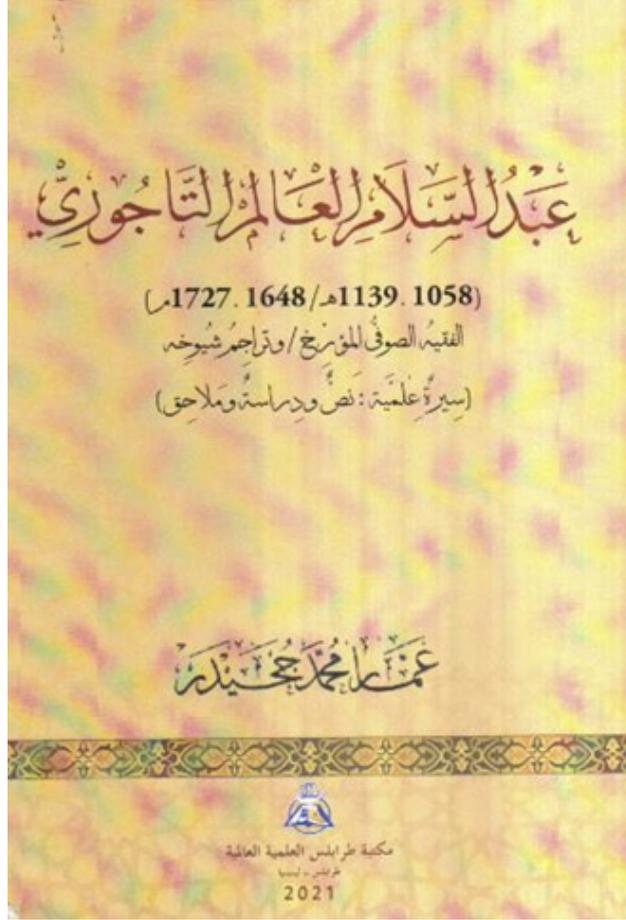
فهل من سبيلٍ إلى (أفقٍ مؤسّسيّ) <sup>(1)</sup> شاملٍ لتراجم هذه الأمّة جمعاء؟



وقد بذل الأستاذ المحقق الدكتور جمعة محمود الزريقي عناية واسعة بدراسة المؤلف الشيخ عبد السلام العالم التاجوري، وتحقيق عمله الفقهي الشهير (تذليل المعيار)، واقترب من فضائه؛ لذا جاءت لديه في (التعريف بالمؤلف وشيوخه) تلك الإشارة الكريمة إلى هذا الجهد المبذول في تلك الدراسة المنشورة بحولية المجمع (2006)، وما ورد بها من (الجدول التحليلية)، بقوله: «... سلّط فيها الضوء على تلك الفترة التي عاش فيها المؤلف، وملامح الحياة الثقافية في ليبيا آنذاك، وحقّق نصّ الترجمة تحقيقاً علمياً، واستخلص منها عدّة

(1) هذا «حلمٌ ثقافيٌّ عروبيٌّ كبير»، طرحته في المساهمة الأساسية بحولية المجمع (2006)، وأسأل الله تعالى أن يجد أذاناً صاغية، وقدراتٍ واعية.

جداول خصصها لبيان شيوخ المؤلف والكتب التي درسها تفصيلاً، مع بيان العلماء الذين تلقى عنهم أو التقاهم، ومكان التلقي أو اللقاء، وهي دراسة تحليلية للنص جاءت بأسلوبٍ فريدٍ قلماً تجده في الدراسات التحقيقية السابقة<sup>(1)</sup>.



المساهمة الأساسية: التقديم، والفصول: ص 1 - 210.

تكملة الكتاب - الملاحق: ص 211 - 451 / المصادر: ص 453 - 466.

(1) تذييل المعيار، تأليف العالم الجليل الشيخ عبد السلام بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر، طيب الله ثراه، الشهير بالشيخ عبد السلام العالم التاجوري (1058 - 1139 هـ / 1648 - 1727 م)، تقديم وتحقيق الدكتور جمعة محمود الزريقي، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية، 2008، ج 1، ص 18 - 19.

(5)

إعادة بناء النص

5.1. إعادة بناء النص بعد تحقيقه ونشره: (بجمع شظايا النصوص المشتتة/ في بناء

نسقيّ تراثبيّ جديد):

مثال تطبيقي:

تراجم علماء طرابلس وصلحائها في رحلة التجاني (مطلع القرن 8 هـ / 14 م): محاولة نحو: إعادة بناء النص (2009 / 2019).

وأودّ هنا الإشارة أولاً إلى أنّ (العنوان الفرعيّ) السابق لهذه الدراسة التي نشرت في أعمال الندوة (2009)<sup>(1)</sup> كان كما يلي: (نصوصّ / وملاحظات / وجدول تحليلي للمخطوطات). ثم آثرتُ تحويله إلى هذا العنوان / المصطلحي الجديد: (محاولة نحو: إعادة بناء النص) الذي ورد التنويه بمعناه ووجهته الدّالة في تقديم الكتاب.

وقد استُهلّت هذه المحاولة (بالجداول التراتبية / المقارنة لمجموعة التراجم)؛ وأعدتُ في [الجدول الأول من الدراسة / ونصوصها المنشورة]، تنسيق التراجم في (سياق تراثبيّ جديد)، خلافاً لما جاءت عليه من (شتاتٍ / مشوّشٍ / مضطربٍ)؛ وفقاً لمواضعها المختلفة في الأصل (رحلة التّجّاني). وذلك فضلاً على تصنيفها إلى قسمين منفصلين (تراجم العلماء / وتراجم الصلحاء)، «كما تقدّم التنبيه هناك». وليس هذا افتثاناً على (النصّ الرحلي التّجّاني)؛ إذ أنّ لمؤلف الرحلة - قطعاً - سياقه الخاص الذي يُحكّم من خلاله (بناء النصّ)؛ وفق تداعياته المختلفة التي تقوده إليها طبيعة عمله، وهو مرتبّطٌ - كما ترى - بالمسار الجغرافي، غير أنّنا سنقف - دون شكّ - على مبلغ اضطراب السياق و(تشوّشه) إذا أمعنا النظر إلى نصوص التراجم من

(1) نشرت الدراسة أولاً ضمن أعمال الندوة العلمية التالية: ليبيا في الرحلات العربية والغربية: (نحو رؤية تحليلية مقارنة)، طرابلس: مجمع اللغة العربية، 2009، ص 387 - 537.

خلال (منظور: نسقيّ / تراتبيّ / دراسيّ / معاصر)؛ على النحو الذي يقف عليه القارئ الكريم في مجموع الجداول التراتبية التي حرصتُ على إلحاقها بالمدخل الدراسي الموجز لتراجم العلماء / والصلحاء في القسم الطرابلسي من رحلة التجاني، وقد ضمّ الكتاب الفصول التالية:

### الفصل الأول: مدخل دراسي موجز إلى نصوص التراجم.

وفيه ثلاثة جداول:

- 1 - تراجم علماء طرابلس وصلحائها في رحلة التجاني: [ر.م / الاسم / الوفاة / القرن / المصدر / السياق / الموضوع].
- 2 - تراجم علماء طرابلس وصلحائها في رحلة التجاني، في أربعة من كتب التاريخ والتراجم: [ابن غلبون / الأنصاري / الزاوي / الشريف «الحداد»].
- 3 - تراجم علماء طرابلس وصلحائها في رحلة التجاني، في ثلاث دراساتٍ معاصرة: [د. إحسان عباس / د. أحمد مختار عمر / د. عبد اللطيف البرغوثي].

### الفصل الثاني: إعادة بناء النصوص / ودمج ملاحظاتها.

### الفصل الثالث: جدول المخطوطات....



وزارة الثقافة والتنمية المعرفية (2019)

(1) تراجم علماء طرابلس وصلحائها في رحلة التجاني (مطلع القرن 8هـ / 14م)

رقم	الاسم	الوفاء	القرن	المصدر	السياق	الترقيم الموضوعي
1	الغمامة (9) خليل بن إسحاق	352	(4,3)	الرواية من صاحبة المصنف من عهد السلطان التتويي (تلا من عهد الغمامة أبو موسى ابن جعفر)	العلم مع ملك طرابلس في العهد العثماني عهد القطر المنقذ بناء القصر العظيم في عهد بني عبد-	(241-240) (246) (254-253)
2	علي بن أحمد بن الفقيه الأنطوني أبو العين	(37)	(4)	-	التاريخ المنقذ الذي عرف بملكته	(251)
3	علي بن محمد بن جعفر الطرابلسي أبو الحسن	352	(3,4)	أول لقب اليونان (عهد الفريديونية)	التاريخ منارة في طرابلس الجزء على عهد (الغمامة)	(267-264) (317)
4	أحمد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الله الطرابلسي النواصي الطرابلسي أبو إسحاق	+	(3)	عهد الفريديونية عهد الخليفة	تاريخ الفريديونية في طرابلس تاريخ خليفة (الغمامة) تاريخ الخليفة (الغمامة) وسيد المنقذ هذا العهد	(284-282) (142-141) (216)
5	يوسف بن زكري أبو النعمان	+	(4)	الوفاء في التاريخ	استيلاء المغول على طرابلس	(242-241)

من الفصل الأول: تراجم علماء طرابلس وصلحائها في رحلة التجاني (مطلع القرن 8هـ / 14م)

(ر.م/ الاسم/ الوفاة/ القرن/ المصدر/ السياق/ الموضوع)

( 1 ) الكتب [المخطوطات] وما إليها مرتبة على حروف المعجم - في القسم الطرابلسي  
من رحلة التّجاني (مطلع القرن 14 هـ / م)

رقم	المؤلف / التاريخ	العنوان	تاريخ الوفاة	مصدر الترجمة	الموضوع	الواقع	الملاحظات
2	الرشيد، في أصول الدين (مخطوطات مطبوع - 1)	أبو العباس عبد الملك بن عبد الله بن يونس بن محمد الجوزي القلابي وأمام العرين.	478 هـ 1085 م	الأعلام (140/4)	اصول الدين	237	قراءة عبد العزيز بن عبد طاهر في كتابه عبد المعجم بن أبي العباس.
3	الإمام علي بن مسعود (مخطوطات مطبوع - 1)	القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمران بن يحيى بن الحسين بن الحسين	344 هـ 1149 م	الأعلام (39/5)	الصيد	236	وهو ذكره عريضا خلال الحديث عن قراءة صحيح مسعود الطبرستاني رقم (27)
4	أمنة الغرب [مخطوطات مطبوع - 2]	علي بن الحسين بن الحسين الهادي الغروي أباغ [التمت]	329 هـ 921 م	الأعلام (272/4)	الغناء	263	وكانت أخبار أميرنا أبا سعيد بن طرابلس كتاب عقبة الغرب الأبي الحسن علي بن الحسين بن الحسين الهادي الغروي أباغ [التمت] بخط الغروي أبي إسحاق [بن الحسين] في كتابه عياض بن الحسين وهو من أخبار طرابلس هو أبا عبد الله فوجه الشك هنا إليه وقد وُفقت على أبا عبد الله بن يحيى بن الحسين بن الحسين بن الحسين الغروي أباغ رقم (27)

من الفصل الثالث: الكتب (المخطوطات) وما إليها مرتبة على حروف المعجم

(ر.م / العنوان أو الإفادة / المؤلف / تاريخ الوفاة / مصدر الترجمة / الموضوع / الموضوع / الملاحظات)

### التوزيع الزمني / الجهوي للكتب [المخطوطات]

#### في القسم الطرابلسي من رحلة التّجاني

القرون الهجرية	مخطوطات مشرقية	مخطوطات مغربية	مخطوطات محلية	شؤون أخرى	المجموع الزمني
القرن الأول	-	-	-	-	-
القرن الثاني	-	-	-	-	-
القرن الثالث	4، 23، 24، 25، 27.	-	-	-	5
القرن الرابع	10	11	7، 13، 28.	-	5
القرن الخامس	2، 5، 41.	-	6، 8، 9، 22، 32، 34، 35، 36، 37.	-	12
القرن السادس	42، 43، 44	3، 39.	29.	-	6
القرن السابع	-	12، 33، 38.	1، 14، 15، 26، 40.	-	8
إشارة عامة	-	-	-	30	1

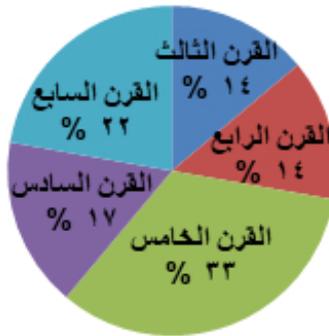
5	،16،17 ،19،18 .20	-	-	-	خط
1	.21	-	-	-	خطة النظري في خزانة الكتب
1	.31	-	-	-	غير محقق؟
44	8	18	6	12	المجموع الجهوي

(أ) - التوزيع الزمني للمخطوطات في القسم الطرابلسي

من رحلة التجاني على خمسة قرون هجرية

النسبة المئوية	العدد	القرن
٪ 14	5	القرن الثالث
٪ 14	5	القرن الرابع
٪ 33	12	القرن الخامس
٪ 17	6	القرن السادس
٪ 22	8	القرن السابع
100	36	

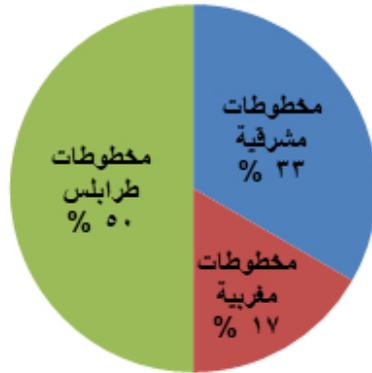
التوزيع الزمني للمخطوطات في القسم الطرابلسي  
من رحلة التجاني على خمسة قرون هجرية



(ب) - التوزيع الجهوي للمخطوطات في القسم الطرابلسي  
من رحلة التجاني بين المشرق / والمغرب / وطرابلس

النسبة المئوية	العدد	الجهة
33 %	12	مخطوطات مشرقية
17 %	6	مخطوطات مغربية
50 %	18	مخطوطات طرابلس
100	36	المجموع

التوزيع الجهوي للمخطوطات في القسم الطرابلسي  
من رحلة التجاني بين: المشرق / والمغرب / وطرابلس



2.5. إعادة بناء النص: (من السياق السرديّ المسترسل / إلى نسق اليوميات المرقمة).

مثال تطبيقي:

ليبيا في رحلة اللغويّ العلامة محمد بن الطيّب الفاسي (أوائل العهد القرمانلي: 1139

1140هـ / 1727. 1728م)<sup>(1)</sup>.

(1) عدت هنا إلى مخطوطة الرحلة الفريدة المحفوظة (بمكتبة لايبسك) بألمانيا، وقد وقفتُ على خبرها من خلال مقالات الأستاذ الجليل محمد الفاسي - رحمه الله تعالى - عن (الرحالة المغاربة وآثارهم) بمجلة (دعوة الحق)؛ لذا طلبت تصويرها لمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، على يدي المؤرخ الفاضل الدكتور عماد الدين

## مزيد من ضبط النصّ في يومياته الليبية

وقد بدا لي وأنا أعيش من جديد هذا النصّ الرحلي المغربيّ بعد سنواتٍ عديدة، أن أحرص في إخراجه على إبراز (بداية كل يومية في أول السطر بحرفٍ غامق)، وإن كانت موجزة جداً في سطرٍ واحدٍ، وكان الرحالة يستهلُّ يومياته غالباً بكلمتي (ارتحلنا، وطمعنا)، ثم زدتُ الأمر ضبطاً خلال ذلك فوضعتُ لكلّ يومية رقمها المسلسل في السياق، وتبيّن أخيراً أنّ يوميات هذا القسم (الليبي) من الرحلة على النحو التالي من الترتيب والدقة:

- صيغة البداية (ارتحلنا أو وضعنا) متبوعة باليوم وتاريخه في الشهر، في

مواضع محدودة.

- صيغة اليومية المذكورة.

وقد هداني هذا الإجراء البسيط إلى رأيٍ آخر أرجو أن يكون نصيبه راجحاً من الصواب؛ إذ بدا لي حقاً أنّ هذا التسلسل الزمنيّ المطرد غالباً ليوميات الرحلة، وتوالي أيام الأسبوع مع ما يتخللها من الارتحال والنزول، وأسماء البلدان والمواضع (المحليّة) العديدة التي تمتدّ من المغرب (الأقصى) إلى الحرمين الشريفين ذهاباً وإياباً، لا يتأتّى تقييده من سوانح الذاكرة وحدها، ويرجّح أيضاً وجود قدرٍ من الأصول المدوّنة في صورةٍ من الصور لدى الرحالة (مسوّدات، أو ملاحظات أولية)، خلافاً لإشارته إلى (الرحلة الضائعة)؟ وربّما كان يعني بها صياغةً محرّرةً منها على نحوٍ ما.

وقد وردت لدى الدكتور عبد العلي الودغيري الذي عُني بدراسة الرحالة العلامة

---

غانم - رحمه الله تعالى - حرصاً على تقديم هذه (المشاركة النصّية) إلى: مؤتمر ابن غلبون مؤرخ ليبيا الذي عُقد بالمركز (طرابلس مارس 1981)، ونُشر النصّ المحقّق في كتاب: آفاق ووثائق في تاريخ ليبيا الحديث، الدار العربية للكتاب 1991، ثم عدتُ إليه ثانيةً بمزيدٍ من التوسّع في (التعريف بالمؤلف الرحالة) من جهةٍ، و(إعادة بناء النصّ) على النحو المشار إليه أعلاه من جهةٍ أخرى، ونشر منقّحاً بالموقع الإلكتروني لمجمع اللغة العربية في أواخر سنة (2020). وقد وقفتُ من خلال الانترنت على صدور طبعيةٍ كاملةٍ لهذه الرحلة القيّمة وفق البيانات التالية: الرحلة الحجازية، أبو عبد الله محمد بن الطيّب الشرقي الفاسي (1110 - 1170 هـ)، حقّقها وقدم لها نور الدين شوبد (الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات 2013 - 2014).

وأثاره اللغوية في (أطروحة للدكتوراه)، وردت هذه الإشارة الدالة خلال عرضه لمؤلفاته: «رحلة: وهو الكتاب الذي سجّل فيه ابن الطيب مذكراته ويوميات رحلته إلى الحج ذهاباً وإياباً ما بين 4 رجب 1139، و6 ذي القعدة 1140هـ<sup>(1)</sup>. كما نقف في مساهمة المؤرخ الجليل الدكتور عبد الهادي التازي على إشارة أخرى مماثلة: «وكما هي عادته أيضاً فإنه يتتبع المراحل يوماً عن يوم، يذكر اسم اليوم وتاريخ الشهر... بحيث إنّ مذكراته كانت يومية فعلاً...»<sup>(2)</sup>. ومثلما أكملتُ تلك (العجالة) «في التقديم السابق» بهذه (التممة المزيّدة)، فقد أدرجتُ بين الحواشي التالية في النصّ المحقّق العديد من (الحواشي الجديدة) بين معقوفين؛ تمييزاً لها عن حواشي الطبعة الأولى، وإنّني لأرجو في الختام أن يكون في هذا وذاك بعض النفع، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مساء الثلاثاء 10 شوال 1433هـ / 28 أغسطس 2012م.



### القسم الخاص بليبيا من الرحلة / في الذهاب:

#### [من الورقة 42. أ.]

[ 1 ] «وارتحلنا فوصلنا ضحىّ ماء نبش الذيب، في أرض قفرا لا تعلق فيها ولا ذيب، استولى على الأبنية التي حوالها الخراب [42 - ب]، وصاح في جوانب حافات البوم والغراب، ومررنا بعد ذلك بعقلة آبار تُسمّى البحيرة، فألفينا ماءها لرداءته وملوحته يترك شاربها في حيرة، وحول هاتيك العقلة جلة<sup>(3)</sup> من أعراب بني مريم، ما فيهم إلاّ من تلقّانا

(1) د. عبد العلي الودغيري، التعريف بابن الطيّب الشرقي، الرباط: منشورات عكاظ، 1990، ص 157.

(2) أ.د. عبد الهادي التازي، «ليبيا من خلال رحلة ابن الطيّب الشرقي الصميلي الفاسي 1139 - 1140هـ / 1727 - 1728م»، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 22 (2005)، ص 562. كما تقدّم قوله: «ولقد كان فيما لفت نظرنا في هذه الرحلة الرفيعة الأسلوب، بالرغم مما حلّ بها من عطب، كان من أبرز ما لفت نظرنا فيها أنّها كانت سجل أحداث يوماً عن يوم، وبالتاريخ والاسم، وبدون ملل أو كسل». ص 544.

(3) جلة: بكسر الحاء - القوم النزول وفيهم كثرة.

بالترحيب وقال مَهَيْمٌ<sup>(1)</sup>، ووصلنا إلى بئر يُقال لها المويحة، فوجدنا بها ماءً ياما أبرده وياما أغزره وياما أعدبه وياما أميلحه، فجددنا من ذلك الماء النمير الظهر، وأدبنا صلاة الظهر، وتجاوزنا وادي فسي فارغاً من الماء، وبتنا بعده بكثير في كلاً ونعماء.



لوحة من القسم الخاص بليبيا في مخطوطة الرحلة

(النسخة الفريدة بمكتبة لايبسك)

(1) [مَهَيْمٌ: كلمة استفهام، أي: ما حالك، وما شأنك، أو: ما وراءك؟ المعجم الوسيط].  
ملاحظة: الحواشي المدرجة بين معقوفين مثل هذه الحاشية [...] مزيدة في هذه الطبعة الجديدة.



غلاف النشرة الرقمية بموقع مجمع اللغة العربية/ ليبيا

(6)

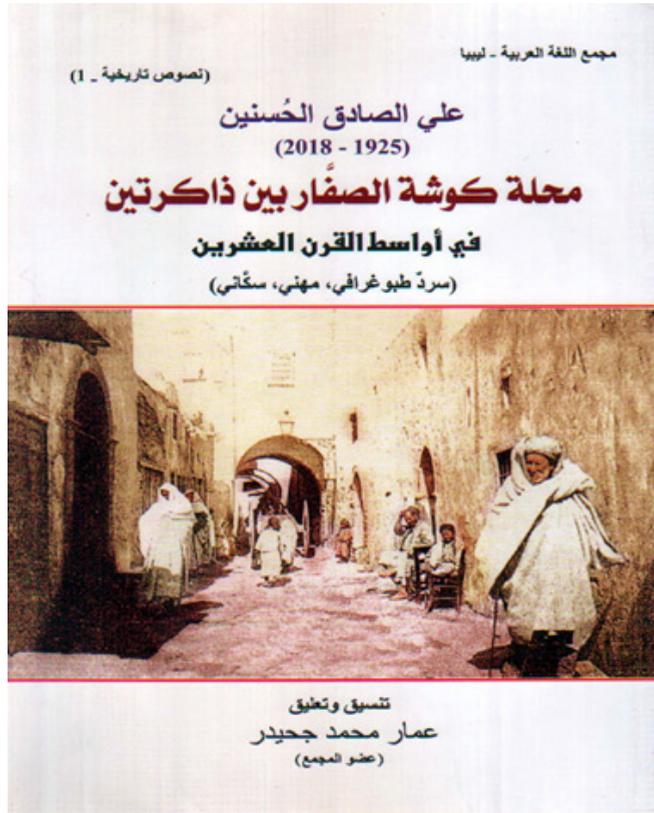
تنسيق النصّ المنشور/ والتعليق عليه

مثال تطبيقي:

محلة كوشة الصقّارين ذاكرتين في أواسط القرن العشرين: سردٌ طبوغرافي، مهني، سكاني (2019).

وهو ضربٌ آخر من ضروب (خدمة النصّ) المنشور، في هذه المحاولة التي أجريتها على النصّ السرديّ/ الطبوغرافيّ المعاصر، للأستاذ الجليل علي الصادق

الحُسَين - رحمه الله تعالى - وتجمع الخدمة هنا بين: (تنسيق النصّ في فقراتٍ مرقّمة/ والتعليق عليه بالحواشي اللازمة/ مع التقديم الدراسي الموجز). ويمكن الاستئناس إلى (مصادقية الخدمة) بنظرةٍ مقارنةٍ بين النصّ في أصله (المجرّد) المنشور في مجلة (تراث الشعب)/ وهذا النصّ (مخدوماً) في الكتاب المستقل. ومن الجليّ هنا أنّ (النصّ الثريّ) يفرز أمام الباحث المعنيّ به معطين مكمّلين، وهما: (الحواشي/ والفهارس). وقد أشار بعض الاخوة الأفاضل إلى هذه المحاولة على أنّها من (التحقيق) المعتاد في نشر النصوص، وهو ما يُستشَفُّ منه في هذا السياق أنّ مفهوم (التحقيق) المألوف، غير مقصور على النصوص المخطوطة التي لم تنشر، إذ قد يتجاوزها أيضاً إلى معالجة النصوص المنشورة - كما ترى في هذا المثال.

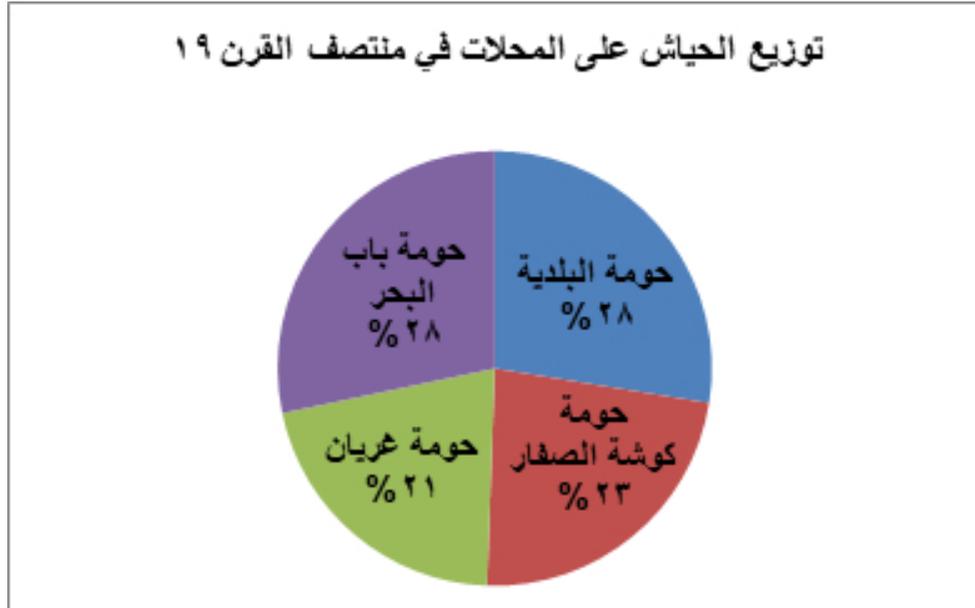


## مثال طبوغرافي مقارنة

توزيع «الحياش»/ المنازل على المحلات في منتصف القرن 19

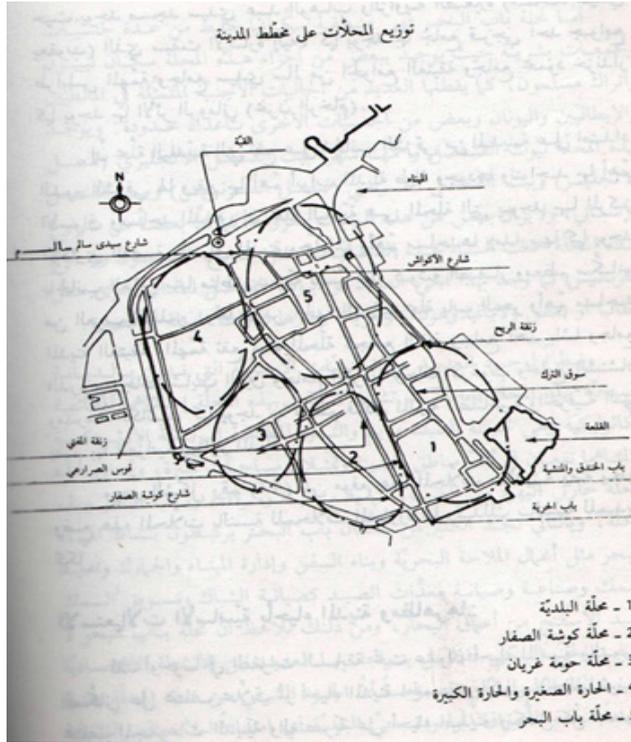
النسبة المئوية	عدد الحياش	المحلة
28 %	365	حومة البلدية.
23 %	305	حومة كوشة الصفار.
21 %	280	حومة غريان.
28 %	375	حومة باب البحر.
100	1325	المجموع.

عن إحدى اليوميات الليبية: الجزء الثالث/ السبت 12 محرم 1267هـ. (1850م)



يمكننا عند التأمل ملاحظة التقارب الجلي بين المعطيات القديمة في الرسم البياني (منتصف القرن 19)،

والخريطة الطبوغرافية التالية المعاصرة لمحلات المدينة (أواخر القرن 20).



توزيع المحلات على خريطة معاصرة

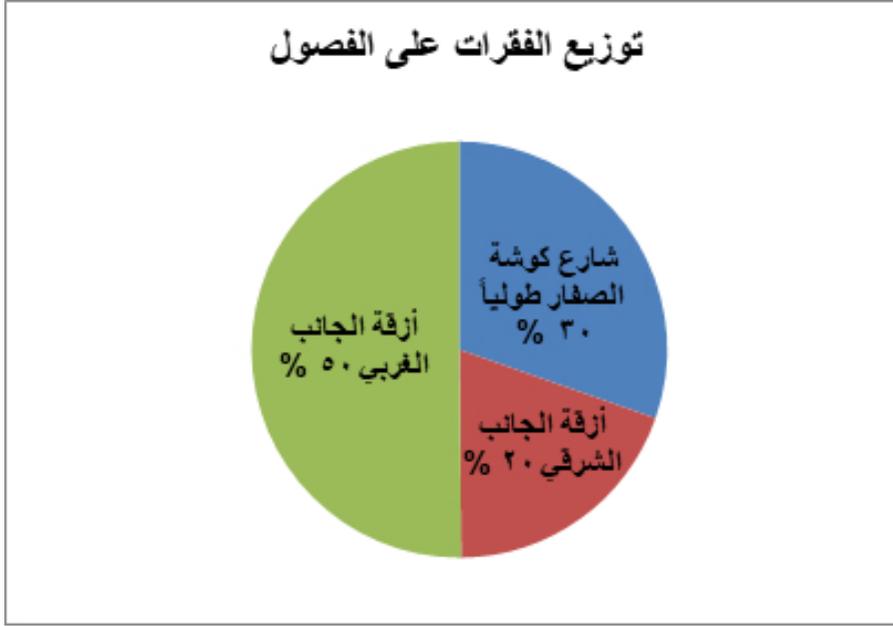
عن: المهندس علي الميلودي عمورة

طرابلس: المدينة العربية ومعمارها الإسلامي (دار الفرجاني 1993).

### توزيع الفقرات بين الفصول

النسبة المئوية	المجموع	الفقرات	الفصل
30 %	112	112 - 1	شارع كوشة الصفار طولياً.
20 %	72	184 - 113	أزقة الجانب الشرقي.
50 %	185	369 - 185	أزقة الجانب الغربي.
100	369	...	المجموع.

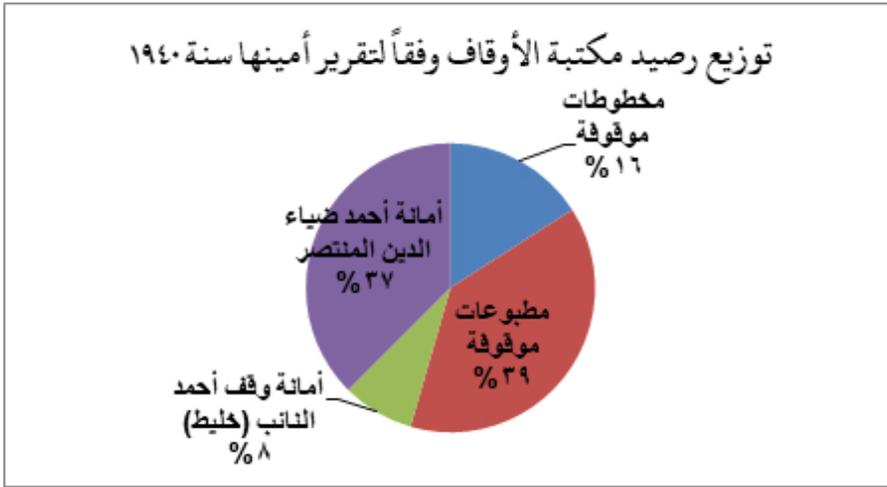
(من إجراءات التنسيق)



### توزيع رصيد مكتبة الأوقاف وفقاً لتقرير أمينها سنة 1940

النسبة المئوية	العدد	الفئة
16%	729	مخطوطات موقوفة
39%	1764	مطبوعات موقوفة
8%	368	أمانة وقف أحمد النائب (خليط)
37%	1716	أمانة أحمد ضياء الدين المنتصر
100	4577	المجموع

(نقلًا عن إحدى الحواشي المزيدة في خدمة النص)



عمارة الأوقاف بميدان الشهداء التي كان بها مقر المكتبة (1936 - 1978) وهي أبرز معالم ثقافي بمدينة طرابلس في أواسط القرن العشرين، وقد هُدم المبنى في السنة المذكورة، مع الأسف الشديد.

وهكذا يمكن القول بإيجاز إنَّ خدمة النصِّ في هذا المثال التطبيقي، (مع إشارة مقارنة)، قد استندت إلى المعطيات التالية:

- 1 - توزيع النصِّ إلى فقرات مسلسلة: (بأرقام وسطى بارزة).
- 2 - العديد من الحواشي / والإضاءات المزيّدة المتفاوتة.
- 3 - ثلاثة جداول / وثلاثة رسوم بيانية راصدة.
- 4 - خريطة (طبوغرافية) معاصرة؛ للمقارنة.
- 5 - لوحة فوتوغرافية دالّة.

وقد فاتني - مع الأسف - أن أضيف في هذا السياق ملحقاً إجرائياً أساسياً مألوفاً في (خدمة النصِّ)؛ وهو يتمثل فيما يفرزه من الفهارس والكشافات اللازمة، وقد ذكرت في أكثر من سياقٍ أن: (الفهارس مرآة النصِّ)، وسألت الله تعالى في نهاية التقديم هناك، أن يضطلع بإعدادها أحد الباحثين الشباب في طبعةٍ لاحقةٍ للكتاب.

(7)

### دراسة النسيج النصيِّ في الأثر المنشور

#### مثال تطبيقي:

الجزء الأول من المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (استانبول 1317 / 1899).

بدأ المؤرخ أحمد النائب الأنصاري مشروعه التاريخيَّ بالتوجُّه أولاً نحو التراجم/ أو التاريخ الثقافي، على وجه الخصوص، في (نفحات النسرین)؛ ثم بدأ له فيما بعد أن يتجاوز هذا العمل الأوَّليَّ الذي (تركه) على ما كان عليه في (طور التقميشتات/ أو المخطوط التكويني)، إلى المنهل العذب الذي جمع في نسيج مغايرٍ بين (التاريخ السياسي: في الأحداث والوقائع/ والتاريخ الثقافي: في التراجم). ولذا أعددتُ

لهذا الكتاب جدولين تحليليين؛ أحدهما للتراجم، والآخر للنسيج المتداخل في بناء النص.

### (أ) جدول التراجم:

يتيح لنا هذا الجدول أن نقف على المزيد من الملاحظات المماثلة التي تعين على متابعة عمل المؤرخ في هذا الشقِّ الثقافي من كتابه من خلال النقاط التالية:

1 - اقتصر عدد التراجم في (المنهل الأول) على (80) ترجمة؛ منها (51) أخذت من النفحات، و(29) ترجمة مزيدة، (المجموع 80) ترجمة.

2 - اختُصرت النصوصُ في بعض التراجم المنقولة عن النفحات....، في حين ظلَّت الكثير من النصوص مطابقةً لأصولها السابقة....

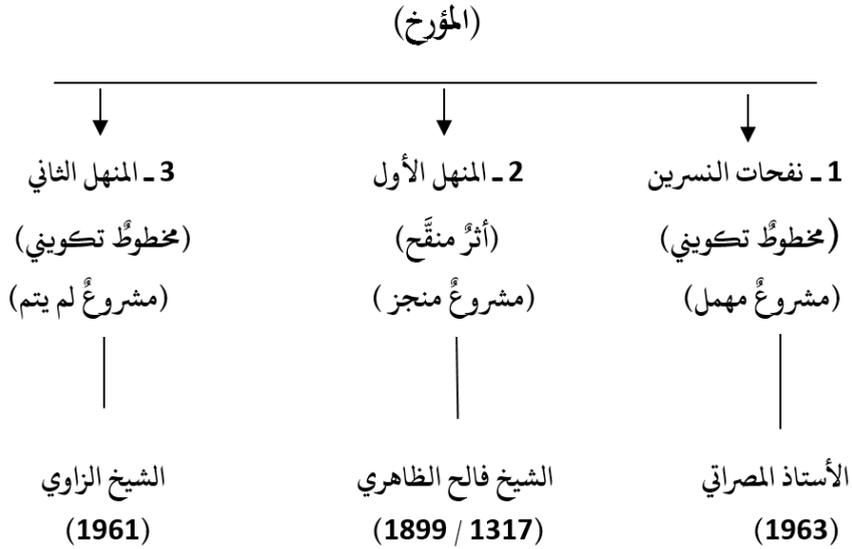
3 - أُدرجت جُلُّ التراجم وفقاً للوفيات مراعاةً للتسلسل الزمنيِّ المطرد في نسيج جامع بين (الأحداث/ والتراجم)، ويبدو التسلسل هنا في خانتي (الوفيات/ والقرون)، باستثناء بعض التراجم التي رُتبت على نحوٍ مغايرٍ (كما تقدّم في الخلاصة هناك).

4 - تلفتُ النظر في تراجم المنهل العذب ابتداءً عودته إلى مصدرٍ مزيدٍ على ما تقدّم في النفحات؛ وهو (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان). ومع الدلالة الجليّة لعنوان الكتاب على محتواه، فقد تسرّع الأنصاري في اقتباس عددٍ من تراجمه؛ استناداً إلى ظاهر النسبة الجهوية في أسمائهم دون تحقيق...الخ.

### (ب) نسيجُ بناءِ النصِّ في الجزء الأول من المنهل العذب:

تدلُّ مجمل المعطيات التي حُشدت في هذه الدراسة على أنّ المؤرخ لم يصدر له أيُّ أثرٍ من آثاره المعروفة الثلاث (النفحات، المنهل الأول، المنهل الثاني)، وفقاً لرؤيته/ وصياغته المستقلة الخاصّة، وإنّما شاركه في إصدارها (على ما ظهرت عليه) ثلاثة من العلماء المعنيين

بها على هذا النحو الموضح في الشكل التالي:



وسأكتفي في هذا العرض الموجز بالإشارة إلى جدول تصنيفي مطوّل لنسيج بناء النص من أول الكتاب إلى آخره، في الأعمدة التالية: [1 - الصفحات / 2 - الخلافة / 3 - الولاية / 4 - التراجم / 5 - السنوات].

**نسيج بناء النص في الجزء الأول من المنهل العذب (نموذج منه)**

الصفحات: قاعدة النسيج	الخلافة: التاريخ السياسي المركزي	الولاية: التاريخ السياسي المحلي	التراجم: التاريخ الثقافي المحلي	السنوات: التسلسل الزمني
289			الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الصادق (64).	(ت) 1138هـ
290			الشيخ عبد السلام بن عثمان (65).	(ت) 1139هـ

الصفحات: قاعدة النسيج	الخلافة: التاريخ السياسي المركزي	الولاية: التاريخ السياسي المحلي	التراجم: التاريخ الثقافي المحلي	السنوات: التسلسل الزمني
291	خلافة السلطان الغازي محمود خان الأول.			1143 هـ
291			الشيخ محمد بن العربي (66).	(ت) 1143 هـ
294		[رجع]: إلى أعمال أحمد باشا القرماني، ووفاته.		(ت) 1158 هـ
294		ولاية محمد باشا (القرماني).		1158 هـ
295			الشيخ سالم بن قنونو (67).	(ت) 1158 هـ
295		[رجع]: إلى معاهدة محمد باشا مع دولة الإنكليز.		1164 هـ
295	خلافة السلطان عثمان خان الثالث.			1167 هـ
296			العارف بالله تعالى الشيخ محمد الماعزي (68).	(ت) 1167 هـ
296		[رجع] - ولاية علي باشا قرماني.		1167 هـ

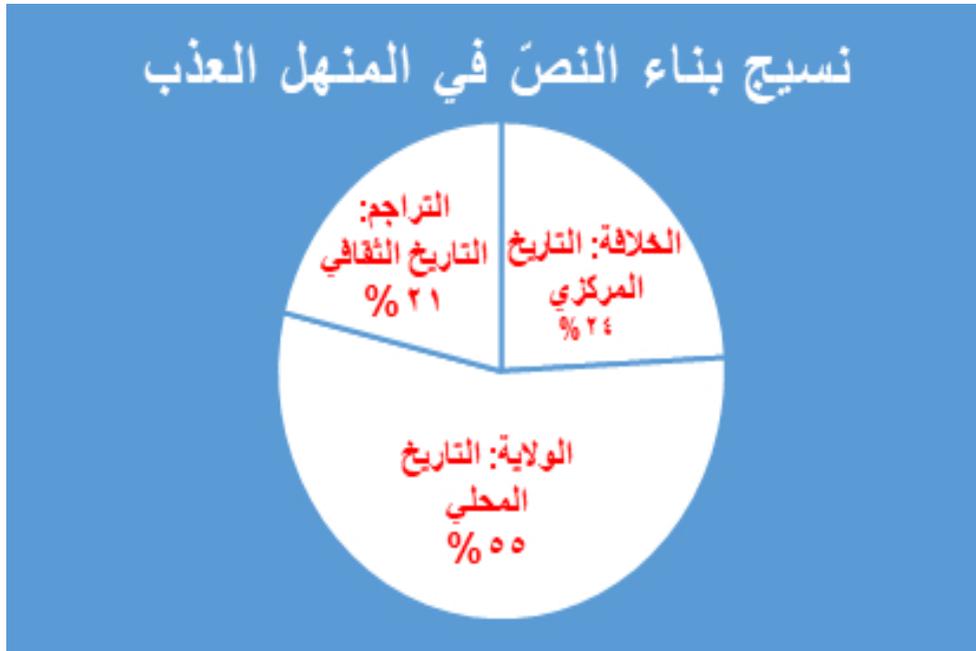
الصفحات: قاعدة النسيج	الخلافة: التاريخ السياسي المركزي	الولاية: التاريخ السياسي المحلي	التراجم: التاريخ الثقافي المحلي	السنوات: التسلسل الزمني
297	خلافة السلطان مصطفى خان الثالث.			1171 هـ
297		[رجع]: إلى معاهدة علي باشا مع جمهورية (البلنسيان) وما تلاها من بعض الوقائع البحرية.		1177 هـ 1179 هـ
298			الأستاذ أبو عبد الله محمد النعاس (69).	(ت) 1179 هـ
298	خلافة السلطان الغازي عبد الحميد خان الأول.			1187 هـ
299	خلافة السلطان الغازي سليم خان الثالث.			1203 هـ
299		[رجع]: إلى أواخر ولاية علي باشا وسوء حالته... والفتنة بين أبنائه.		- (1207 هـ)

ويتميّح لنا هذا الجدول، على وجه الخصوص، إجراء (ثلاث قراءات متوازية في

متون النصّ) الذي نَسَجَهُ المؤلّف «بجبكة متداخلة»، وقد تعمّدت حقّاً إضفاء صفة (النسيج) على هذا الجدول، إظهاراً لحركة الخيوط بين يدي (المؤلّف / الناسج)، وقد اشتبكت في خمسة خطوطٍ بين أنامله الخمس (!) فمنها خيطان رأسيان (رقميان) على الطرفين (للصفحات / والسنوات)، وثلاثة خيوطٍ أفقية متأرجحة متوالية بين (الخلافة / والولاية / والتراجم). ومن خلال هذه القراءات المتوازية نقف عياناً على نسب التوزيع بين هذه المحاور النصّية.

(مقاربة) التوزيع المئوي لمحاور نسيج النصّ في الجزء الأول من المنهل العذب

النسبة المئوية	عدد النصوص	المحور
24 %	91	الخلافة: التاريخ السياسي المركزي - وقائع.
55 %	206	الولاية: التاريخ السياسي المحلي - وقائع.
21 %	80	التاريخ الثقافي المحلي - تراجم.



## خاطرةٌ قلميةٌ

نسيحُ النصِّ في الجزء الأول من المنهل العذب: صَفِيرَةٌ من ثلاثِ (جَدَائِلِ)، في شَعْرِ صَبِيَّةٍ لَيْبِيَّةٍ باستانبول، في خاتمة القرن التاسع عشر، ولعلَّها إحدى بنات المؤرخ أحمد النائب الأنصاري: فاطمة (ت. بدمشق 30 - 5 - 1939)، وعائشة (ت. بدمشق، 13 - 5 - 1957)، وأمينة (ت. بدمشق 6 - 10 - 1960)؟! [انظر كتاب الندوة، ص 780 - 792].

## مراحل الفضاءِ الزمنيِّ / المكانيِّ لترجمة المؤرخ

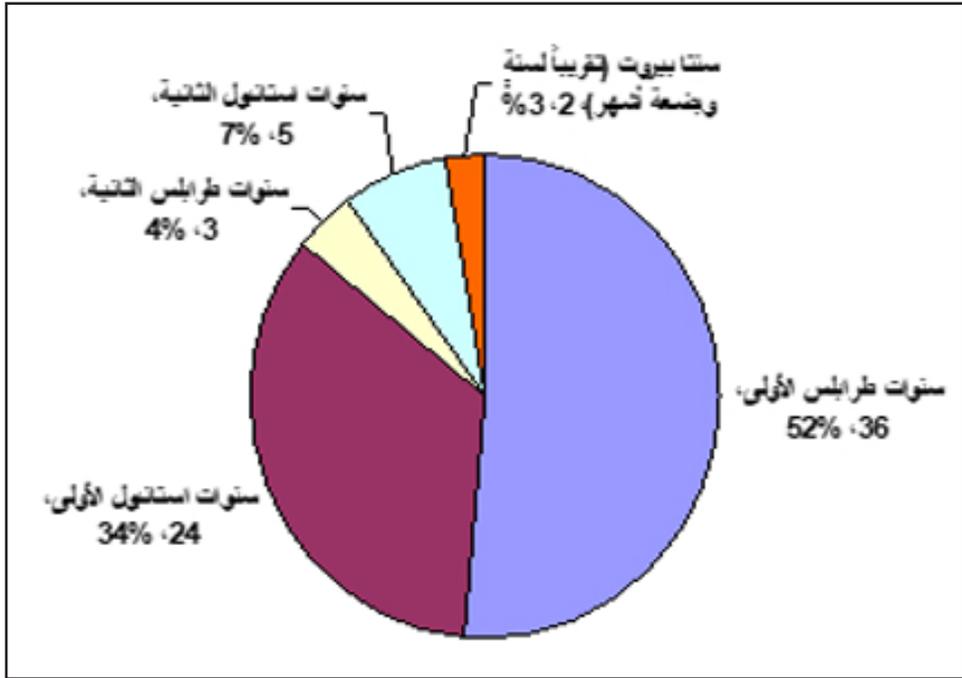
37هـ	1264 - 1301هـ	النشأة والمستقر: (سنوات طرابلس الأولى)	1
36م	1848 - 1884م	الهجرة الأولى: (سنوات استانبول الأولى)	2
25هـ	1301 - 1326هـ	العودة إلى الوطن: (سنوات طرابلس الثانية)	3
24م	1884 - 1908م	الهجرة الثانية: (سنوات استانبول الثانية)	4
3هـ	1326 - 1329هـ	التحوُّل إلى بلاد الشام: (سنتا بيروت)	5
3م	1908 - 1911م		
6هـ	1329 - 1335هـ		
5م	1911 - 1916م		
2هـ	1335 - 1336هـ		
2م	1917 - 1918م		

[انظر الوثائق التي بُنيَ عليها هذا الجدول في كتاب الندوة]



هل يمكن أن نستشفَّ من معطيات هذا (الجدول الزمني - المكاني / ورسمه البياني) تأثير البيئة الثقافية على ذهنية المؤرخ / وانعكاسها على (بناء النصِّ) في آثاره؟ ومن الجليِّ المرجَّح أنَّه جمع في ثبوت مصادره - على قدرٍ غير معلومٍ من التفاوت - بين خزائن المدن الثلاث.

\*\*\*



التوزيع المئوي لمراحل الفضاء الزمني / المكاني في ترجمة المؤرخ: (ترك ثلاثة نصوص، لكل واحدٍ منها صلةٌ ما بإحدى المدن الثلاث: طرابلس، استانبول، بيروت)؛ (وكل مدينة في قارّة!).



طبعة المؤلف للمنهل العذب (استانبول 1317 / 1899)

## الشقُّ الثاني من المقاربة الدراسية المخطوط التكويني

(1)

### نصوص مختارة من دراسة (النقد التكويني)

وهو منهجٌ نقديٌّ حديث، نُشرت عنه هذه الدراسة المطوّلة التي كتبها بيير - مارك دو بيازي، ضمن عملٍ جماعيٍّ قيّم. يقول الدكتور رضوان ظاها، مترجم الكتاب: «ونشير هنا إلى حداثة وأهمية النقد التكويني بمفهومه الحديث وأدوات استقصائه العلميّة الجديدة في التعرُّض للمخطوطات الأدبية ومسوّدات الأعمال التي يتركها الكاتب. فلقد تسمّى لكاتب هذه السطور مؤخراً (في شتاء 1994) حضور حلقات عملٍ مجموعةٍ من الباحثين بالنقد التكويني (كان من بينهم بيير - مارك دو بيازي كاتب فصل النقد التكويني في هذا الكتاب ... وغيره)، وتبيّن له أهمية هذه المقاربة وخصبها في مجال تحقيق النصوص وتأويلها على السواء في النقد الغربي اليوم»<sup>(1)</sup>.

وأكتفي منها بالسطور التالية<sup>(2)</sup>: «ولقد ساهمت أهمية الأبحاث التكوينيّة النصّيّة حول ملفات عددٍ من كبار الروائيين (بروست، بلزاك، زولا، الخ...)، ونشر وثائق مهمّة في تكوّن العمل الأدبي تتعلّق بأعمالٍ سرديّة (مسوّدات، دفاتر عمل أو دفاتر استقصاء، ملفات تمهيدية ..)، بشكلٍ كبيرٍ في تزويد علماء السرد بأدواتٍ ماديّة للتفكير تتصل بمنهجهم وبغرضهم. «وحالة فلوبير» وحدها كانت بمنزلة «اختبار»

(1) بيير - مارك دو بيازي، «الفصل الأول: النقد التكويني»، ضمن الكتاب الجماعي: (مدخل إلى مناهج النقد الأدبي)، تأليف: مجموعة من الكتاب، ترجمة د. رضوان ظاها، مراجعة د. المنصف الشنوفي، الكويت (سلسلة عالم المعرفة 221)، 1417هـ / 1997م، ص 15 - 58. وخاصة ص 9.

(2) المصدر نفسه، ص 49.

## للعديد من التجارب النظرية التي نرى اليوم نتائجها المنهجية»<sup>(1)</sup>.

(1) أود الإشارة في هذا السياق الموجز إلى الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: جدّة هذا المذهب النقديّ على اللغة العربية؛ فقد خصّص الباحث المغربيّ المعنيّ بالنقد الأدبيّ الدكتور جميل حمداوي فصلاً من كتابه للنقد التكويني، وهو يذكر أنّه يُسمّى أيضاً النقد التوليدي، والنقد الجيني، وقد اختتم الفصل بالسطور التالية: «وإذا كان النقد الغربي قد تمثّل هذا المنهج التكويني والجيني بشكلٍ لافتٍ للانتباه، فإنّ النقد العربي المعاصر لم يلتجئ إلى هذه القراءة التكوينية بعد بشكلٍ تراكميٍّ مقبول، بغية معرفة كيف (تولد النصوص) في أدبنا العربي القديم والحديث والمعاصر...». الدكتور جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، (نشرة رقمية بموقع: جامع الكتب الإسلامية، تاريخ المقدمة: 1 نوفمبر 2011، وفيها يشير إلى أنّ مرحلة ما بعد الحداثة توافق: ما بين سنوات السبعين وسنوات التسعين من القرن العشرين)، الفصل التاسع عشر: النقد التكويني، ص 359 - 372.

الملاحظة الثانية: غياب العناية غالباً بحفظ النصوص والملفات التكوينية في تراثنا الأدبي العربي المعاصر؛ فقد استوقفتني من جهةٍ أخرى مقالةً طريفة بعنوان (مصير المسودّات)، ظهرت بصحيفة (أخبار الأدب) سنة 2010، وشدّتني آنذاك إليها لصلتها الجليّة بمصطلح (المخطوط التكويني) الذي أنشغل به. وفي هذه المقالة حالتان مختلفتان من الأدب المصري المعاصر:

(أ) - مسودّاتٌ ضائعة: للأديب الروائي نجيب محفوظ، لم تنل بعد طبعها في بعض دور النشر ما تستحق من الحفظ والعناية.

(ب) - اهتمام شخصيٍّ بالغ: بمسودّات الكاتب الأديب عبده جبير؛ إذ كان يخصّص لكل عمل يكتبه حافظة خاصة به يحتفظ فيها بكل ما يتصل بتطور العمل، منذ أن كان فكرة حتى اكتماله. أحمد وائل، «مصير المسودّات»، صحيفة أخبار الأدب، العدد (903 / 7 - 11 - 2010).

الملاحظة الثالثة: أنّني على مستوى الحراك الناقي البسيط؛ حاولت التطرّق إلى هذا الإجراء النقدي في دراستي عن (التليسي مؤرخاً)، في سياق (ترتيب الإنجاز وفق المقدمات المؤرّخة) لمجمل آثاره المنشورة: «غير أنّني أودّ التذكير في هذا المقام أيضاً، بأنّني اكتفيت اضطراراً بالمعطيات المنشورة المتاحة في (المقدمات المؤرّخة)، وهي لا تكفي وحدها، في واقع الأمر، لمزيدٍ من التعمّق في مثل هذه المتابعة التي تتطلّب العودة إلى: (مكتبة المؤرخ، وأرشيفه الثقافي، وما يضمّه من المسودّات، والملفات البحثيّة، والخطاطات الأوليّة، والكُتّابات، والملاحظات، والخواطر والمذكرات، والرسائل الشخصية)، وما إليها من وثائق التجربة الذاتيّة؛ وهي جميعاً سبيلنا الوحيد إلى استخلاص ما يُسمّى بـ(المخطوط التكويني) الذي يُعنى بمتابعة (نشأة النصّ) وتطوّره في ذهن المؤلف، في حين يظلم (المخطوط التحقيقي) المعروف المتداول في المكتبات العامة والخاصة بمهمّة (بناء النصّ) عند تحقيقه ونشره؛ استناداً إلى ما يتوفر من نسخته الكاملة غالباً». وقد ورد في الحاشية هناك أيضاً: «أودّ أن أشير في هذا السياق من المقاربة البحثيّة إلى أنّني حرصت قبيل الفراغ منها على العودة إلى أسرة المؤرخ - رحمه الله تعالى - راجياً إتاحة

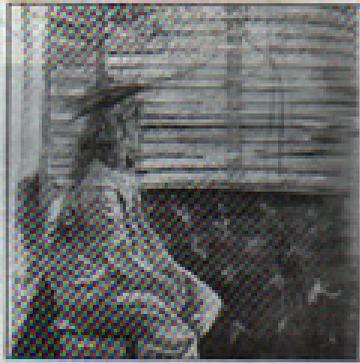
الفرصة لزيارة مكتبته، وإلقاء نظرة عاجلة - على الأقل - على بعض الأصول المخطوطة لأعماله التاريخية، وما يتعلّق بها من وثائق أرشيفه الشخصي، إذا وُجدت مثل هذه الوثائق، ولكنّ الفرصة لم تُتَّح مع الأسف الشديد. 18 - 10 - 2010». عمار محمد جحيدر، التليسي مؤرخاً [1930 - 2010: مقارنة أوليّة]، طرابلس: دار الفرجاني، 2018، ص 157 - 158.

الملاحظة الرابعة: تنبغي الإشارة في هذا السياق أيضاً إلى وجود (مخطوط تكويني)، يُهمل غالباً في كل رسالة ماجستير جادّة / وأطروحة دكتوراه رصينة، دون أن ننتبه إلى أهميّة ذلك، فإذا كانت النسخة الأخيرة المعتمدة للمناقشة من الرسالة أو الأطروحة تمثل / أو تقابل، (المخطوط التحقيقي) في هذا المقام الذي تُتاح له غالباً فرصة النشر (بعد إجازة الرسالة أو الأطروحة)، فإنّ (المخطوط التكويني) الغائب عنها، هو ذلك (الملفّ الافتراضي) الجامع لكلّ تلك الحطّاطات، والأحلام والتطلّعات، والصياغات الأوليّة، ومقترح الدراسة البدئيّ الأوّل، وثبت محتواها النظريّ المؤمّل، وقائمة مصادرها المتنامية، وملاحظات الأستاذ المشرف وتوجيهاته، وعودة الباحث وتصويباته على السحب الورقيّ الأوّل، وما يفيض به الخاطر من الإشارات المزيدة على بياض الصفحات الخلفية عادة في تجارب الطبع، ثم السحب الثاني الذي يليه... الخ، إلى أن تكتمل الرحلة البحثية الحميمة، وتؤول إلى (المخطوط التحقيقي) المذكور أعلاه!

الملاحظة الخامسة: تتعلّق بالبداية المبكرة للعناية بحفظ الأصول والمخطوطات التكوينية «في ألمانيا منذ أواخر القرن الثامن عشر، ثم توطّدت في فرنسا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، لتنتشر بعد ذلك في معظم الدول الأوروبية التي أخذت، منذ النصف الثاني منه وحتى أيامنا هذه، تزود مكاتبها بأقسام للمخطوطات المعاصرة، وتجمع حشداً ضخماً من «المعطيات» المادية عن الإبداع الأدبي المعاصر. عن: فصل النقد التكويني في كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص 18.

### مبدعون يطالبون بالحفاظ عليها كثروة قومية

## مصير المسودات



artist:shorouh

المسودات يشكلن النسبة الأكبر من إنتاج مصمميها على الرغم من أنها تفتقر إلى القيمة المضافة من الجانب الفني الذي تتميز به المسودات الغربية من حيث التصميم والمواد المستخدمة في تصنيعها. وتعتبر هذه المسودات من أهم الثروات القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصممين والمصنّعين يترددون في استثمار الأموال في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

بعد النشر في عدد المسودات، بدأنا نلاحظ اهتماماً متزايداً من قبل المصنّعين والمصنّعات في تصنيع المسودات، وهو ما يعكس وعياً أكبر بأهمية هذه المنتجات القومية. ومع ذلك، لا يزال الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

المسودات قبة قومية - حسب وصفه البركاني مهندي المسودات، والذي أنفق الكثير من وقته في تصنيعها، فإنها ليست مجرد قطعة قماش، بل هي نتاج ثقافة وتاريخ مصر العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

### أحمد وائل

المسودات هي الثروة القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

المسودات هي الثروة القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

### حكايات من طيحات مطر

المسودات هي الثروة القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

### سيرة في مصر

المسودات هي الثروة القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

المسودات هي الثروة القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

المسودات هي الثروة القومية التي يجب الحفاظ عليها لأنها تمثل هوية المجتمع المصري وتاريخه العريق. ومع ذلك، فإن الكثير من المصنّعين يترددون في الاستثمار في تصنيعها، مما يؤدي إلى اختفاء الكثير من المبدعين الذين يمتلكون أفكاراً إبداعية. لذلك، يجب أن تكون هناك سياسات تشجيعية من الحكومة لدعم المصنّعين والمبدعين في تصنيع المسودات، مما يساهم في الحفاظ على التراث الثقافي المصري وتعزيز الاقتصاد المحلي.

صحيفة أخبار الأدب (7-11-2010) / (عن: مسودات الأعمال الأدبية)

## اقترح المصطلح:

وقد وقفتُ على هذا الكتاب القيّم (مدخل إلى مناهج النقد الأدبيّ) قبل عشرين عاماً، واقتنيت نسخة منه بتاريخ (5-10-2000)، وكنتُ آنذاك منشغل ذهن حقاً منذ سنواتٍ، بآثار المؤرخ أحمد النائب الأنصاري، وأستشعر هذا التفاوت المنهجيّ الجليّ بين نصوصها المنشورة، لذا حرصتُ على الاستفادة من هذا الدرس النقديّ الرصين، ونقله من (سياقه الأدبيّ الإبداعيّ) إلى دراسة النصوص التاريخيّة التليفيّة) - على وجه الخصوص، واقترحت مصطلح (المخطوط التكويني) للاستعانة به في تتبّع (نشأة النصّ) في ذهن المؤلف وصياغاته الأولى. ولم يرد هذا المصطلح المقترحُ الجديدُ في ذلك العمل المعجمي الرائد عن (مصطلحات المخطوط العربيّ)، للعالم الجليل الدكتور أحمد شوقي بنين - وتلميذه الباحث النجيب الدكتور مصطفى طوي، (في طبعته الثالثة 2005)، وقد جاء فيه عن المخطوط اثنان وعشرون مصطلحاً: (المخطوط الأصليّ، والجامعي، والحديث، والخزائني، والدعي، والعربي الإسلامي، والعربي المسيحي، والعلمي، والفريد، والكرشوني، والمبتور، والمبتور الأول، والمبتور الأول والآخر، والمبهم، والمرحلي، والمصوّر، والمؤرّخ، والمطلق، والمنسوب، والنادر، والهجين، والمخطوطات القيّمة»<sup>(1)</sup>.

وغاب عنها (المخطوط التكويني) - كما ترى<sup>(2)</sup>.

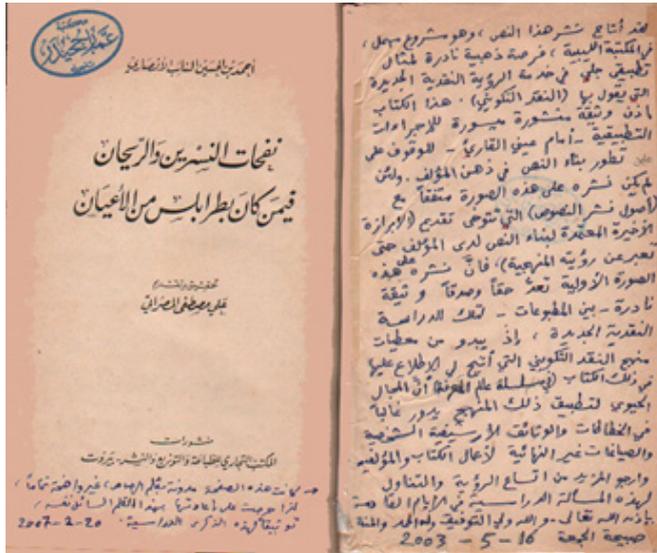
(1) الدكتور أحمد شوقي بنين / والدكتور مصطفى طوي، معجم مصطلحات المخطوط العربيّ: (قاموس كوديكولوجي)، ط 3 الرباط: الخزانة الحسنية، 2005.

(2) تنبغي الإشارة هنا أيضاً إلى هذه الظاهرة الجديدة؛ وهي (ذهاب المخطوط التكويني)؛ وأكتفي بما دوّنته سابقاً في السطور التالية: «ولئن كانت الصفحات الأولى [من هذا الحوار] محرّرة بقلمي قبل الطباعة، فقد آل الأمر أخيراً إلى الكتابة رأساً على (شاشة الحاسوب) ... مستفيداً كغيري مما تتيحه هذه الآلية من التصويب .....، غير أنّ هذه التجربة الجديدة المفيدة سرعان ما أشعرتني بذهاب تلك (الخصوصية القلمية) الأثيرة المعتادة التي يُنسج من خلال (مسودّاتها، وزياتها، وتشطيباتها، وصياغاتها المتعددة أحياناً) ما يُعرف في بعض مذاهب النقد الأدبي بـ(نشأة النص). ومن الجليّ هنا أنّ ما تتيحه الكتابة الآلية الجديدة من الإمكانيات الميسرة المباشرة للحذف والتنقيح والتصويب والإضافة، لا تُبقي - في آخر الأمر - سوى صيغة

## (2)

## نفحات النسرين: (مخطوط تكويني / أ. مشروع مهمل)

تبين جلياً من (مجلد القرائن) أنّ المؤرخ أحمد النائب الأنصاري قد شرع في مشروعه التاريخي أولاً بـ (نفحات النسرين) الذي تدلُّ مجمل المعطيات التحليلية على أنّه (مخطوط تكويني) يضمُّ (أشثاتاً) من النصوص المقتبسة من هنا وهناك، دون أيّ تنسيق يُذكر، وقد ظلَّ هذا الجهدُ الأوَّلُ على هذه الصورة ولم يتجاوز مرحلة (التقميش). غير أنّي لم أتمكن بعد - رغم هذا الجهد والتأني - من الوقوف على أيّة قرينة قاطعة تثبتُ بجلاءٍ أنّه (بدأ) تقميشات النفحات هنا بطرابلس في يومٍ ما، أو أنّ شيئاً من هذا لم يحدث إلى أن استقرَّ به المقام هناك باستانبول؟ وسيردُّ من الملاحظات أدناه ما يدلُّ على أنّ القسم الأخير من النفحات على الأقل قد جُمعت مادّته هناك حقاً، ولكنَّ منطلق (البداية) لا يزال مجهولاً؟



النص الأخير المحرَّر الذي لا يفصح بالضرورة عن ظروف نشأته. ومع ذهاب (الكتابة اليدوية) ستغيب مع الوقت تلك المسوِّدات والمخطوطات الذاتية المألوفة. عمار محمد جعيدر، أطيف من تاريخ ليبيا الحديث ومؤرخيه: حوار محرَّر (قورينا 2008)، طرابلس: دار ممداد للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، ص 8 - 9.

## خواطر بحثية على نسختي من نفحات النسرین (2003):

[لقد أتاح نشر هذا النصّ، وهو مشروع مهمل في المكتبة الليبية، فرصة ذهبية نادرة لمثال تطبيقيّ جليّ في خدمة الرؤية النقدية الجديدة التي يقول بها (النقد التكويني). هذا الكتاب إذن وثيقة منشورة ميسورة للإجراءات التطبيقية - أمام عيني القارئ - للوقوف على تطور بناء النصّ في ذهن المؤلف. ولئن لم يكن نشره على هذه الصورة متفقاً مع (أصول نشر النصوص) التي تتوخى تقديم (الإبرازة الأخيرة المعتمدة لبناء النصّ لدى المؤلف حتى تعبر عن رؤيته المنهجية)، فإنّ نشره على هذه الصورة الأولية تُعدُّ حقاً وصدقاً وثيقة نادرة - بين المطبوعات - لتلك الدراسة النقدية الجديدة، إذ يبدو من معطيات منهج النقد التكويني التي أُتيح لي الاطلاع عليها في ذلك الكتاب (في سلسلة عالم المعرفة) أنّ المجال الحيوي لتطبيق ذلك المنهج يدور غالباً في الخطاطات، والوثائق الأرشيفية الشخصية، والسياسات غير النهائية، لأعمال الكُتّاب والمؤلّفين. وأرجو المزيد من اتساع الرؤية والتناول لهذه المسألة الدراسية في الأيام القادمة - بإذن الله تعالى، والله ولي التوفيق، وله الحمد والمنّة. صبيحة الجمعة 16 - 5 - 2003].



## موالاة العناية بالمؤرخ وآثاره:

وقد توالّت عنايتي بالمؤرخ وآثاره، تدريجياً، حتى شكّلت (عفوياً) كتاباً مستقلاً من الفصول التالية:

الفصل الأول: الترجمة الرسمية للمؤرخ من مولده بطرابلس إلى خروجه من الوظيفة باستانبول (1264 - 1326هـ / 1848 - 1908م) (1).

(1) حرّر الفصل الأول باستانبول (1995)، ونُشر منفرداً بعنوان: «من تاريخ ليبيا الثقافي في أواخر العهد العثماني: ترجمة المؤرخ أحمد النائب الأنصاري» في: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية (تونس) العدد 16 - 15 (أكتوبر / نوفمبر 1997) عدد خاص: (تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي) - رحمه الله تعالى.

الفصل الثاني: تَتَمَّةٌ توثيقيةٌ / السنوات الأخيرة في حياة المؤرِّخ من عودته إلى طرابلس - إلى وفاته في بيروت ( 1326 - 1336هـ / 1908 - 1918م) مع بعض الإشارات إلى فروع أسرته حتى اليوم (طرابلس 2007) (1).

### الفصل الثالث: رؤية نقدية جديدة في آثاره.

وفيه متابعة وافية، وقد نُشرت خلاصة موجزة لها ضمن أعمال الندوة، كما أُدرجت هنا خلاصات مختارة لبعض معطياتها في الصفحات التالية من هذه المقاربة الدراسية. وأسأل الله تعالى تيسير تحريره الختامي، ونشر هذا الكتاب المؤمل على النحو المشار إليه. وإنني لأرجو أن تُجمَع فصوله المتفرقة تحت العنوان التالي: المؤرخ أحمد النائب الأنصاري: عودةٌ توثيقيةٌ إلى سيرته / ورؤية نقديةٌ في آثاره.



### سماتُ الجدول التحليلي:

يتشكّل الجدول التحليلي لتراجم النفحات من العناصر التالية:

- 1 - الأرقام المسلسلة للتراجم التي تغدو في هذه الدراسة النقدية معبرةً عنها في كل (الإحالات) التوثيقية اللاحقة.
- 2 - أسماء التراجم التي تُعدُّ صورةً مدققةً من قائمة (المحتوى) كما ترد في سياق الكتاب.

3- الوفيات / والقرون التي تليها لتدلّ عياناً على اضطراب الترتيب وغياب التسلسل

(1) أُلحقت التتمة استكمالاً للكتاب الذي نُشرت فيه أعمال الندوة التي نظّمها مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية في الذكرى المئوية لصدور المنهل العذب (1999)، وصدر الكتاب سنة (2008) في 816 صفحة، جامعاً لكل جلسات الندوة، وجميع مناقشاتها، مع هذه التتمة المزيّدة.

الزميني (مع غياب الترتيب على الحروف أيضاً) في تراجم النفحات.

4- المواضع (الصفحات) في الكتب الثلاث (النفحات/ المنهل 1/ المنهل 2)؛ لبيان التكرار فيما بينها، وإتاحة الفرصة للمقارنة بين النصوص هنا وهناك.

5- إدراج المصادر (في النفحات خاصة)؛ للتوثيق وتيسير العودة إلى الأصول التي جُمعت منها هذه (التقميشتات). وتتيح هذه الخطوة الإجرائية فرصة الوقوف على (حرفية التقميشت) في هذه النصوص التي لا تعود إلى (تحرير) المؤلف / المؤرخ (وهو هنا ناسخ)، ولا تدلّ على (لغته) في أوائل القرن (14هـ)، وإنما هي مزيجٌ متفاوتٌ من الصياغات اللغوية في عدّة قرون. كما تتيح العودة إلى ما نُقل منها إلى المنهل العذب من جهةٍ أخرى، فرصة الوقوف على صنيع المنقح الشيخ فالح الظاهري؛ بالمقارنة بين نصّي الترجمة في الموضعين، ومدى ثبات النصّ / أو تحويره في سياقه (الدراسي) الجديد؟

6- وأخيراً خانة (الملاحظات)؛ لإدراج المزيد من المعطيات التحقيقية والخطوات الإجرائية التي تعين على ضبط هذا النصّ التكويني، وإظهار ملامحه، والاستفادة من مجمل الإشارات في دراسة نشأته: [بين ذهن المؤلف / وصياغاته الأولية]. وقد قادتني هذه الخطوات التحليلية / الإجرائية نفسها إلى الوقوف على عددٍ من الملاحظات المهمة التي تؤكد (عياناً) ما كان يشغلُ الذهن ويملأُ النفس من معطيات هذه الرؤية النقدية الجديدة لآثار المؤرخ.

\*\*\*

### مجمل المعطيات الكميّة:

وخلاصة القول إنّ في كتاب النفحات (كمياً) ما يلي:

- 136 ترجمة، أو شبه ترجمة (إشارة).

- 5 فقرات (تراجم) محذوفة في الأصل المخطوط (تُرِدُّ في الجدول بعد الفقرات

التالية: 6، 11، 14، 53). وقد تجاوز الأستاذ المصراقي هذه الفقرات المحذوفة في نشرته دون

أن يشير إليها في (مقدمة التحقيق) المطوّلة.

- 8 تراجع/ فقرات مكرّرة (تَرُدُّ في الجدول تحت الأرقام التالية: 5، بعد 46، 49، 50، 52، 53، 101، 107).

على أنّه ينبغي التنبيه في هذا المقام إلى الدلالة النسبيّة المتفاوتة للأرقام، وذلك أنّ الكثير من هذه النصوص موجزةٌ جداً؛ لا ترقى إلى مفهوم الترجمة، كما أنّ بعضها إشاراتٌ مجرّدةٌ إلى الأسماء فقط. ولكنّ هذه الضالّة في حجم النصّ أو الإشارة، قد تبعثُ - عند تحقُّق صلتها بتاريخنا الثقافي وخلوّها من الوهم - على المزيد من البحث والتقصّي في مختلف المصادر.



### النسبة الوهمية/ غير المحقّقة لبعض التراجم:

كما حرصت في هذه الدراسة النقدية - وهي قراءةٌ أوّليّةٌ عامّةٌ في تاريخنا الثقافي - على التنبيه إلى مَنْ تسرّع المؤرخ في إدراجهم ضمن علماء طرابلس (ليبيا) / أو أعلامها، دون تثبُّتٍ أو تحقيقٍ، وهو ما كان سبباً في شيوع هذه النسبة في بعض الأعمال اللاحقة، وهم على وجه الخصوص<sup>(1)</sup>:

- 1- علي بن زياد (3).
- 2- عبد الله بن محمد الأعمش (11).
- 3- أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطن (22).
- 4- أبو القاسم حاتم بن محمد الطرابلسي (24).
- 5- محمد بن عبد الرحمن الحطّاب؛ خلط بين اسمين (46).

(1) وضعتُ أخيراً العنوان الدرسيّ النقديّ التالي لهذه المسألة: «المؤرخ أحمد النائب الأنصاري/ وإشكالية النسبة الوهميّة في تاريخ ليبيا الثقافي».

6 - محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطّاب (54).

7 - يحيى بن محمد الحطّاب (65).

8 - محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري (85).

\*\*\*

### أخطاء الوفيات:

تسنّى لي بالمراجعة الوقوف على أخطاء المؤرخ في ضبط (الوفيات) في التراجم التالية:

- 1 - عبد الوهاب القيسي (31).
- 2 - إبراهيم بن الإجدابي (34).
- 3 - عمران بن موسى بن معمر الهواري (38).
- 4 - عبد الوهاب بن محمد الهنزوتي (39).
- 5 - علي بن عبد الله بن مخلوف (40).
- 6 - أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري، يبدو أنّ تاريخ وفاته تُرك سهواً؟ (43).
- 7 - محمد بن عيسى بن بقاء الأنصاري (56).
- 8 - عبد الرحمن بن أحمد التاجوري (57).
- 9 - محمد بن سعيد الهبري (73).
- 10 - مصطفى خوجه (94).
- 11 - محمد بن خليل بن غلبون (116). [بل لم يضبط التاريخ بسنة محدّدة...].
- 12 - علي بن موسى (117).

\*\*\*

## إشاراتٌ مهمّة:

وقد أتاح لي الاستغراق في إعداد هذا الجدول النقديّ التحليليّ الخروج بالملاحظات/  
الإشارات المهمة التالية:

1- أنّ عودة المؤرخ إلى كتاب (سلوة الأنفاس) في طبعته الحجرية الأولى  
الصادرة بإشراف مؤلّفه في فاس سنة (1316 هـ)، تفيد قطعاً أنّه ظلّ يجمع تراجم  
النفحات إلى ما بعد هذا التاريخ؛ وهو هناك في استانبول التي انتقل إليها نحو سنة  
(1301 هـ). انظر (الفقرة 90).

2- أنّ هذه المسألة نفسها تفيد، من جهةٍ أخرى، ضيق المسافة الزمنية بين صدور  
سلوة الأنفاس في فاس سنة (1316 هـ)، وصدور المنهل العذب في استانبول سنة (1317 هـ)،  
وهو ما يبعث على الشكّ في كونها السنة الهجرية التي تقابل سنتي (1899 - 1900 م) كما  
هو شائع، ولعل الأرجح أنّها سنة (1317) من (التقويم المالي) الشائع آنذاك أيضاً في الدولة  
العثمانية، وتقابلها سنة (1901 م)؟ انظر (الفقرة نفسها).

3- أنّ التراجم (123 - 124 - 125) من خلال وفياتها (1303 - 1311 - 1313 هـ)،  
تبعثُ على القول بأنّ نفحات النسرین قد جُمعتْ مادّته - أو هذا القسم الأخير منها على  
الأقل - هناك في استانبول بعد رحيل المؤرخ إليها نحو سنة (1301 هـ). وتدُلُّ الوفاة الأخيرة  
- وهي آخر الوفيات في النفحات - على أنّه كان يعمل على جمعه قبل صدور المنهل  
العذب سنة (1317) ببضع سنوات. ومن المرجّح لديّ - استناداً إلى هذه الملاحظة نفسها -  
أنّ تطوير مشروعه التاريخي من (تقميشات النفحات) إلى (البناء المنهجيّ في المنهل)، قد تمّ  
بين هذين التاريخين [1313 - 1317]؟

4- أنّ مجمل هذه القرائن تؤكّد، من جهةٍ أخرى، نفي تلك الصلة التي يفترضها  
المؤرخ الجليل الدكتور محمد عبد الكريم الوافي [رحمه الله تعالى] بين (المنهل العذب)  
و(الحوليات اللببية) للمؤرخ الفرنسي شارل فيرو؛ وذلك فضلاً عن الأدلة التي سقتها

[هناك] في الخلاصة (1).

5 - قد يُستشَفُّ أخيراً من ورود تلك التراجم (126 - 133) المستقاة من (الرحلة الظافرية) في آخر الكتاب، أنّه لم يقف على هذه الرحلة إلا في آخر المطاف، وهي لدى مؤلّفها هناك باستانبول؟



### نشرة أخرى لنفحات النسرين:

صدرت خلال التسعينات نشرة جديدة لمخطوطة النفحات بالبيانات البليوغرافية التالية: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، لأحمد بن الحسين النائب الأنصاري، تقديم وتعليق [كذا] د. محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: دار الفرجاني للنشر والتوزيع (د.ت)، 208 ص (الإيداع خلال سنة 1994).

وقد كتب الناشر المذكور مقدمة مطوّلة في نحو خمسين صفحة (5 - 52) لم يرد فيها عن المؤلف وكتابه سوى هذين السطرين في أولها: «إنّ الدراسات المغربية من الدراسات الهامة في أمّتنا العربية، فلهذا نقدّم للمكتبة العربية كتاباً هاماً، وهو نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان لأحمد الأنصاري» كذا؟!!

وقد آثرت الاكتفاء هنا بهذه الإشارة، مرجئاً الملاحظات النقدية حولها إلى نشرة الكتاب المستقل عن المؤرخ وآثاره - بإذن الله تعالى.

(1) «المؤرخ أحمد النائب الأنصاري: رؤية نقدية جديدة في آثاره (خلاصة)»، ضمن: المؤرخ أحمد النائب الأنصاري (1264 - 1336هـ / 1848 - 1918م): حياته وآثاره وعصره في الذكرى المئوية لصدور كتابه مع نهاية القرن (1899 - 1999)، أعمال ندوة علمية، تحرير عمار محمد جحيدر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2008، ص 645 - 661. وعن فرضية الدكتور الوافي المشار إليها أعلاه، انظر أيضاً: عمار محمد جحيدر، «الدكتور محمد عبد الكريم الوافي (1936 - 2011) مؤرخاً محققاً: قراءة نقدية في الحوليات اللببية - نموذجاً»، مجلة مجمع اللغة العربية (ليبيا)، العددان الخامس عشر السادس عشر (1440 - 1441هـ / 2018 - 2019م)، ص 659 - 716، وخاصة ص 707 - 712.

## (3)

## الجزء الثاني من المنهل العذب (مخطوطٌ تكويني / ب. مشروعٌ لم يتم)

الجزء الثاني من المنهل العذب مثالٌ جيِّ للخطوط التكويني، أو هو عبارةٌ شارحةٌ: (مشروعٌ لم يتم). أمَّا مخطوطه التكويني الآخر: نفحات النسرين؛ فهو (مشروعٌ مهمَل). [كما تقدّم].

### ملاحظات عامة:

ينقسم الجزء الثاني من المنهل العذب إلى قسمين منفصلين لا صلة بينهما - بالنظر إلى المحتوى:

### (قسم الوقائع)

جلُّه نصٌّ رسميٌّ منقولٌ حرفياً من (سالنامه<sup>(1)</sup> الولاية) عن عهد الوالي أحمد راسم باشا.

وسالنامه الولاية تنقل أيضاً عن (لائحة<sup>(2)</sup>) الوالي المذكور، على النحو التالي:

(1) السالنامه لغوياً: اسمٌ أو مصطلحٌ عثمانيٌّ استُعمل للآثار المرتبة بناءً على استعراض مجموعة حوادث خلال سنة، ودخل هذا المصطلح إلى اللغة التركية خلال عهد التنظيمات. والكلمة مركّبة من الكلمتين الفارستين: (سال Sal) التي تعني سنة، مع (نامه Name) التي تعني رسالة أو كتاباً، والمعنى المركّب: كتاب السنة، أو (الحولية) في العربية. وفي الفارسية أيضاً: «سالنامه: التقويم السنوي؛ ذكر خلاصة أخبار العام في كتاب»، ويقابل هذا التعبير في التركية اليوم بكلمة (YILLIK). ويبدو أنّ مصطلح السالنامه لم ينتشر كثيراً في العربية السائدة آنذاك؛ ومن ذلك أنّه أهمل في عملين لغويين يُعدّان من أهمّ المعاجم المنجزة في القرن التاسع عشر؛ وهما (محيط المحيط) للمعلم بطرس البستاني (1819 - 1883)، و(تكلمة المعاجم العربية) للمستشرق الهولندي رينهاردت دوزي (1820 - 1883)، وربما غلبت عليه كلمة (التقويم) العربية.

(2) لائحة: مصطلحٌ عثمانيٌّ (بلفظٍ عربيّ)، يُطلق على ما يجرّه أحد الأشخاص أو إحدى الإدارات/ إلى إحدى الجهات الرسمية، من التقارير الإدارية أو الترتيبات والتصوّرات المقترحة بشأن من الشؤون، وتوجد بينها أيضاً لوائح بانطباعات بعض الموظفين المبعوثين إلى الدول الأجنبية، وبعض القوانين والنظم والتعليمات المقترحة، كما أنّ للوائح بعض السمات والضوابط الشكلية في نمط تحريرها... وهي تنحو نحو الإصلاح، =

لائحة الوالي



سالنامة الولاية



المنهل العذب

وواقع الأمر أنّ المؤرخ أحمد النائب الأنصاري لم يكن هنا مؤلفاً (بالمعنى النقدي للمصطلح)، ولكنّه ناسخ أمين، لم يتجاوز في عمله هذا (مرحلة الجمع والتقييش).

وقد أشرتُ بدقّةٍ موثّقةٍ، في سياقٍ بحثيٍّ آخر، إلى (التماهي الجليّ) بين: جلّ (قسم الوقائع) في الجزء الثاني من المنهل العذب / وأصله المنقول عنه في العدد الأخير من سالنامة ولاية طرابلس الغرب (1312هـ / 1894م)<sup>(1)</sup>.

جدول مقارنة بين العدد الأخير من السالنامة / ومخطوطة المنهل العذب

و	مخطوطة المنهل 2	ص	السالنامة الأخيرة
أ 2	ولاية ذي الدولة أحمد راسم باشا.	193	حضرة ذي الدولة أحمد راسم باشا والي الولاية الحالي العالي الشان.
أ 2	الإجراءات السياسية والإدارية.	193	إجراءاته السياسية والإدارية.
أ 2	نفسه.	193	رفع الحماية الأجنبية.

= وتجمع في عروضها بين الواقع المنجز الملموس / والمقترح النظري المستحسن، ومنها - على سبيل المثال - لائحة الوالي أحمد راسم باشا المشار إليها أعلاه، المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول (يلدز أوراق نومروسي 207، قسم نومروسي 14، ظرف 612، عدد 1: طرابلس غرب ولايتي حقنده أحمد راسم باشانك لايحه سي). (1) عمار محمد جحيدر، «سالنامات ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1286 - 1312هـ / 1869 - 1894م)، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد السابع عشر (1442هـ / 2020م)، ص 341 - 416، وخاصة ص 405.

و	مخطوطة المنهل 2	ص	السالنامة الأخيرة
ب 2	نفسه <sup>1</sup> .	194	إعادة الأمنية في حدود تونس.
ب 3	نفسه <sup>2</sup> .	195	محافظة ممنوعة تجارة الأسارى الزنجية وتأمينها.
أ 9	نفسه.	196	تمديد الخطوط التلغرافية.
أ 9	نفسه <sup>3</sup> .	196	إحداث البوسطات البرية.
أ 10	نفسه <sup>4</sup> .	196	لغو بعض المعافيات.
ب 10	نفسه.	197	تسوية المرتبات الميرية.
أ 11	نفسه.	198	تعديل مقامة المشايخ والأعضاء.
ب 11	نفسه.	199	تشكيل محرري المقاولات <sup>5</sup> في مركز الولاية.
ب 11	نفسه <sup>6</sup> .	199	إحداث أوطه التجارة بمركز الولاية.
أ 12	نفسه.	200	تعيين كتبة التحريرات للقضاءات.

[..... إلى آخر الجدول المقارن هناك].

وقد أقدم الشيخ الزاوي على نشر هذا الجزء من المنهل العذب (مشحوناً بتلك العاطفة المضادة) نحو الدولة العثمانية، دون أن يدري أنه ينشر (نصاً عثمانياً رسمياً) في واقع الأمر.

(1) في المنشور: إعادة الأمن.

(2) في المنشور: منع التجارة بالرقيق.

(3) ما ورد عنها في السالنامة قليل موجز، ففضّل النقل عن جريدة طرابلس الغرب.

(4) في المنشور: إلغاء.

(5) المقاولات: (تابع فيها الأصل العثماني): ما يُحَرَّرُ بين شخصين فأكثر من الوثائق. في حين تعني الكلمة اليوم

بصيغة الجمع: القيام بأعمال الإنشاء المعمارية.

(6) في المنشور: إنشاء غرفة.

## (قسم التراجم)

- مشوّشٌ مضطربٌ، وجُلُّ التراجم تعود إلى القرون الأولى.  
- ولا صلة لها بالمدى الزمني الذي (يوأكبه) هذا الجزء من الكتاب (أواخر العهد العثماني الثاني).

- وقد وضع المؤلف عليها في نسخته المخطوطة عبارتي: (طرابلس نقل، أو برقة نقل) إزاء عددٍ من التراجم؛ وهو ما يفيد الإشارة الصريحة إلى نسخةٍ أخرى مبيضة لم تصلنا بعد.  
- وتتخلّل هذا المجموع المضطرب من التراجم عدّة صفحات بعناوين أخرى لغير التراجم على النحو التالي: عجائب برقة (ص 57)، ذكر بلدة بيست (58)، أخلاق الطرابلسيين (59)... الخ.

فما الذي يسوّغ ضمّ (هذا الخليط المضطرب من تراجم القدامى، وما تخلّلها من النقول الجغرافية والتاريخية) إلى الجزء الثاني من المنهل العذب الذي يبدأ بولاية أحمد راسم باشا في العهد العثماني الثاني؟!

وكل هذا الخليط المضطرب جيئ الدلالة على أنّه (في نسخته هذه): مخطوطٌ تكويني لم يتجاوز مرحلة الجمع والتقميش / ومشروعٌ لم يتم.  
ولكنّ الشيخ الزاوي - رحمه الله تعالى - ينشر النصّ؛ دون انتباهٍ إلى هذه الملاحظات الجليّة الساطعة؟



### مزيد من الملاحظات على تراجم الجزء الثاني من المنهل العذب

لئن وقفنا على قدرٍ ملحوظ من الترتيب والتنظيم في تراجم (المنهل 1)، وفقاً لاختيار المؤلف في بناء نصّه الذي اختلف بالطبع عما كان عليه من سمات (التقميش) في النسخات،

فإنَّ أول ما يلفت النظر في تراجم (المنهل 2) عودتها إلى مثل ما كانت عليه تراجم النفحات من الاضطراب والفوضى، وذلك فضلاً عن اختلاطها أيضاً ببعض الفقرات المتعلقة بذكر البلدان ونحوها.

ولكنَّنا لا نعلم حتى اليوم على وجه اليقين: متى / وأين تمَّ جمع هذه التقييمات الأولى للجزء الثاني من المنهل العذب؟ خاصَّة وأنَّ السنوات الأخيرة من حياة المؤرخ قد تجاذبتها ثلاثة أطرافٍ بين (استانبول / وطرابلس / وبلاد الشام)؛ إلى وفاته في (بيروت) سنة (1336هـ / 1918م). وثمة ملاحظة دالَّة في هذا السياق؛ فقد استوقفني وجود مصدر (جديد / أو مزيد) بين تراجم الجزء الثاني من المنهل العذب، لم يرد في النفحات / والمنهل الأول الذي نشره المؤلف، ولم يرد في الجزء الثاني منه إلا في التراجم الثلاثة الأخيرة (من سياق المخطوط التكويني)، وقد أشار إليه بالعبارة التالية: «قال العلامة الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي في تاريخه: نتائج الترحال والسفر في أعيان القرن الحادي عشر» // وفي موضع لاحق «فوائد الارتحال ونتائج السفر في أعيان القرن الحادي عشر»<sup>(1)</sup>. وهو شامئٍ - كما ترى - ومن المرجَّح لديَّ اليوم أنَّه وقف على هذا الأثر في بلاد الشام بعد تحوُّله إليها في أواخر سني حياته<sup>(2)</sup>.

ونخرج من هذا الجدول أيضاً بالملاحظات التالية:

## 1 - مجموع التراجم:

تبلغ التراجم في المنهل الثاني (77) ترجمة؛ منها (37) ترجمة تقدَّمت في النفحات، و(35) ترجمة مزيدة، و(5) تراجم مكرَّرة تحت الأرقام التالية: (29، 32، 38، 49، 74)، ولذا فإنَّ المجموع أيضاً (77) ترجمة. وتنفرد ترجمة عبد الحميد بن أبي الدنيا (3) بورودها

(1) المنهل العذب، الجزء الثاني، ص 118 - 120.

(2) وقد رجَّحت في سياقٍ آخر أيضاً أنَّه اضطرَّ، بعد أن أقام باستانبول سنواتٍ هانئة، إلى مغادرتها مع غيره، عقب التداعيات المعروفة لحركة الشريف حسين في الحجاز (1916).

في الكتب الثلاث!؟

2 - الإيجاز المخل:

يتسم الكثير من تراجم (المنهل الثاني) بالإيجاز الشديد، ومنها ما لا يزيد عن الاسم كثيراً: (2، 12، 13، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 30، 31، 34/40، 45، 48، 52، 53، 56، 63، 64، 68، 71، 72).

3 - مزيد من التسرع:

يبدو أنّ تسرع المؤرخ في نسبة بعض الأعلام إلى طرابلس دون تحقيقٍ قد لآزمه في الجزء الثاني من المنهل أيضاً، وذلك في عددٍ من التراجم (المزيدة) على ما تقدّم في النفحات، ومنها:

- 1 - عبد الله بن محمد بن عبد الله، أبو القاسم البرقي (2).
- 2 - محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي (4).
- 3 - إبراهيم بن عبد الرحمن بن العاص، أبو إسحاق البرقي (5).
- 4 - علي بن غرس الدين أبي البركات خليل الطرابلسي (9).
- 5 - أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم... البرقي (12).
- 6 - عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحيم... البرقي (15).
- 7 - عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم... البرقي (16).
- 8 - .....؟
- 9 - محمد بن عبد الرحيم بن علي بن عبد الملك بن المنجا بن علي بن جعفر السلمي المسلاقي (35).
- 10 - جعفر بن عمر (أحد أمراء برقة)؟ (36).

- 11 - عبد الله بن إسماعيل البرقي (46)
- 12 - محمد بن أحمد الطرابلسي؛ أبدى المؤلف نفسه شكّه أيضاً (47).
- 13 - أحمد الاطرابلسي المتعبد بالمنستير (48).
- 14 - مسلم البرقي (52).
- 15 - محمد بن زيادة الله بن الأغلب (55).
- 16 - محمد بن عبد الله الحسيني التاجوري (69).
- 17 - شرحبيل قاضي طرابلس (70).
- 18 - أبو القاسم بن جمال الدين بن محمد خلف المصراقي الأصل (77) (1).

#### 4 - الأصل المخطوط:

وقد أتاحت لي العودة إلى الأصل المخطوط الوقوف عياناً على أنّه حقاً نسخةً أوليةً مسوّدة، أو مخطوطٌ تكوينيٌّ لم يُحرَّر بعد؛ وآية ذلك أنّ المؤرخ نفسه قد أثبت إشاراتٍ تصنيفيةً لاحقةً على طُرر التراجم: (طرابلس نقل/ برقة نقل... الخ). وقد حرصت على إثبات كل تلك الطرر المزیدة بين معقوفين في خانة الملاحظات بالجدول. وهذه الطُرر صريحة الدلالة على وجود نسخةٍ أخرى (مبيضة) من الجزء الثاني للمنهل العذب، يُشار إليها - ضمناً - بفحوى الطرر، ولكننا لم نقف عليها بعد؟ كما تقدّم في هذه الخلاصة أعلاه المزید من الملاحظات التي تؤكد هذه الحقيقة الساطعة، ومن الغريب حقاً أنّ الأستاذ الجليل الشيخ الطاهر أحمد الزاوي - رحمه الله تعالى - قد عجّل / أو تعجّل بنشر هذا النصّ القلق المضطرب، دون التوقّف عند

(1) هذا ما خرجتُ به من دراستي لآثار المؤرخ قبل عدّة سنوات، وأرجو أن أكون قد بلغتُ بعض الصواب، كما أتمنى أن يواصل الباحثون الشباب النظر في تراجم هؤلاء الأعلام، بدراساتٍ نقديةٍ جادة؛ لتأكيد هذه الرؤية/ أو نقضها، والله ولي التوفيق.

هذه المعطيات الجليّة جميعاً<sup>(1)</sup>.



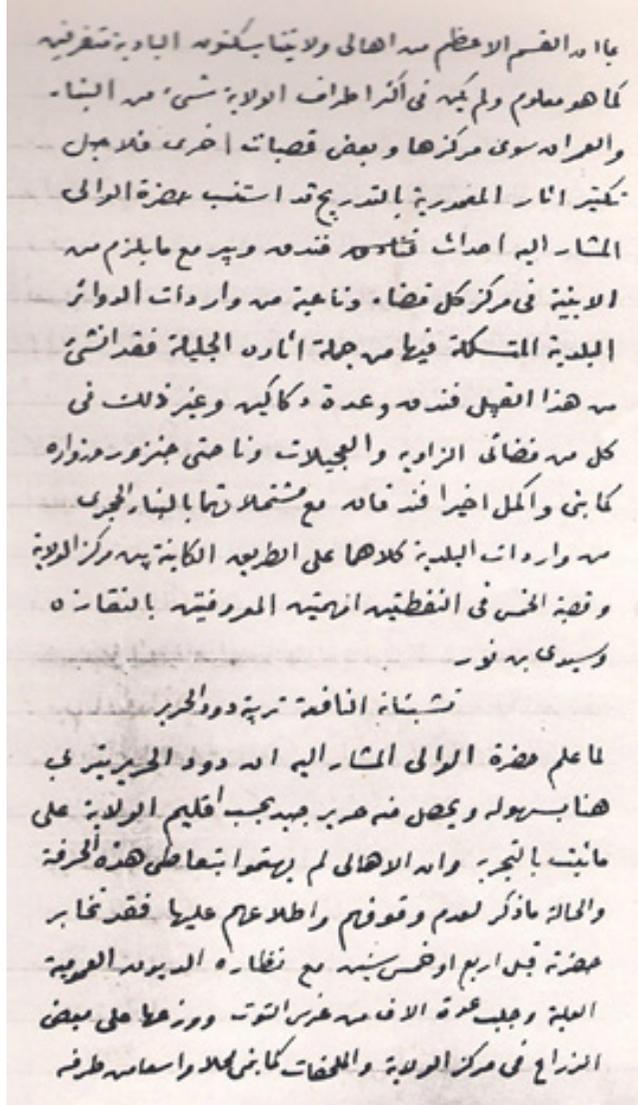
والآن، آن أن يُطرحَ هذا السؤالُ الجوهرِي؟

الآن، بعد أن عرفنا أنّ نفحات النسرِين «مخطوطٌ تكويني / ومشروعٌ مهمل»، وأنَّ الجزء الثاني من المنهل العذب «مخطوطٌ تكويني / ومشروعٌ لم يتم»... بما لا مزيد عليه من الأدلة والقرائن، ما هو (الموقف النقدي) أمام الدارسين من هذين الأثرين المطبوعين بيننا منذ أكثر من نصف قرن؟

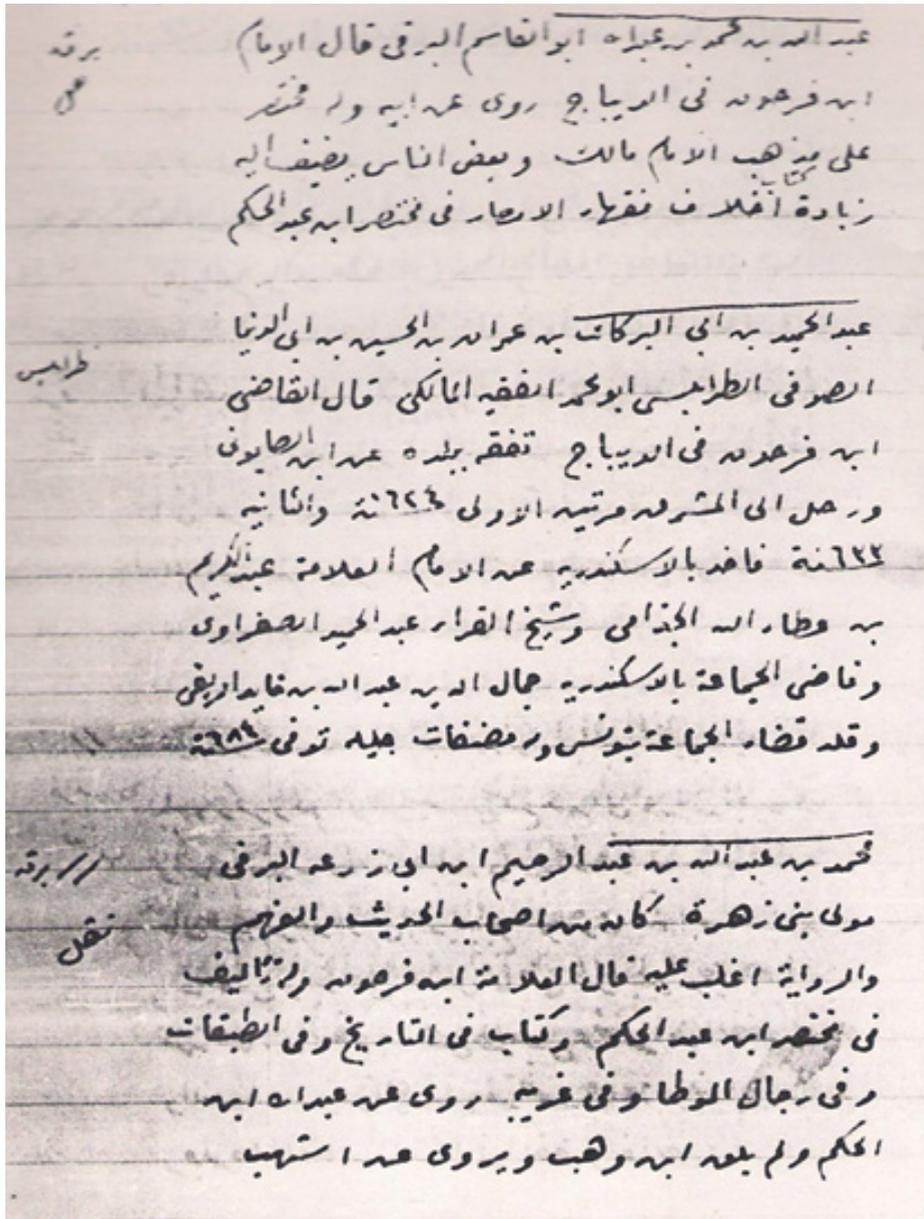
هل يصحُّ اليوم نسبة معطياتهما إلى المؤلف على أنّها من مقولاته، وإسنادها إلى هذين الكتّابين المنشورين اللذين لم يفرغ من إنجازهما (وفق رؤيته) في حياته؟ أم يجب التوقف ملياً، بمزيدٍ من التأمل، عند حالي المخطوط التكويني؟

(1) سبق طرح هذه المسألة بتفصيل أوسع في المقاربة النقدية التالية: عمار محمد جحيدر، «مجلد قضايا عن الشيخ الطاهر الزاوي (1890 - 1986) مؤرخاً»، ضمن ندوة: الشيخ الطاهر الزاوي: حياته وآثاره (الزاوية 2012)، تحرير وتقديم محمود المهدي الغنمي، من منشورات جمعية الشيخ الطاهر الزاوي الخيرية، 2016، ص 59 - 116، وخاصة مبحثي: (7 - مخطوط تكويني بين يدي المؤرخ... / 8 - نشرة الجزء الثاني من المنهل العذب؛ وذلك فضلاً عن المبحث الجامع بين المؤرخين: 9 - التداخل الجليّ بين: الجزء الثاني من المنهل العذب / وأعلام ليبيا، ص 91 - 115).

## لوحات مختارة من مخطوطة الجزء الثاني من المنهل العذب



الصفحة الأخيرة من قسم الوقائع وهي مبتورة النص... ويليهما في أصل السالنامة:  
(من طرفه/ السامي ليكون أنموذجاً لتربية الدود في سوانيه الحسيمة... الخ). (لوحة 1)

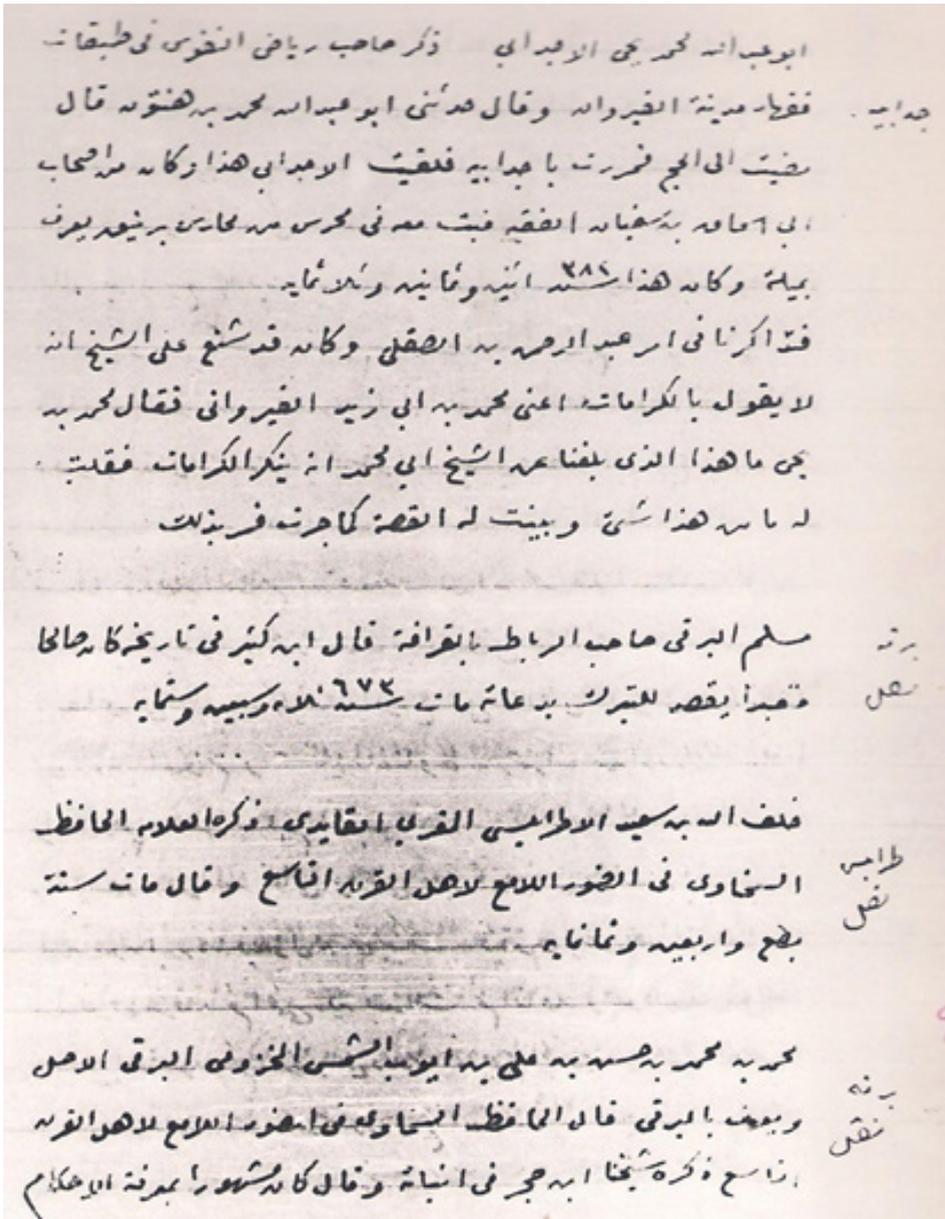


الصفحة الثانية من قسم التراجم

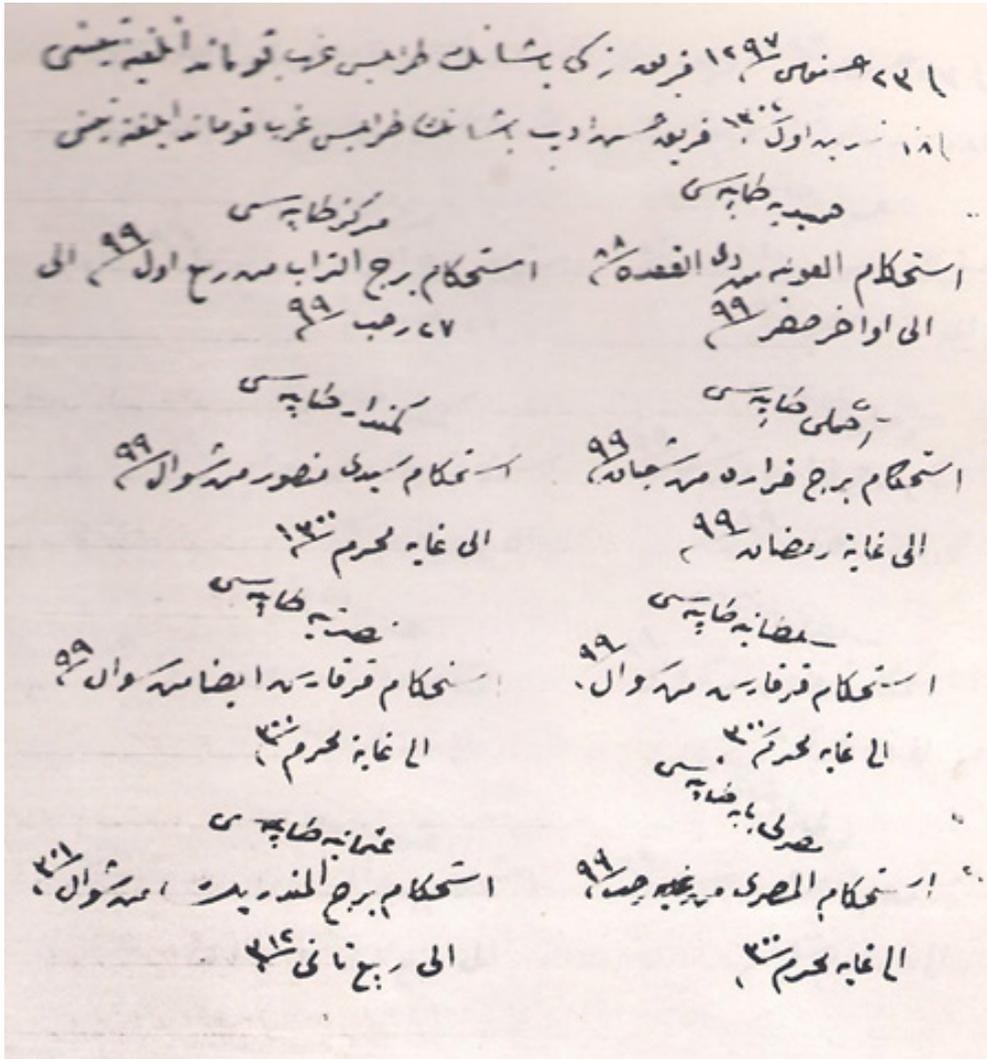
وعليها بعض إشارات المؤلف على الطرة اليسرى (لوحة 2)

<p>روي عنه بكرة به عيسى ومحمد به كونه وغيرهما</p>	
<p>عبد الله به العربية عبد الله به صالح العجلي الكوفي الاطرمي كانه ابوه من أهل الكوفة نزل طرابلس الغرب ورده عبد الله واخوه يوسف بن قنبا البجلي وبنو اولادهم وعديتهم كثير مشهور ويتقدم بيت المعرفة والدراسة والاخبار من الحديث</p>	<p>نقل طرابلس محدث</p>
<p>ابو الحسن علي بن احمد بن زكريا بن الخضير المعروف بابيه زكروته الاطرابلس الاشعري مع ابا مسلم صالح به احمد به عبد الله العجلي روي عنه الوليد بن بكر الانصلي وغيره</p>	<p>طرابلس محدث تقدم ابن بابويه نقل</p>
<p>ابراهيم بن محمد النافق الاطرابلس قاضي طرابلس توفي سنة ٢٥٤ تلمذ له رخصيه ورايته بالفرب <sup>روى</sup> عنه ابنه يونس</p>	<p>نقل طرابلس</p>
<p>ابراهيم بن القاسم الاطرابلس روي عنه ابن جعفر القروي وغيره روي عنه محمد بن حزم قاله الحنفي فوك بنيع هذه الاسا ياقوت في معجم البلدان ارمه علام برقة قال ياقوت</p>	<p>طرابلس نقل نقل</p>
<p>احمد بن عباس بن عبد ارحيم بن جعيد به زرعة ازهره البرقي</p>	<p>نقل</p>

(لوحة 3)



كل هذه الإشارات جليّة الدلالة على أنّ النسخة مسوّدة (أو مخطوط تكويني)، كما تدلُّ على وجود نسخةٍ أخرى (مبيضة) منقول إليها، ولكنها لا تزال غائبة عن الدارسين؟ (لوحة 4).



(صفحة خارجة عن السياق في النسخة المخطوطة - المسودة) - (لوحة 5)

(أشار الشيخ الزاوي إلى فقرتين منها في نهاية الصفحة الأخيرة، وهما في الأصل بالتركية العثمانية - انظر:

أسماء القلاع التي أنشئت في عهد أحمد راسم باشا، ص 8-10) - (وانظر اللوحة التالية):

نور الدين ، والشيوخ الدشوطي والبكري وغيرهم ، ووصل ،  
 وحصل ، وبرع فيما أمّ له وأمل ، وشارك في فنون من معقول  
 ومسموع ، ونظم في قلائد تحصيله فرائد ، أفراداً منها وجموعاً .  
 ولم يزل على ذلك حتى صار المعول عليه ، إلى صلاح مكين وعفاف  
 رصين ونزاهة ضافية الجلباب ، وسلوك في عمله إلى جادة الصواب  
 يخطب ويعظ ، وينبه من سنة الغفلة ويوقظ ، ويفتي ويدرس ،  
 ويبني الملخص بيانه على قواعد التحرير ويؤسس ، مع لين الجانب ،  
 وأداء ما لإخوانه في الله من نفل وواجب ، وتواضع في الله . .  
 زاده الله رفعة ومجداً . وحج غير مرة . ثم حج سنة ١٠٦٥ ، ولما  
 رجع إلى مصر وافاه الحمام المحتوم . في صفر سنة ١٠٦٦

إلى هنا انتهى الجزء الثاني من المنهل العذب حسب ما وجدته  
 بنسخة دار الكتب المصرية المخطوطة ورقها في الفهرس ١٨٢٢  
 تاريخ خطي طاهر أحمد الزاوي  
 جاء في ورقة ملحقة بآخر الجزء الثاني من المنهل العذب ما يلي :  
 في ٢٣ من أغسطس سنة ١٢٩٧ تاريخ تعيين الفريق زكي باشا  
 قائداً لطرابلس الغرب  
 ١٨ تشرين أول ( أكتوبر ) سنة ١٣٠٢ تعيين الفريق حسين  
 ديب باشا قائداً لطرابلس الغرب

## تَمَّةٌ خَتَامِيَّةٌ

(أ) - من أين نبدأ دراسة النص:

كنت منشغل ذهن حقاً بالمؤرخ أحمد النائب الأنصاري وآثاره خلال عدّة سنواتٍ من العقود الثلاثة الماضية. ومن هنا ظللتُ أحرص على اقتناء ما أقفُ عليه من الدراسات المنشورة المتعلقة بهذا السياق الدراسي الذي شدّني إليه، وخاصّةً من مصر والمغرب في أكثر من رحلةٍ هنا وهناك. ومنها هذا الكتاب: (بناء النصّ التراثي: دراساتٌ في الأدب والتراجم)<sup>(1)</sup>، الذي اقتنيتُه في القاهرة بتاريخ (29 - 1 - 2006). وكان الفصل الثاني منه بعنوان: (المنظومات القصيرة في حكاية البخلاء) الذي اختتمته المؤلفة الدارسة بالعبارات التالية: «وبهذا فإنّ هذه المنهجية في التحليل، تبثّر بتحقيق نتائج هامةٍ سواء في مجال النقد الرسمي لـ(كتاب البخلاء) باعتباره عملاً أدبياً، أو في فهمنا لصورة البخيل في المجتمع الإسلامي الوسيط، ومن المؤكّد أنّ السبيل إلى وسيلةٍ منهجيةٍ قد أصبح واضحاً، وأننا قد أجبنا على تساؤل بارت: من أين نبدأ؟» (ص 29).

وبعد بضعة أشهر دوّنتُ في بياض هذه الصفحة من الكتاب هذه الخاطرة العفويّة آنذاك: «... وما إن فرغتُ من قراءة هذا التساؤل الأخير الذي ينتهي به الفصل، حتى طاف بالذهن أيضاً هذا التساؤل عن دراسة النص:

من أين نبدأ دراسة النص؟

1 - هل من (بروز النصّ) مكتملاً كما قدّمه المؤلف؟

2 - أم من (نشأة النصّ) في ذهن المؤلف بتتبّع تطوّراته ومسوّداته وخطاطاته الأولىّة

إذا توفرت...؟

(1) الدكتورة فدوى مالطي - دوجلاس، بناء النصّ التراثي: دراسات في الأدب والتراجم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، (222 ص).

3 - أم من (نشأة المؤلف) في بيئته؛ بما لها من المؤثرات التي شكّلت حياته، ومن ثمّ ذهنه، الذي استطاع في نقطةٍ ما من تطوره إنجاز ذلك النص؟! لا يزال السؤال قائماً، ودافعاً إلى مزيدٍ من البحث والدرس والتجريب، والله ولي التوفيق.

[صباح السبت 8 - 4 - 2006]

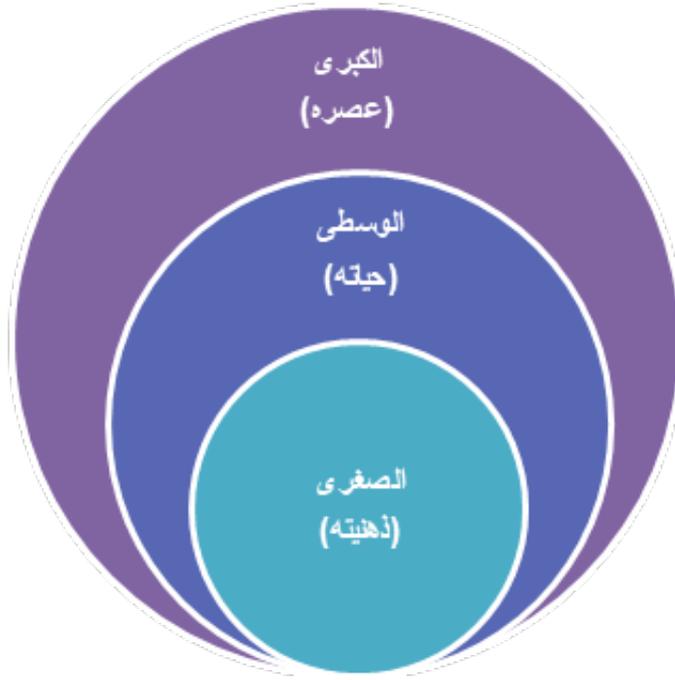
### (ب) - في سياق العناية بالنصّ التكويني:

كما سُغلت في تلك السنة نفسها (2006) بإعداد الفصل الأخير: (المخطوطات العربية في ليبيا)؛ من ذلك العمل الجماعي المشترك (معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا) الذي أُنجَزَ احتفاءً بـ(طرابلس عاصمة للثقافة الإسلامية - 2007). وقد خصصتُ مصطلح (المخطوط التكويني) بإشارةٍ موجزةٍ إلى تأصيله الموضوعي هناك، وأودُّ في هذا المقام الأثير أن أستلّ منها أيضاً السطور التالية للصيقة بالسياق: «وقد انبثقت العناية بهذا النوع من (المخطوطات) التي كانت مهملة في الغالب من مذهبٍ جديد في النقد الأدبي الحديث؛ يُعرف (بالنقد التكويني) الذي يُعنى باكتشاف (نشأة النص) وتطورات صياغته في ذهن الكاتب (المؤلف)، وعلى أوراقه المسوّدة حتى ينضج شيئاً فشيئاً، ويخرج في صياغته الأخيرة المحرّرة نصّاً سوياً. وعلى ذلك يمكن القول بظهور هذا المفهوم الجديد للمخطوط الذي يصدق عليه اسم (المخطوط التكويني). ولمزيدٍ من الدقة والضبط في التفريق بين الصنفين ينبغي أن يُوصف أو يُميّز ذلك المخطوط التقليدي المتداول (بالمخطوط التحقيقي) الذي كان - ولا يزال - الأساس المعتمد في (بناء النصّ) عند تحقيقه ونشره، في حين تنصرف مهمّة (المخطوط التكويني) إلى دراسة (نشأة النص) في ذهن المؤلف...»

وخلاصة القول في هذا المقام الموجز إنّ كلا النصّين المذكورين [النفحات، والجزء الثاني من المنهل العذب] (تقميشتُ أوليّةً غير محرّرة)، خلافاً للجزء الأول من المنهل العذب الذي نشره المؤلف باستانبول سنة (1317 / 1899). وقد تجمّع لديّ من الملاحظات

والمراجعات حول هذه المسألة ما يشكّل دراسة مستقلّة؛ لا (تزال) قيد التحرير، وعلى ذلك يمكن القول أيضاً إنّ الأستاذين الجليلين الطاهر أحمد الزاوي وعلي مصطفى المصراي، قد كانا - من حيث لا يقصدان - سبّاقين منذ بضعة عقود إلى نشر (نصّين تكوينيين) معروفين متداولين اليوم جدّاً في تاريخنا الثقافي (!) وقد أتاحا بذلك فرصة طيّبة لمزيد من البحث المعمّق حول تطور النصّ في ذهنية المؤلف»<sup>(1)</sup>.

### (ج) - ثلاث دوائر متداخلة في دراسة المؤرخ:



في مثل هذا السياق من المقاربات النقدية؛ لا يهْمُنَّا عصر المؤرخ إلا بالقدر الذي يؤثّر في حياته/ ولا يشغلنا من تفاصيل حياته إلا ما كان مؤثراً جلياً في تشكيل ذهنيته/ وعندما نوغّل عمقاً في (الدائرة الذهنية/ الصغرى) سنجد أنّنا نتجاوز من خلالها قطعاً

(1) عمار محمد جحيدر، «المخطوطات العربية في ليبيا بين: المصادر الوصفية/ والنصوص التوثيقية/ والوضعية الحالية»، ضمن: معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، إشراف: اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم، 2008، ص 325 - 428، وخاصة ص 330 - 332.

دائرتي حياته/ وعصره؛ إلى عهدٍ أو عصورٍ أوسع وأسبق، كان لها حضورها الجليُّ في مجمل آثاره التي شغلت الباحثين من بعده. ولو كان أحمد النائب الأنصاري أحد رؤساء بلدية طرابلس، ولم يكن مؤرخاً، لما عنينا به كل هذه العناية على مدى ممتدِّ غير قصير، وآية ذلك أننا لا نكاد نذكر أحداً من رؤساء البلدية في (تاريخنا الثقافي)، مع تقديرنا الواجب لكل ذي فضلٍ في خدمة بلاده في أيِّ سياقٍ وطنيٍّ آخر.

ومن هنا كان لا بدَّ لمثل هذه (الرؤية النقدية في آثار المؤرخ) أن تُسبَقَ (برؤيةٍ جماعيةٍ شاملةٍ) عنه، تُنجز عادةً من خلال (ندوةٍ علميةٍ). وقد [ألحَّتْ على ذهني في أوائل سنة (1999) التي توافقت (الذكرى المئوية لصدور الجزء الأول من المنهل العذب)، فكرة الاحتفاء بهذه المناسبة الثمينة، وضرورة توظيفها على نحوٍ أنجع لفتح هذا الملف المهمِّ المتميِّز - على تواضعه - في تاريخ ليبيا الثقافي، وتمحيصه في دراسةٍ نقديةٍ جادَّةٍ، تُضفي على حياة المؤرخ/ ومجمل آثاره ثوباً جديداً من التقييم الموضوعي الذي يجعل الرجوع إليها في الدراسات التالية أكثر استنارةً، وأدنى إلى التوثيق المنهجي الرصين ]<sup>(1)</sup>. وكان هذا الهاجس دافعاً إلى اقتراح تلك الندوة العلمية الجادَّة التي عُقدت في أواخر تلك السنة، بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، وأضفى عليها الباحثون المشاركون الأفاضل مزيداً من أضواء الرؤية الجماعية الكاشفة.

وقد صدرت الندوة في كتاب جامع (2008) أُدرج فيه عقب جلساتها ما دار حولها من المناقشات العلمية التي تميَّزُ الندوات الحية بحضورها الثريِّ البهيج، عن سائر الأعمال الجماعية المشابهة، دون لقاءٍ ومواجهة، كالمجلات العلمية ونحوها، وذلك فضلاً على «تتمَّةٍ توثيقيةٍ عن السنوات العشر الأخيرة من حياة المؤرخ (1326 - 1336هـ / 1908 - 1918م)، وبعض شؤونه الأسرية». وأرجو أن يكون ذلك كله كافياً لتشكيل (أرضيةٍ قاعديةٍ)

(1) اقتباس من (مطوية الندوة / 16 - 2 - 1999)، وهي منشورة في الكتاب على أنها: (إطار نظري) ووثيقة إجرائية).

مستوفاة؛ لتأطير هذه الرؤية النقدية، والله ولي التوفيق.

وأسال الله تعالى أن يكون في هذه المقاربة الدراسية الحميمة المتواضعة بعضُ النفع والفائدة، وبلوغُ ما تيسر من الصواب. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على خير خلقه وسلّم.

الفقير إلى رحمته تعالى

(2021 - 10 - 31)

مركز جهاد اللبيني للدراسات التاريخية  
مشروع تدوين التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي  
والسياسي للمجتمع العربي اللبني (1550-1950)  
الندوة الخامسة (1-3/11/1999)

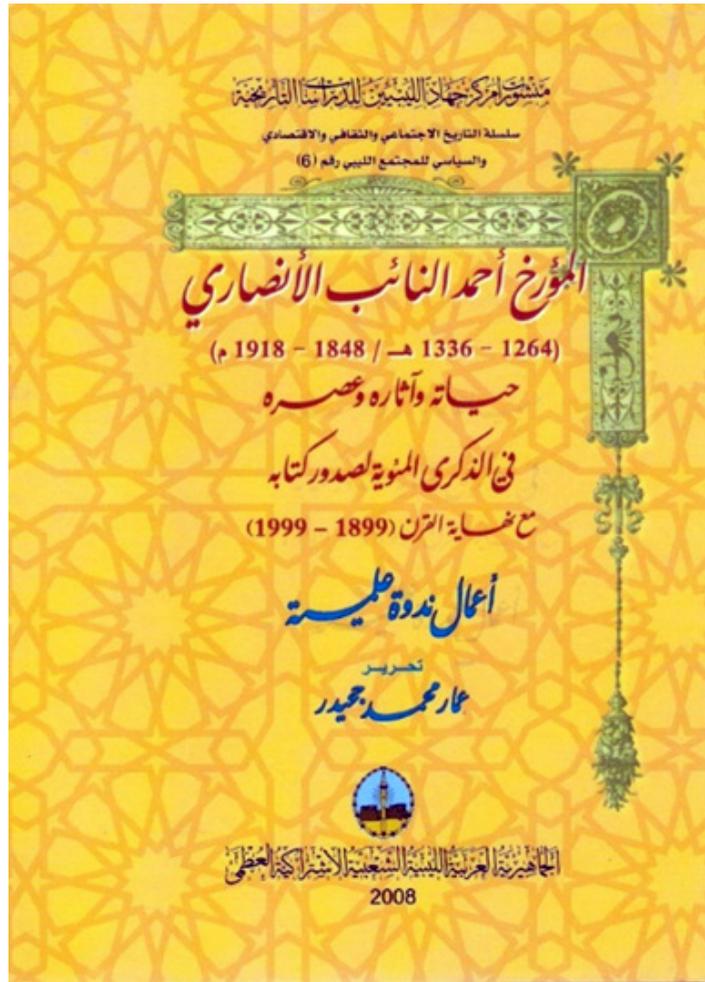
## المؤرخ أحمد النائب الأنصاري

### حياته وأثاره وعصره

أهتفاء بالذكري المنوية  
لصدار كتابه  
( مع نهاية القرن 1899-1999 )

تلتزم الندوة في عدة جلسات علمية ، صباحاً ومساءً ، في قاعة المحاضرات  
بمقر المركز ( إزاء مصلى سيدي ميلير ) والدعوة عامة .

لقاء الندوة (1 - 3 نوفمبر 1999)



كتاب الندوة (2008)

## المؤرخ

ولد أحمد النائب الأنصاري بطرابلس سنة (1264م - 1848) وكان والده من قضاة المالكية، من أسرة توارثت العمل بالقضاء حتى عُرفَتْ أخيراً بلقب (النائب) بدلاً من لقبها السابق (العسوسي) وهو لقب منحوت من (عيسى الأوسسي) الجسد الأعلى الوافد من الأندلس إلى طرابلس في أواخر القرن السابع الهجري عند غلبة الأسيان على الأندلس.

درس في المدرسة الرشدية، ثم واصل بصورةٍ خصوصية دراسة الصرف والنحو والمنطق وعلم الكلام والفقه والفرائض والفلك والتاريخ والعروض، وكان إلى جانب العربية ملتمساً بالتركية حديثاً وكتابة. وقد عمل كاتباً، ورئيس كتاب (باش كاتب) بمجلس الحقوق نحو ثماني سنوات (1282-1290هـ / 1866-1873) ومستظلاً (محققاً) أول بديوان التمييز بسبعة أشهر من سنة (1295هـ / 1878) ومعاوناً فحرياً - ورئيساً للبلدية مدة خمس سنوات (1295-1300هـ / 1878-1883) وتخللت ذلك أيضاً رئاسته الفخرية لمجلس الزراعة ومجلس النافعة (الأشغال العامة) خلال سنة (1297هـ - 1880) كما أوفد إلى تونس في مهمّة رسمية بقرار من مجلس الإدارة بالولاية سنة (1298هـ / 1881) ثم انتقل إلى إستانبول نحو سنة (1301هـ / 1884) وعيّن عضواً بمجلس أمانة العاصمة (بلدية إستانبول) بموجب إرادة سلطانية سنة (1302هـ / 1885)<sup>(1)</sup>.

وخرج من وظيفته سنة (1326هـ / 1908م) وعاد إلى طرابلس في السنة نفسها. ثم هاجر ثانية إلى إستانبول سنة (1329هـ / 1911م) وظل بها إلى أن تحول إلى بلاد الشام بعد سنة (1916)؟ وتوفي في بيروت سنة (1918)

١ - أعدت هذه الخلاصة استناداً إلى ترجمة الرسمية للوحة المحفوظة بأرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول.

ترجمة المؤرخ علي الغلاف الخلفي لكتاب الندوة

## مصادر الدراسة ومراجعها:

- 1 - الأنصاري، أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، (الجزء الثاني، مخطوط / نسخة المؤلف، بدار الكتب المصرية تحت رقم 1822 تاريخ).
- 2 - الأنصاري، أحمد النائب، نفحات النسرین والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، (مخطوط / نسخة المؤلف)، بدار الكتب المصرية تحت رقم (ح / 10671).
- 3 - الأنصاري، أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، (الجزء الأول)، [طبعة المؤلف باستانبول: مطبعة جمال أفندي الكائنة أمام الباب العالي، 1317 / 1899]. مع طبعات دار الفرجاني اللاحقة.
- 4 - الأنصاري، أحمد النائب، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، (الجزء الثاني)، بإشراف الأستاذ طاهر أحمد الزاوي، طرابلس: مكتبة الفرجاني، 1961.
- 5 - الأنصاري، أحمد النائب، نفحات النسرین والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تحقيق وتقديم علي مصطفى المصري، بيروت: المكتب التجاري، 1963.
- 6 - الأنصاري، أحمد النائب، نفحات النسرین والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تقديم وتعليق د. محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: دار الفرجاني للنشر والتوزيع (د. ت / الإيداع خلال سنة 1994).
- 7 - برجستراسر، جوتهلّف، أصول نقد النصوص ونشر الكتب (محاضرات المستشرق الألماني برجستراسر بكلية الآداب سنة 31 / 1932م)، إعداد وتقديم الدكتور محمد حمدي البكري، القاهرة: مركز تحقيق التراث، 1969.
- 8 - البكري، الدكتور حمزة، «إصلاح النَّصِّ»، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 63 / الجزء الأول (رمضان 1440هـ / مايو 2019م)، ص 158 - 183.

- 9 - بنين، الدكتور أحمد شوقي / والدكتور مصطفى طوي، معجم مصطلحات المخطوط العربيّ: (قاموس كوديكولوجي)، ط 3 الرباط: الخزنة الحسنية، 2005.
- 10 - (التاجوري)، عبد السلام بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر، طيّب الله ثراه، الشهير بالشيخ عبد السلام العالم التاجوري (1058 - 1139 هـ / 1648 - 1727 م)، تذييل المعيار، تقديم وتحقيق الدكتور جمعة محمود الزريقي، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية، 2008. (في خمسة أجزاء، وسادسها للفهارس).
- 11 - التازي، أ. د. عبد الهادي، «ليبيا من خلال رحلة ابن الطيّب الشرقي الصميلي الفاسي 1139 - 1140 هـ / 1727 - 1728 م»، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد 22 (2005)، ص 539 - 611.
- 12 - توش، جون، المنهج في دراسة التاريخ: اتجاهات ومنهجيات وأهداف جديدة في دراسة التاريخ الحديث، ترجمة د. ميلاد المقرحي، بنغازي: جامعة قاريونس، 1994.
- 13 - جحيدر، عمار محمد، «أشتات لغوية في اليوميات الليبية»، ضمن ندوة: اللهجة الليبية في فضائها العربي الأوسط بين المشرق والمغرب / الحلقة الأولى؛ الفصح المتداول في اللهجة الليبية: دراسات تأصيلية مقارنة بين المدن والأرياف والوادي، طرابلس: مجمع اللغة العربية، 2007.
- 14 - جحيدر، عمار محمد، أطياف من تاريخ ليبيا الحديث ومؤرخيه: حوار محرّر (قورينا 2008)، طرابلس: دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
- 15 - جحيدر، عمار محمد، تراجم علماء طرابلس وصلحاتها في رحلة التجاني (مطلع القرن 8 هـ / 14 م): محاولة نحو إعادة بناء النص، طرابلس: وزارة الثقافة والتنمية المعرفية، 2019.

- 16 - جعيدر، عمار محمد، التليسي مؤرخاً [1930 - 2010: مقارنة أولية]، طرابلس: دار الفرجاني، 2018.
- 17 - جعيدر، عمار محمد، «الدكتور محمد عبد الكريم الوافي (1936 - 2011) مؤرخاً محققاً: قراءة نقدية في الحوليات الليبية - نموذجاً»، مجلة مجمع اللغة العربية (ليبيا)، العددان الخامس عشر السادس عشر (1440 - 1441هـ / 2018 - 2019م)، ص 659 - 716.
- 18 - جعيدر، عمار محمد، «سالنات ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني (1286 - 1312هـ / 1869 - 1894م)، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد السابع عشر (1442هـ / 2020م)، ص 341 - 416.
- 19 - جعيدر، عمار محمد، عبد السلام العالم التاجوري (1058 - 1139هـ / 1648 - 1727م): الفقيه الصوفي المؤرخ وتراجم شيوخه: سيرة علمية / نص ودراسة وملاحق، طرابلس: مكتبة طرابلس العلمية العالمية، 2021.
- 20 - جعيدر، عمار محمد، ليبيا في رحلة اللغوي العلامة محمد بن الطيب الفاسي (أوائل العهد القرمانلي: 1139 - 1140هـ / 1727 - 1728م)، نشرة رقمية بموقع مجمع اللغة العربية (ديسمبر 2020).
- 21 - جعيدر، عمار محمد، «مجل قضايا عن الشيخ الطاهر الزاوي (1890 - 1986) مؤرخاً»، ضمن ندوة: الشيخ الطاهر الزاوي: حياته وآثاره (الزاوية 2012)، تحرير وتقديم محمود المهدي الغتمي، من منشورات جمعية الشيخ الطاهر الزاوي الخيرية، 2016، ص 59 - 116.
- 22 - جعيدر، عمار محمد، «المخطوطات العربية في ليبيا بين: المصادر الوصفية / والنصوص الوثائقية / والوضع الحالية»، ضمن: معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، إشراف: اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة والعلوم، طرابلس 2008، ص 325 - 428.

- 23 - جحيدر، عمار محمد، معجم اليوميات الليبية (الجزء الأول: 958 - 1248هـ / 1551 - 1832م)، طرابلس: مجمع اللغة العربية، 1442هـ / 2021م.
- 24 - جحيدر، عمار محمد، المؤرخ أحمد النائب الأنصاري: عودة توثيقية إلى سيرته / ورؤية نقدية في آثاره. [مخطوط: نشر منه الفصلان الأول والثاني، متفرّقين، والفصل الثالث قيد التحرير، للنشر ضمن الكتاب - بإذن الله تعالى].
- 25 - جحيدر، عمار محمد، «المؤرخ حسن الفقيه حسن واليوميات الليبية»، (محاضرة قدّمت في افتتاح الموسم الثقافي لمشروع تنظيم وإدارة المدينة القديمة، بدار حسن الفقيه حسن للفنون / مقر القنصلية الفرنسية التاريخي بمدينة طرابلس القديمة، مساء الثلاثاء 15 - 1 - 2002). وهي عرض لليوميات الليبية التي صدر منها الجزآن الأول والثاني.
- 26 - الحُسَين، علي الصادق، محلة كوشة الصقّار بين ذاكرتين في أواسط القرن العشرين: سردٌ طبوغرافي، مهني، سكّاني، تنسيق وتعليق عمار محمد جحيدر، طرابلس: مجمع اللغة العربية، 2019.
- 27 - حمداوي، الدكتور جميل، نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، (نشرة رقمية بموقع: جامع الكتب الإسلامية، تاريخ المقدمة: 1 نوفمبر 2011).
- 28 - دوبيازي، بيير - مارك، النقد التكويني، ضمن الكتاب الجماعي: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف: مجموعة من الكتاب، ترجمة د. رضوان ظاظا، مراجعة د. المنصف الشنوفي، الكويت: (سلسلة عالم المعرفة 221)، 1417هـ / 1997م، ص 15 - 58.
- 29 - ابن الصلاح الشهرزوري، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن، علوم الحديث، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه نور الدين عتر، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، 1972.

- 30 - عمورة، المهندس علي الميلودي، طرابلس: المدينة العربية ومعمارها الإسلامي، طرابلس: دار الفرجاني 1993.
- 31 - الفقيه حسن، حسن، اليوميات الليبية، الجزء الأول: (958 - 1248هـ / 1551 - 1832م)، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1984 (ط 2 مصورة، 2001).
- 32 - الفقيه حسن، حسن، اليوميات الليبية، الجزء الثاني: الحرب الأهلية ونهاية العهد القرمانلي (1248 - 1251هـ / 1832 - 1835م)، تحقيق عمار جحيدر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001.
- 33 - الفقيه حسن، حسن، اليوميات الليبية، الجزء الثالث: ايالة طرابلس الغرب في أوائل العهد العثماني الثاني (1251 - 1277هـ / 1835 - 1861م)، تحقيق عمار محمد جحيدر [2018]، طرابلس: المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية (قيد النشر - بإذن الله تعالى).
- 34 - مالطي / دوجلاس، الدكتورة فدوى، بناء النص التراثي: دراسات في الأدب والتراجم، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.
- 35 - مصري، د. محمود مصري، «تأصيل قواعد تحقيق النصوص عند العلماء العرب المسلمين: جهود المحدثين في أصول تدوين النصوص»، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 49 - الجزء 1، 2 (ربيع الآخر - شوال 1426هـ / مايو - نوفمبر 2005م)، ص 35 - 66.
- 36 - مصري، الدكتور محمود مصري، «تحرير مصطلح تحرير النص»، مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد 61 (شعبان 1438هـ / مايو 2017م)، ص 128 - 142.

- 37 - المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (766 - 845 هـ / 1365 - 1441 م)، مسوّد كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، حَقَّقها وكتب مقدمتها ووضع فهرسها الدكتور أيمن فؤاد سيّد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 1416 / 1995. (534 ص).
- 38 - المنجد، الدكتور صلاح الدين، قواعد تحقيق المخطوطات، الطبعة العربية الخامسة، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1976 م.
- 39 - المؤرخ أحمد النائب الأنصاري (1264 - 1336 هـ / 1848 - 1918 م): حياته وآثاره وعصره في الذكرى المئوية لصدور كتابه مه نهاية القرن (1899 - 1999)، أعمال ندوة علمية، تحرير عمار محمد جحيدر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2008.
- 40 - هارون، عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط 2، القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، 1965 م.
- 41 - هارون، عبد السلام محمد، قطوف أدبية: دراسات نقدية في التراث العربي (حول تحقيق التراث)، القاهرة: مكتبة السنة، 1409 هـ / 1988 م.
- 42 - وائل، أحمد، «مصير المسوّدات»، صحيفة أخبار الأدب، العدد (903 / 7 - 11 - 2010).
- 43 - الودغيري، د. عبد العلي، التعريف بابن الطيّب الشرقي، الرباط: منشورات عكاظ، 1990.

\*\*\*

